

60

كتابي

شارلوت برونتي



# جين إير

الجزء الثالث

[www.liilas.com/vb3](http://www.liilas.com/vb3)  
^ RAYAHEEN ^

الناشر  
المؤسسة العربية الحديثة

البيروت والشرقية والكويت

١٠ شارع دوق صفاي بالقاهرة - القاهرة - ١١٥١١٠٠٠

محمي

APPROVED



## مطبوعات كتابي إصدار جديد

### عزيزى القارئ:

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شيء تقريباً: تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت! .. وهكذا اقتسرن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى: وكان نصيب صغراهن «آن برونتى» من هذا الإنتاج رواية (أجنس جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مترفعات ودرنج) . أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب - وهو مرض السل أو التدرن الرئوى - فماتت به «شارلوت» فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ - ١٨٥٥) ، وماتت به «إميلي» فى سن الثلاثين (١٨١٨ - ١٨٤٨) .. ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ - ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لا تنف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجوا القاتم الذى تنسم به رواياتهن جميعاً . فقد كانت أسرة «برونتى» تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بالإنجلترا .. وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماري ، و إليزابيث ، و شارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلي ، وأخيراً «آن» .

وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين ! وبعد أربع سنوات ألقى الأب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية - هى المدرسة الراهبة التى وصفتها «شارلوت» فى رواية (جين إير) باسم «لوود» .

هلمى مراد





# جين إير

الجزء الثالث والأخير

## هكذا بدأت القصة

### ملخص ما ورد في الجزءين الأول والثاني

• كان أقصى ما تفتحت عليه عيناى — أنا (جين إير) — فى طفولتى ، هو أنتى كنت وحيدة فى الحياة ، بلا أسرة ، ولا مال ، ولا جمال ! ..  
 فقد مات والدائ — الواحد بعد الآخر ، فى مدى شهر واحد — وأنا بعد طفلة لا أكاد أعى شيئاً ، فكفلتنى خالى مسر (ريد) ، الذى كان يعيش فى رخاء فى قصر (جيتسبيد) . ولكنه لم يلبث أن توفى ، وتركتنى فى رعاية أرملة مسر (ريد) .. على أن حيانى بعده لم تكن نعيماً ، فقد كان (جون) — ابن خالى — يجد متعة فى إيذائى ، وكانت شقيقته (جورجيانا) و (إليزا) تعاليان على — بينا حرصت أمهم — مسر ريد — على أن تعاقبنى بدنوبيهم ، وأن تعمل على إذلال . وحدث ذات مرة أن حبستنى ، فى غرفة مهجورة ، رهية ، استبدت فيها الفزع ، حتى أسلمنى إلى مرض قاس . ودفعنى الحالة النفسية التى خلفها هذا الحادث ، إلى أن أروى للصيدلى — الذى عادنى وعالجنى — كل ما كنت ألقه من عنيت مسر ريد وأولادها وخدمها ، فعرض الرجل الطيب أن يتصل بأقاربى ليقتدوني من الحرمان والعذاب ، ولكننى لم أكن أعرف أحداً من أهل أبى .. أجل ، لم أكن أعرف عنهم سوى ما كانت تذكره مسر ريد من أنهم فقراء ، وضيعون .. ولم أكن من الشجاعة بحيث أشتري حريق بالفقير ! .. ومن ثم اقترح الصيدلى على مسر ريد أن تلحقنى بمدرسة داخلية ، فراق لها أن تتخلص منى ، وألحقتنى فعلاً بمعهد خيرى



للبيكات في (لووود) .. وكان خير عزاء لي في حياتي الجديدة ، أن  
مالت ناظرة المدرسة - من تميل - إلى ، ففكرتني بطقها وتشجيعها :  
وقضيت في المدرسة ثمان سنوات : سناً كطلميلة ، واثنتين كعلمة ،  
وأثنت في تلك الأثناء الرسم ، والعزف على (البيانو) ، كما أجدت  
اللغة الفرنسية . ثم استبدت في الرغبة في ملاحقة (لووود) ، بعد أن  
تزوجت نصيرتي (من تميل) وغادرتها .. ولم ألبث أن عيّنت معلّمة  
للتلمذة دون العاشرة من العمر . فانتقلت إلى قصر (تورنيلد) بالقرب  
من مدينة (ميكوت) :

\*\*\*

● ولم يكن في القصر سوى سيدة مسنة تدعى (فيرفاكس)  
- عرفت فيما بعد أنها المشرفة عليه وليست زينة - وفي رعايتها تلميذتي  
(أديل فارنس) التي كانت في حوالي السابعة أو الثامنة من عمرها ،  
والتي كانت تحب ، شاحبة ، لطيفة ، ولدت في فرنسا ، وكفلها  
مستر (دوشستر) سيد القصر . ولم تكن الصغيرة تذكر عن أبيها  
شيئاً ، ولكنها كانت تذكر حنان أمها وعنايتها بأن تلقينا - منذ طفولتنا -  
الشعر والإلقاء والرقص .. ولم أكن بالألى والذي تلميذتي ، فقد علمت  
أنهما ماتا .. أما سيد القصر ، فقد عرفت من أحاديث مسز فيرفاكس  
وأديل ، أنه كان سيداً محترماً ، يملك معظم أراضي المنطقة ، ويعتبره  
مستأجرو أراضيها عادلاً متحرراً ، وكان كثير الأسفار ، على شيء من  
الشفقة ، فلا يكاد المرء يدرك أمرور هو أم مساء ، بل لا يكاد المرء  
يفهمه ! .. ولكنني لم أحفل بهذا ، إذ كان السيد متغيباً ، وكان حنان

مسز فيرفاكس - وتعلق تلميذتي بي - وأبهة القصر وجمال المناظر المحيطة  
به .. كل هذه كانت تشغلني عن السيد الغائب !  
ولم يكن في القصر عدداً سوى مربية فرنسية تدعى (صوفي) ،  
جاءت مع أديل من أوروبا ، وخادم لتغليظ الدار تدعى (لياه) ،  
وحوذي يدعى (جون) وزوجته . وكان لهم صف من الحجرات  
الصغيرة - خلف القصر - لسكنهم : وفيها عدا هذا . كان ينعم على  
القصر طابع غريب ، يبدو في أجل صورة في الطابق الثالث ، الذي  
كان مكتملاً بقطع من الأثاث عريقة في القدم ، بل أثرية .. وأوحى  
إلى جوّه بالأشباح !

وفيها كانت مسز فيرفاكس تطوف في حجرات هذا الطابق ،  
صفت ضحكة عجيبة .. ضحكة واضحة ، متكلفة ، كتيبة ! .. وإذا  
تكررت من وراء باب إحدى حجرات الطابق ، قالت مسز فيرفاكس :  
« لعليها ضحكة الخادم جريس بول ! .. وقدر لي أن أرى (جريس)  
هذه ، فيما بعد ، فإذا بها امرأة ربعة القوام ، بين الثلاثين والأربعين من  
عمرها ، حمراء الشعر ، جامدة الأسارير ، أقرب إلى أن تكون شحياً  
مخيفاً ! .. واعدت - بعد ذلك - أن أسمع هذه الضحكة الرهبة تجلجل ثم  
تعقبها ضغينة شاذة ، وأن أرى (جريس) - أحياناً - تغادر غرفتها  
إلى المطبخ ثم تعود حاملة وعاء مليئاً بالطعام .. وكان مظهرها يخالف  
تصرفاتها الشاذة ، فقد كانت قناتها الحادة تنم عن رصانة ، وكثيراً  
ما حاولت استدراجها إلى الحديث ، فكانت تبدي زهداً فيه ، وتجنب  
باقتضاب يقطع على المرء أي أمل !

● وفي عصر أحد أيام شهر يناير - وكنت قد قضيت ثلاثة أشهر في القصر - خرجت أسمى على قدمي إلى قرية (هاى) التي كانت تبعد بحوالى المائتين عن القصر ، وإذا في أفاجأ في بقعة موحشة من طريق ضيق على سفح التل ، بفارس يصحبه كلب ضخم .. واستبد لي الخوف ، وقد خلت أن الفارس وجواده وكلبه من الأشباح . ولكن الجواد لم يلبث أن انزلق على الصخور المكسوة بالجليد ، فوقع الفارس والثور قدماه . وحفظت إلى مساعدته ، فقبل المساعدة في جفاء وخشونة .. وكان طويل القامة ، عريض الشكين ، أحمرة البشرة ، ذا قسبات جافة ، وحاجبين غريزين يلتقيان فوق عينيه .

وعندما عدت إلى القصر في المساء ، عرفت أن الفارس لم يكن سوى .. مستر روشستر ، سيد القصر !

ودبت الحياة في (نورفيلد هول) بمقدم السيد ، ولكنني لم أحظ بلفاته ، حتى طلب ذات مساء أن أتناول وتلميق الشاي معه في حجرة الاستقبال . وكانت مقابلته لي جافة ، فاترة ، ولكنه ما لبث أن سألني عن حياتي السابقة ، وعن قراماتي وهواياتي في شيء من الجفاء والسخرية . وإذا غلوت إلى مسز فيرفاكس في تلك الليلة ، أبدت دهشة لطلب ملباع السيد وغطاؤه ، فإذا بها تلمس له العنبر بأن لديه أفكاراً مؤلمة تنكد عليه صلوه وتعذب بروحه .. وعلمت أن حياته العالمية لم تكن هائلة ، فقد أضر أخوه الأكبر صلباً أبيهما عليه ، ومن ثم اتخذ على أن يورطاه في مركز اليم أغضبه منها ، فقاطع الأسرة ، ولم يعد يستقر في حياته ، ومع أنه وورث المقاطعة منذ ثلث سنوات - لوفاة أخيه - إلا أنه

لم يكف عن الأسفار ، ولم يكن يفهم في (نورفيلد) أكثر من أسبوعين ، في أية مرة .. وأدركت من الحديث أن في الأمر سرّاً غامضاً ، ولكن مسز فيرفاكس لم تشأ أن توضح عن شيء !

\*\*\*

● وسألني مستر روشستر مرة وقد فاجأني وأنا أنامل سمته : « أترينني جيلاً ؟ » .. وقبل أن أقبل إلى واجبات الخيالة والخيافة ، انزلق لسألي قائلاً : « لا يا سيدى ! » .. وحاولت أن أعتذر ، ولكنه أصر على أن أبتدع عيونه . فلما تودعت قال : « إنني لا أطبق معاشرَةَ الأطفال والنساء العجائز .. ولست عاباً للبشر والإنسانية بصفة عامة ، ولكني أحمل فميراً بين جنبي ، كما كان لي فيما مضى قلب رقيق .. وكنت في مسك شديد الحساسية ، أعطف على كل من لم يستكمل النضج ، وكل من لا يجد عائلاً ، وكل من يتوهم الحظ . بيد أن القدر عاداني منذ ذلك الوقت .. بل إنه طحني بيديه ! »

وراح يداووني في حديث لم يكن من اليسير على المرء أن يقطع بما إذا كان جاداً أو هازلاً ، صريحاً أو مكرراً .. وتبدى لي الرجل عجباً .. وكان يقرأ في عيني ما يطوف برأسي . وحديثي عن نفسه : فكان مما قاله : « أقسم لك إنني لست شريراً ولا غدياً ، ولكنني - لطروف خاصة أحاطت بي - أصبحت مبتذل الأخلاق ، وأتماً مهيناً تردى في كل الملهذات الرخيصة التي يحاوت الأغنياء والنافقون أن يدخلوها على حياتهم » ونطرق إلى فلسفة الخير والشر ، والنزوة بعد الخطيئة .. ثم تحدثني عن أدبل ، فأدركت منه أنها ابنة ممثلة فرنسية كانت تدعى (سيلين فارنس) ،



قال عنها : « لقد قتلتني وجعلتني أنفق عليها بغير حساب ، عندما كنت غص الإهاب » .. وما ليث أن روي لي قصته معها - ق لقاء آخر : كان مفتوناً بالمسئلة الفرنسية ، وقد أوهمته بأنها تحب حباً عتيقاً - ورغم دمايته - إلى أن اكتشف يوماً أنها توتر عليه ( فيكونت ) شاباً ، طائفاً ، فاسداً ، وسعدهما يسبانه بأفزع السباب ، وأخذت ( سيلين ) تعدد عيوبه وعاهاته .. ففاجأهما في خلوتهما تلك ، وهجر الغاية ، كما يارز ( الفيكوت ) فترك في ذراعه وصاصة .. وظن أنه اتى منها ، ولكن ( سيلين ) كانت قد جهاته بالصغيرة ( أديل ) قبل ذلك بسة أشهر ، فما ليث أن حجرت الطفلة - التي زعمت أنها ابنة - و « لم أكن أعترف بأى حق شرعى لأديل ، بيد أنني أنقذتها من أوحال باريس ، لتزعرع هنا في تربة نظيفة » !.

\*\*\*

● وجلبني إليه صراحتة ونقته اللتان جعلتا يعاملني كما لو أنه كان قريبي وليس غلامى .. وأدركت أن ما كان يبدو عليه من خشونة وخجث واكتئاب ، إنما نشأ عن صدمات القدر القاسية !

وفي الليلة التي روي لي فيها قصته مع ( سيلين ) ، استيقظت في جوف الليل على ضحكة شيطانية خبيثة ، وعلى أبين وشوار .. وتوقعت أن تكون ( جريس بول ) في إحدى نوباتها ، ولكني لم أفر على اليقاء بغير دى ، فخرجت إلى الردهة ، وإذا في اكتشف حريقاً في مخدع مسر روشتير !. واستطعت أن أطفى النار التي كانت مشتعلة حول القرائش ، وأن أوقف السيد في اللحظة المناسبة : وهممت بأن أطلب النجدة ، ولكنه

استحلفني أن أكنم كل شيء ... وعندما هممت بأن أأخادر بحده أمسك يدي وقال : « لقد أنقذت حياتي .. وما كنت لأحتمل أن أدين مخلوق بمثل هذا الدين الضخم ، ولكن الأمر يختلف معك .. كنت أعرف أن خبراً سيصيبني على يديك ! » .

وأدهشني أن أتبين في اليوم التالي أنه زعم لمس فيرفاكس والخدم بأنه استغرق في النوم بينما كان يقرأ في فراشه ، فامتدت النار من الشمعة إلى الستائر .. ولكن الذي أذهلني حقاً ، هو أنني رأيت ( جريس بول ) في المخدع تحيط ستائر جديدة ، دون أن يبدو عليها أى انفعال أو شعور بالإثم .. وصعجت من أن يتكلم السيد الجسور ، المنتقم ، المتعالي ، جرم خدام كهذه ، ويدع نفسه تحت رحمتها !.

وفضاعت من عجبني أن السيد وحل في صباح الحادث ، دون أن أظن إلى رحيله .. وعلمت من مسز فيرفاكس أنه في زيارة قصر أسرة من ذوي الجاه . حيث كان مدعواً مع طائفة من عليه القوم .. وداخلني شعور غريب عندما حدثتني السيدة المعجزة عن شفت سيدات المجتمع الرافق بمستر روشتير ورغم أن شكله لم يكن يرشحه لذلك .. واشتد أثر ذلك الشعور عندما سمعت منها أن السيد كان يبدى اهتماماً خاصاً بفتاة من أسرة رفيعة تدعى ( مس الحرام ) . وكانت حسناء ، ذات جمال خللاب . وشد ماجزعت حين تبينت حقيقة ذلك الشعور الذي أبفضه في نفسي حديث مسز فيرفاكس ، فأدركت أنني .. أحببت غلامى ! .

\*\*\*

● واشتدت تيارات الهوى ، عندما أقبل مستر روشتير - بعد أسبوعين

من غيابه .. مصطحباً طائفة من سيدات وسادة الطبقة الراقية .. وكانت ( من انجرام ) بينهم !.. وفي الوقت الذي كنت أعاني فيه من صلف هؤلاء السادة والسيدات .. وجدتي أكثرى بالفجرة اللاذعة ، لما كان يديه مغلوي من اهتمام بمس انجرام .. ومن تقرب إليها .. وحاولت أن أكبح جماح غلي ، ولكنني لم أكن أمك أن أنصرف عن حب غندوم .. حتى بعد أن أفركت أن لا بد له من أن يتزوج من الفتاة لاعتبارات عائلية ، واجتماعية !.. ولم أكن كذلك أمك أن أستهزئ بهذا الزواج ، ولكنني أوجست منه شراً ، إذ تبدت لي مس انجرام متعجرفة ، فضحلة المشاعر ، تافهة التفكير !.

وحدث أن هبط القصر ذات يوم رجل غريب ، ذكر أنه يدعى ( ميسون ) ، وأنه قدم من ( جمابكا ) ، وأنه كان صديقاً لمستر روشستر ، ولكن السيد كان متغيباً عن القصر ، فأصر الغريب على أن يمكث في انتظاره .. وفي تلك الأثناء ، أقبلت عجوز من العجيز ، تعرض فتوتها في قراءة الطالع والتنبؤ بالغيب ، ولكنها أصررت على أن تقصر تدبيراتها على الشابات غير المتزوجات فقط ، وعلى أن تكون كل منهن على حدة ، تحلو إليها في غرفة المكتبة دون رقيب !.. وأقبلت الشابات في لفة وفضول ، فدخلن للعجوز تبعاً ، حتى إذا فرغت منهن ، أقبل خادم يقول : « إن العجيزة تقول إنه لا تزال الباحجرة شابة غير متزوجة لم تذهب إليها ، وتسلم ألا تنصرف حتى تراها !.. » ووجدتني مسوقة إلى أن أسئل إلى غرفة المكتبة ، وبادرتني العجوز مسائلة : « لماذا لا تزجفين ؟ » فأجبت بأنني لا أشعر ببرء ، وعادت تسأل : « ولماذا لم يذهب وجهك ؟ »

فأجبت : « لأنني لست مريضة » ، واستطردت تسألني : « ولماذا لا تستشيرين حرقتي ؟ » ، فقلت : « لأنني لست حقاً » !.. وإذا العجوز تضحك قائلة : « بل أنت بردانة لأنك وحيدة لا يشعل نيرانك الكرامة احتكاك .. ومريضة لأن أمي وأجلي ما يوجب من المشاعر للرجال ينأى عنك .. وحقاً لأنك يرغم ما فاسين لا تشيرين إليه ( أي لقد جل المرموق ) ليقترب منك ، ولا تقدمين خطوة نحوه لثقتي به !.. » ومضت تحلل نفسي تحليلاً معقولاً ، حتى مست خفيفاً موضوع ما كان يرادوني من غيره لما كان بين مستر روشستر وضيافته الفاتنة ، ونفثت بأن السيد لن يلبث أن يتزوج من مس انجرام ، ثم راحت تكشف عن أدق ما كان يخالج نفس من أحاسيس خفية .. وما أن انتهت حتى قالت : « ألا انهضين يامس لير .. لقد انتهت المسرحية ! ».

وشد ما كانت دهشتي حين تبينت أن العجيزة العجوز ، لم تكن سوى .. مستر روشستر منكر ؟! وإذا قلت له إن الضيف الغريب .. مستر ميسون .. في انتظاره ، شجب وجهه وترنح قائلاً : « بالاشيطان !.. » لقد أصابني لطمعة بائسين !.. لقد قدمت لي كضفك مرة من قبل ، فعدتني أنكبي عليها اليوم .. وما لبث أن سألتني أن أدعو إليه السيد ، ولكنه استعصى .. قيل ذلك .. من أنني على استعداد لأن أعاونه ، فقال : « ولو جاء هؤلاء الناس وبصقوا في وجهي ، فأذا تفعلين ؟ » .. فقلت : « أطردهم ! ».

— إذا شبروا بك لنسكك في ؟

— لا أعرف شيئاً عن هذا التشهير ولكنني لن أحفل به لو عرفت !



● وقضى. مستر (ميسون) ليلته في القصر ، ولكنني استيقظت في جوف الليل على صرخة مروعة ، حادة ، أعقبتها ضجيج صراع كان يلبور في الغرفة التي كانت تملاو غرقى ، وصرخات تطلب النجدة وتنادى روشتر .. وقفز الضيوف من مضاجعهم مذعورين . ولكن سيد القصر لم يلبث أن ظهر فطأتهم وزعم أن كابوساً اتاب خادماً عصية ، سريعة الهياج .. وما أن اطمانت إلى أن الجميع عادوا إلى مخادعهم ، حتى ارتدت ثيابي ، وجلست أنتظر وقد شعرت بأن مخدومي في حاجة إلى معونتي .. وفعلاً أقبل بعد قليل ، فسألني أن أحضر إسفنجة وبعض (النشادر) ، ثم قادني إلى غرفة في الطابق الثالث .. وصعدت ضحكة (جريس) تلساب من غرفة داخلية . بلغد المرء إليها خلال غرفة أخرى واسعة بها سرير كبير .. وفي هذه الحجرة رأيت مستر ميسون فاقد الوعي جريحاً . وتركني السيد أعني بإيقاف الدماء التي كانت تلساب من جراح ضيقه ، بينما أسرع هو إلى استدعاء جراح ..

وانشدني الخوف وأنا وحيدة مع الجريح ، لافصلني عن المرأة التي كادت تفنك به - والتي أوشكت أن تحرق روشتر من قبل - سوى باب واحد : .. ورحلت أسائل نفسي : أية جريمة هذه التي تعيش متجسدة في القصر المنعزل ، دون أن يقوى صاحبه على إقصائها ؟ .. ولقد سمعت مستر روشتر يختار لفريقه غرفة في الطابق الأسفل ، فما الذي جاء به إلى هنا ؟ .. ولماذا تستر مستر روشتر على الحريق ، كما أخذ يستتر على هذا الحادث الأخير ؟ .. ثم ، لماذا وقع نيا وصول مستر ميسون عليه وقع الصاعقة ؟ .. وأخرجني من خوفي وحيرتي مقدم السيد مصطحباً

الجراح ، الذي وجد أن لحم كتف ميسون كان ممزقاً من أثر أسنان .. وقال الجريح : « لقد عضتني .. انقضت عليّ كتمرة ضارية ، عندما انتزع منها روشتر السكين ! » فقال مستر روشتر : « كان عليك أن تصارعها ولا تستسلم .. لقد أنذرتك ! .. كان في وسعك أن تنظر إلى الغد لأكون معك .. كانت حافة منك أن حاولت مقابلتها الليلة وحده ! .. وشاهدته يرتجف في الشجر لزورع وكراهية وهو يتكلم .. وما لبث أن أمرني بأن أحضر من خزائنه قميصاً ورباط رقيقة لمستر ميسون ، ثم ذكر له أنه سيرسله مع الجراح بعيداً عن القصر قائلاً : « إن هذا لصالحك وصالح تلك المخلوقة الشقية . لقد ناضت طويلاً لتعاشي التعريض والتشهير . ولا أريد أن يحدث شيء من هذا أخيراً ! » وفي هدوء ، رحل مستر ميسون مع الطبيب بينما كان الضيوف نائمين !



● وكان الصبح قد تنفس غلما ودعتهما مع مستر روشتر . فلما تهبأت للعودة إلى داخل القصر ، دعاني إلى بستان ذي باب مغلق - في جانب من القصر . وأخذنا نتمشي في هدوء ، وسألته إن كان الخطر الذي توقعه غلما علم بوصول مستر ميسون قد انتهى ، فقال : « لا أستطيع الجزم بذلك .. حتى بعد أن يغادر ميسون انجلترا ١٩٠٤ .. إن ميسون لن يمضي غامداً بأذى ، ولكنه ربما تسبب عن غير قصد ، وبكلمة يتفوق بها ، في حرمانني إلى الأبد من السعادة ، إن لم يكن من حياتي ! »

وفيما كنا جالسين في البستان ، حدثني عن انفائه منذ الصغر في حياة كلها زيف ومظاهر ، وكيف أنه أوتكب في بلد أجنبي خطيئة تراكت نتائجها حتى أصبحت لا تطاق ، وحتى أغلقت أبواب الأمل في وجهه وهو بعد في مثيل العمر . فأخذ يوم على وجهه بخفا عن الراحة . ومضى يشهد السعادة في اللهو الجبانى الشهوانى الذى يظلم العقل ويؤذى الشعور .. ثم عاد إلى الوطن بعد سنوات من التنى الاختيارى مثلث القلب ، ليجد صديقاً جديداً لمس فيه القضايا التى ظل يبحث عنها عشرين سنة ، فإذا قلبه يتعش ، وإذا آماله تتجدد .. وكنت أنا ذلك الصديق على ما فهمت . ولكنه استطرذ قائلاً : « إنه يرجو أن يبدأ حياة جديدة معيدة مع ذلك الصديق الغريب ، ولكن : هل يجوز له أن يتخطى عقبة العرف والعادات .. تلك العقبة التى لا يترها ضمير ولا عقل ؟ » .

وما لبثت أن فوجئت بدعوة من مسز (ويد) أرملة خالى التى سامعنى العذاب في صغرى .. كان أبنا قد مات بعد أن بدد ثروته ومعلم ثروتها . وكانت هى تحتضر وتطلب أن أكون إلى جوارها . وصح لى خلدوى كارهاً بأن ألبى دعوتها ، فرحلت إلى (جيتسيد) . وهناك وجدت مسز (ويد) ما تزال تكن لى أشع ألوان البغضاء ، برغم أنها كانت على أبواب القبر .. وتبينت أنها كانت قد تلقت خطايا منذ سنوات ثلاث من قريب لوالدى يدعى (جون إير) ذكر فيه أنه هاجر إلى (ماديبيرا) حيث أصاب ثروة ، وأنه يعنى أن يثنائى ليرك لى ثروته عند موته . ولكن الأرملة الخفود كتبت إليه زاعمة أنني مت ١ .

● وانقضى شهر قبل أن أعود إلى (ثورنفلد) بعد موت مسز (ويد) .. وكان مسز روشتر أول مخلوق رأيته عند عودتى ، إذ كان يجلس وحيداً في طرف ناء من حدائق القصر ، فاستقبلنى بابتهاج .. وزخر الشجران اللذان أعقبا عودتى بهلوه مريب ، مشوب بالغموض . إلى أن خرجت أنتره عند غروب شمس أحد أيام منتصف الصيف ، وإذا مسز روشتر يلقانى في البستان ، فيحدثنى في لجة غامضة عن زواجه . ولما أبدت رغبة في مباحرة القصر وترك منصفى قبل وصول عروسه ، اقترح أن يلحقنى بخدمة أسرة صديقة له في (إيرلندا) .. فقلت واجفة القلب : « ولكن إيرلندا بعيدة يا سيدى .. والبحر يفصلها عن إنجلترا ، وعن ثورنفلد .. وعن ... » فتسامل : « وعن ماذا ؟ » . فقلت : « وعنك أنت يا سيدى ! » وحلفت اللذوع من عيني دون إرادتى .. وعصفت الأحران بكياى ، فلم ألبث أن هتفت : « ليتنى لم أولد ولم تقع عينائى على ثورنفلد ! » .

واعتاجبنى الحزن والحب ، فإذا مسز روشتر يحترقنى بين ذواحيه ويضغظ شفتيه على شفتى ، ويقول : « إن إرادتك سوف تقور مصيرك ، وأنا أقدم لك قلبى ويدى وممتلكاتى .. هل تترجئنى ؟ » . وظلته في البداية يسخر منى أو يعبت فى ، ولكنه راح يؤكد لى أنه جاد ، وأنه ما فكر فى الزواج من مس انجرام راضياً ، لاسياً وقد استوتق من أنها لم تكن تحبه ، وإنما كانت تحب ثروته ، فلما أومها بأن هذه الثروة لا تساوى ثقت فيتها الظاهرية ، انقلبت معاملتها له إلى فنور . واستطرذ قائلاً : « أما أنت .. أنت أينما المخلوقة الغريبة العجيبة



رهية .. رأيت قصر (لوريفيد) أطلالا موحشة .. ورأيتي أجنسول  
ومط الحشائش التي نبتت بداخله .. وأنا أحمل الطفل الضهيول .. وإذا  
بقدمي تتعثران .. وما لبثت أن سمعت وقع صياك جواد ، فخييل لي

أن مسر روشستر هو القادم ، وأسرعحت أتسلق جداراً .. وإذا بالأحجار  
تلهاو ، وإذا بالطفل يلف ذراعيه حول عني حتى كاد يخنقني ..

وفقدت توازني فمقطت ، ثم صحوث من نومي : فبهر عيني نور شعة :  
ورأيت باب الخزانة .. التي علقت فيها ثوب الزفاف وخمار العرس -

مفتوحاً .. وهمتت قلانة أن (صوفي) - مزينة أدبل - في الحجرة ،  
وإذا بشخص يمرق من الخزانة .. ويرفع ثوباً عالياً .. ويتأمل الثياب

المعلقة ، وهو ضامته ..! واستبدت في الحيرة والنفوف ، ثم جسد  
الدم في عروقي .. لم يكن الشخص (صوفي) ، ولا (لياء) ، ولا مسر

(فيرفاكس) .. ولا تلك المرأة الغربية الأطوار .. (جويس بول) ..  
.....

والآن تستطيع أن تقر ما تبقي من هذه القصة الرائعة :  
.....

التي لا تمت إلى الأرض بصلصلة : فإني أحنك كما لو كنت من لحمي ..  
أنت .. أيتها الطفيرة المغمورة الضئيلة البسيطة .. أنت هي التي أوصل  
إليها أن تقبلي زوجاً ! !

وحدهم للزواج موعداً بعد أربعة أسابيع ، فلم تكده الدنيا تسع  
لقرحتي !

\*\*\*

● وانفلسي الشبر كأنه حلم بروج ، لم يكن بعكر عناءٍ خلاله ، سوى  
شعور مبهم بأنه لم يكن من المعقول أن يعالفتني القدر إلى الحد الذي يحقق  
سعادتي .. ووفر في نفسي أن زواجي من مسر روشستر لن يتم !

وتحدث أن تعيب مسر روشستر عن القصر يومين : وكان مقدراً  
أن يعود في الليلة السابقة على الزواج فجلست أنتظره .. ولكنه تأخر ..

وكانت الأقطار تهلل مدبرة : والرياح ترمل عواءه جزيئاً : رهيباً ..  
وأويت أخيراً إلى مخدعي ، ولكنني غادرته في جوف الليل .. وانطلقت

إلى الخارج عبر حافة بالعاصفة ، لأتظر السيد الحبيب ، وما أن رآني  
حتى هتف في جزع متلفظ يسألني عما بي .. ووجدتني أفئني إليه

مختلواً وهو حاسي .. فقلت رأيت في المنام في الليلة السابقة التي أسير  
في طريق مجهول ، كثير التعاريج ، واسطر ينهر مدبرة .. وعلى ذراعي

طفل صغير يولول بصوت جزين .. وكنت أحاول أن ألتقي بمسر  
روشستر .. ورحت أنا فيه وأفسح إليه ، ولكن قدي صرنا إلى الأرض

وصوتك راح مع الريح ، والسيد ممن في الابتعاد عني .. واستيقظت  
من الحلم مذعورة ، ولكنني لم ألبث أن نمت ثانية ، فرايت مناماً أكثر

• وقاطعتني سيدي قائلا : لا بد أن الشخص كان واحدة منهم .  
 - لا ياسيدي : أقسم لك إن الأمر كان على النقيض .. إن الشك  
 الذي كان مائلا أمامي ، لم تقع عليه عينا في أرجاء ( ثور غيباء حول )  
 من قبل .. كان ارتفاع القامة والصفافها غريبين عني .  
 - صفيه يا جين !

- يالوح لي ياسيدي أنها امرأة مديونة ضخمة يشد شعرها القزير  
 الأسود على ظهرها ، ولا أدري ماذا كانت تلبس ، فقد كانت ترتدي  
 شيئا أبيض مستقبعا لم أتبين ما إذا كان عباءة أو ملاءة أو كفتا !  
 - هل شاهدت وجهها ؟

- لم أرها في البداية ، ولكنها مرعانا ما أخذت حمار الزفاف من  
 مكانه فرقعه وراحت تتأمله طويلا ، ثم ألقت به على رأسها واستدارت  
 إلى المرأة . وفي تلك اللحظة شاهدت وجهها وأساورها منعكسة بوضوح  
 تام على ضفحة المرأة المعتمة .  
 - وإنما كان شكلها ؟

- مخيف : مروعة .. ألواء ياسيدي : ما رأيت قط مثل هذا  
 الوجه !.. وجه عديم اللون : وحشي ، يودي لو أنسى كيف كانت  
 مقلناه الممرتان حولان في حجرهما اللذين توسطتا وجهها مبيضا ،  
 سودا ، رحيبا !

- إن الأضياع شائعة في العادة يا جين !

- لقد كان هذا الشيخ قزميا ياسيدي ، وكانت الشفتان  
 متورمتين داكنتين . والجبين مغصا ، والحاجبان الأسودان مرتفعين

متباعدين فوق العينين المتين كانتا بلون الدم .. أنا أقول لك بماء ذكرى  
 هذا الشيخ ؟

- قولي !

- بالشيخ الألفاني الخفيف .. الفول شارب الدماء .

- آه .. وماذا فعلت تلك المرأة ؟

- رفعت فخاري عن رأسها الخزيل ياسيدي : ثم مزقته شظيرين  
 ألقت بهما على الأرض وداستهما بقدميهما .

- ويعد ذلك ؟

- تجلبت إحدى منائر الشافذة وأطلقت إلى الخارج ، ولعلها  
 شاهدت تباشير الفجر : لأنها تناولت الشعلة وسارت إلى الباب . فلما  
 بلغت فرائشي : وقفت وراحت تلحف في يديها المتدنتين : ثم دفعت  
 بالشعلة قريبا من وجهي ، وأطلتها تحت عيني . وأجبت برسبها  
 بلحم وجهي : فأبغى علي للمرة الثانية .. أجل ، المرة الثانية في حياتي  
 فقدت رشدي لفرط الرعب !

- من كان معك عندما أفضت من إنحماك ؟

- لا أخذ ياسيدي غير ضوء النيران .. تهببت من فرائشي  
 وغسلت وجهي ورأسي : وشربت بعض الماء . وكنت أحس ضففا ،  
 ولكني لم أكن مريضة . وعولت على ألا أبلع بهذه الرؤيا لأحد سواك  
 ياسيدي . والآن تخبرني ياسيدي ماذا ومن تكون تلك المرأة ؟

- إنها من ابتداء زامن وآخر - أكثر مما ينبغي . بالخير انتبه :



ولابد لي من أن أعني بك يا كزى الغالى . لأن أعصاباً كأعصابك لم تخلق للناس .

— حق يا سيدى أن أعصابى لم تكن مرهقة ، وأن الرؤيا صبيحة ، وأن الحادث وقع فعلاً .

— وأخبارك السابقة ، هل كانت حقيقة هي الأخرى لا . هل ترين (أورفيلد) أطلالا ؟ وهل أصبح أنى المرقع عنك وحالت ينى وبنتك عفات لا يمكن تفليها ؟ هل فارقت بدون دعة . بدون قيلة . بدون كلمة ؟

— كلا ، لم يحدث شئ . من هذا بعد .

— وهل أنا على وشك القيام بذلك ؟ لقد بدأ فعلاً اليوم الذى سوف ترتبط فيه برابط لا تنقسم عراده ، وإذا امتزجنا وأخذنا قلن تعادلك هذه الأحوال الذهنية . إننى أضعن لك ذلك !

— أحوال ذهنية يا سيدى . . . ليتنا كما نقول ! ليتنا كانت كذلك ما دمت تعجز عن تفسير هذه الرؤيا المفزعة .

— وما دمت عاجزاً عن تفسيرها يا جين ، فلا بد أنها غير حقيقية .

— ولكننى يا سيدتى عندما قلت لنفسى بهذا القول ثم قادرت قرأتى فى هذا الصباح . نظرت حولى فى الغرفة لأجمع شئان نفسى ، فإذا عبتاى تقعان على أخبار ملقى على الأرض وقد انشتر من أوله إلى آخره !

\*\*\*

• وشعرت بمستر دوستر يقزع ويرتعد ، ثم باهر بطوقى بذراعيه

ويصيح : رحمة الله إذ انقصر الشر فى الليلة الماضية على تقريب خارك ! . إن يدى لم تمس كذا تصورت ما كان يمكن أن يصيبك . . ثم شهد ، وجذبى إليه بشدة كانت معها لا أقوى على الاليت . وبعد أن أخذت إلى القصة لحظات قال فى إيتاج : « سأشرح لك الآن يا جين كل شئ . . . لقد كان الأمر نصف حلم . ونصف حقيقة . فلبت أشك فى أنه امرأة دخلت حجرتك . ولابد أن تكون هذه المرأة جريس بول فقد وصفها أنت بأنها مخلوقة عجيبة ، وأك الحن فى هذا الوصف بعد الذى علمته عنها . . أفلا كزيت ما فعلته فى ؟ . وما فعلته بمستر ميسون ؟ . ولابد أنك كتبت بين النوم واليقظة حين لاحظت دخولها وأفعالها . ونكتك فى حالتك المغمومة . بل فى حديثك . تصورتها فى صورة خيالية لا تشفق والواقع . . وما الشعر الطويل المشعث ، والوجه المشفح الأسود ، والقوام المبالغ فيه . سوى أوهام الخيال وتغليظاته الناشئة على كابوس . . أما ليزبى الشجار فحدث حقيقى من المعلوم أن تقدم عليه . ولعلك تصالين لماذا أقوى مثل هذه المرأة فى منزلى ؟ وسألتى ليد على ذلك بعد أن ينشظى على واجهة عام ويوم . وليس الآن . . أفادت راضية الآن يا جين ؟ هل قبلت شرحى لكز ؟

وفكرت قرأيت أن هذا كان التفسير الوحيد المحتمل . ومع أننى لم أقتنع به تماماً ، إلا أننى تظاهرت بذلك لأبعت السرور فى نفسه . ومن ثم أجبت بأبنامة راضية . وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بكثير ، فهاجبت لمفادته . . وعندما أخاضت الشبعة ، سألتى : « هل تنام صبرى مع أدبل فى غرفة الأطفال ؟ » فاجبت : « نعم يا سيدتى . »

... إن في قرأني أدبيل على صغره متسعاً لك ، فعليك أن تشاطرها  
إياه اليلة يا جين ، فليس من العجيب أن يؤثر الحادث الذي رويته على  
أعصابك ، وأؤثر ذلك ألا تنام وحيدة ، عذري أن تأوي إلى حجرة  
العائلة ؟

... سأفعل هذا بكل سرور يا سيدي .

... ثم أخلق الباب جيداً من الدلائل بعد أن نوقفني ( صوي ) عند  
صعودك متعالة برغبتك في أن توصيها بإيقاظك في ساعة مبكرة من  
صباح الغد ، لأن عليك أن ترتدي ثيابك وتفرغ من فعلورك قبل  
الثامنة . والآن ، اطرحي عنك الأفكار المظلمة ، بل طاردى الموم  
القائمة يا جين . ألا تسعين كيف انقلب الرياح إلى هبات ناعمة ،  
وكيف المطر عن طريق زجاج التوافه .. انظري ( ويرفع الستارة عالياً )  
وقال : إن الليل جميل !

وحقاً كان الليل جميلاً وقد صعد نصف السماء ، وأعلنت السحب  
تجانب أمام الرياح التي كانت تسوقها بعيداً نحو الشرق . وأخذ القمر  
يرسل ضياءه في هدوء ، ونظر مستر روشتر في عيني متسانلاً ثم قال :  
« كيف حال حبيبتي جين الآن ؟ »

... إنه الليل هادئ رائع .. وكذلك أنا .

... سوف لا نخلد بين اليلة بالفراق والأحزان وإنما ستكون  
أحلامك عن الحب السعيد والرباط المبارك .

ولكن هذه النبوءة لم تتحقق كلياً .. لم أحلم في الحقيقة بالأحزان ،  
ولكني لم أر أحلاماً سارة كذلك ، إذ لم يفض لي جنن ، بل رحت

أرقب أدبيل . وهي بين ذراعي ، وأتأمل نوم الطفولة الهادئ الهري .  
وأنا أرقب مطلع النهار ، وقد استيقظت كل حياتي وراحت تدب في  
كياتي .. حتى إذا نهضت الشمس ، نهضت بدوري . وأذكر أن أدبيل  
كانت متعلقة في عندها غادرتها ، كما أذكر أنني قبلتها عندها رفعت  
يديها الصغيرتين عن عني ، فجعلت أبكي .. وأنا أحتر عليها - بانفعال  
عجيب : ثم غادرتها خشية أن تقض شفتاي مضجعتها ونومها العميق ..  
فلقد تبدت لي رمزاً لحياتي الماضية . أما هذا الذي كان علي أن أتياً  
إذ ذاك اللبانه ، فقد تراءى لي أنه الرمز الذي أرحبه وأعبد ليومي المقبل  
الجهول !



## الفصل السادس والعشرون

● قدمت صوفي في الساعة السابعة لتساعدني على ارتداء ملابسني .  
والواقع أنها تباطأت كثيراً في تأدية مهمتها ، حتى عجل صبر مستر  
روشتر لتأخرني ، فيما اعتقد ، فأرسل يسأل عن السبب في عدم  
عجتي . وكانت صوفي إذ ذاك تثبت خماري الأبيض المربع البسيط الذي  
كنت أريده في البداية ، إلى شعري بدورس . فبادرت أغادرها بأسرع  
ما استطعت ، ومن ثم صاحبت بالفرنسية : « حق ! انظري إلى نفسك  
في المرآة فإنك لم تخلصي نظرة واحدة إلى صورتك ؟ » .. فعلت ثانية  
إلى الحجرة لأرى في المرآة جسماً يرتدي ثوباً وخماراً ، ولا يشبهني  
إطلاقاً بحيث خجلت إلى أنني أرى صورة فتاة غريبة صني .. وصحت



مسوقاً يتأذى : يا جين : يا جين : فخرجت إلى حيث استقبلني مستر  
روشتر عند السلم قائلاً : أيتها الملكة ! لقد أذهب رأسي بفقد  
الصبر ، وأنت تتأخرين حتى الآن !

ودعني إلى حجرة المائدة . حيث جعل يتألمني من مفرق إلى  
أخرى قديم . وما لبث أن وصفني قائلاً : أنت كنت جميلة كالزينة ،  
والتي لم أكن كل ما تزعمي به حياته فحسب ، وإنما كنت غاية  
ما تشتهي عيانه ! . وإذا قال إنه يماني عشر دقائق لأتناول فطوري .  
قد أجزمت . فليأخذ الخدم الذين استأجرهم أخيراً . وإذا ذلك سألته :  
هل أعد جون العربة ؟

— نعم يا سيدي .

— وهل أنزلت الخفاش ؟

— إنهم يفعلون ذلك الآن يا سيدي .

— اذهب إلى الكنيسة وتأكد من وجود مستر وود ( الكاهن ) مع  
الكاتب هناك ثم عد وأخبرني .

وكانت الكنيسة — كما يعلم القارئ — تقع وراء الأبواب الخارجية  
للقصر مباشرة . لذلك عاد الخادم بسرعة يقول : إن مستر وود في  
قاعة الباب رتدي الذي الكهنوتي يا سيدي .

— والقرية ؟

— إنهم يلجمون جيادها .

— لنسألهن أن يذهبن إلى الكنيسة ، وإنما يجب أن تكون

مستعدة عند عودتنا . وأن تكون كل الصلوات والخفائف معدة وجموعة  
وأن يكون الباقي في مقداره .

— حسناً يا سيدي .

ثم سألتني مستر وروشتر : أمتأهية أنت يا جين ؟ . فتهيمت  
واقفة . ولم تكن تنتظر أحداً من أصحابه ( العريس ) أو صديقات  
العروس أو الأهل والأقارب ، بل كنت وحلي مع مستر وروشتر .  
وكانت مسرورة فراقني تغل في اليوم عندما اجتمعتنا . ففهممت بأن  
أحاطها لولا أن يدي كانت في قبضة من جديد . كما كانت خطوات  
مستر وروشتر الواسعة تحتلني حتى كما يتعذر علي أن أباورها .  
وكان في وسعك أن تترك لأول وهلة أنه لن يضمخ في لحظة واحدة  
نأخرها . مهنا كانت الأكسياب ! . فما أحسب أن ( عريسة ) بدا مثله  
في غزوه البالغ . وحرصه على بلوغ غايته . مما لم عنه حبيبه الذي العمد  
في إصرار على عينين متوجعتين مستعرتين !

ولم أدر ما إذا كان الطنيس جيلاً أو سيقاً في ذلك اليوم . لكنني  
سرت في طريق لا ألتفت إلى سماء أو إلى أرض ، وقد علق قلبي — مع  
عيني — بمستر وروشتر . أسلاً في أن أرى الشيء الخلق الذي كان  
يسدد إليه نظراته — طوال الطريق — في قسوة واحدة ، وفي أن أتبين  
الخواطر التي لاح أنه كان يصارعها وكانت تصارعه بقوة . وما لبث  
أن توقف عند مدخل حصن الكنيسة . وإذا ذلك فقط . أدرك أنني  
شاهدة الأنفاس . فقال : أترينني قاسياً في حيي لا . تمهل لحظة ،  
وانكثي علي يا جين ! .

● وما یزال فی وسعی أن أذكر صورة بيت الله الأبيض القديم ، الذي قام أمامی فی هدوء ودعة ، ومنظر غراب أحمر یبدو حول برج الكنيسة ، ثم منظر السماء المشرقة اللون فی ذلك الصباح ، كما أنني أذكر شيئاً عن الآكام الخضراء المتناثرة حول القبور . ولم أنس بعد أنني رأیت رجلین غریبین - كانا یهان بین الروای الخفیضة ، ویقرآن ما سطر على شواحد القبور القليلة التي كانت الطحالب تكتسوها . وقد استلفنا انقیاض لآهبا انجها إلى مؤخر الكنيسة بمجرد أن وقعت أعینهما علیا . فلم أشك لحظة فی أنهما سیدخلان من الباب الخلفی لمشاهدة الحفلة : أما مستر روشستر فلم یلمحلهما لأنه كان مشغولاً بالنظر إلى وجهی الذي هربت منه الدماء .. وشعرت بقرق بارد یتصبب علی جبینی ، وأحسست ببرودة تسری فی وجهی وشفتی . حتی إذا بادرت إلى استجماع قواي سار معی فی رفق ولحن نرق الطريق إلى مدخل الكنيسة .

ودخلنا الفیكل المادئی الموضح . قرأیت الكاهن ینظرنا فی ثوبه الكهنوتی الأبيض عند الذبح - الذي كان متواضعاً كذلك - والكاتب بجانبه . وكان المذبح شاملاً وليس ثمة أحد سوى شبحین كانا یتحركان فی ركنین بعيد . وضدقی خدشی ، إذ أنهما لم یكونا سوى الرجلین الغریبین . وقد تسللا إلى داخل الكنيسة قلیلاً ، وما لبثا أن وقفا أمام الفیو الفخاص بموئی آل روشستر - وأولبانا ظهریهما لیطلعا - خلال القضبان الحديدية - إلى المقبرة الرخامية المتیفة ، حيث ركن تمثال أحد الملائكة فی حراسة رفات دامر روشستر - الذي ذبح فی (مارستون مؤر) - أثناء الحروب الأهلية - ووفات زوجته الیزابت .

واتخذنا مكاننا عند قضبان الفیكل المقدس . وإذا سمعت خطبواً هادراً أخفی . نظرت من فوق كئی قرأیت أحد الغریبین - وهو من الطبقة الراقية بلا مرأه - یقدم فی الكنيسة نحونا .. ثم بدأت المراسم ، فخلا الكاهن مقاصد الحياة الزوجية ، ثم تقدم خطوة إلى الأمام ، وانحنى قلیلاً أمام مستر روشستر واستطرد بفوك : « انی المسألکا ، بل أحتم علیكما أن تعترقا - كما متعترفان یوم الدینونة الرهیب حين تنكشف أسرار القلوب جیعا - بما إذا كان ثمة ما یحول دون ارنیاط أحدكما بالآخر شرعاً بالزواج . إذ خلق بكما أن تنقما من أن الكبورین الذين یریطون بغير كلمة الله ، لا یجمع الله بینهم ، ولا تقر الشرع زواجهما » .

وسكت طلیقاً للعادة .. ولكن ، متى یدد السكون الذي یغلب هذه العیارة عادة أی جواب ؟ .. إنه أمر لا یحدث ولو مرة فی كلی مائة عام ! .. ولم یرفع الكاهن علیه عن كتابه ، بل أمسك أنفاده لحظة ، ثم یسط یده نحو مستر روشستر . وهم بأن یسأله : « هل تقبل هذه المرأة زوجة لك ؟ » . ولكن صوباً واضعاً انبعث عن قرب قالسلا : « لا یمكن أن یتیم هذا الزواج ، وأنجاهم بأن هناك عقیة » .

فرفع الكاهن علیه إلى المنكلم ووقف صامتاً كالأخرس ، وكذلك فعل الكاتب ، بیثاً یحرك مستر روشستر قلیلاً كأن زلزالاً هز الأرض تحت قدمیه . ثم لبث قدمیه فی مكانیهما تحفراً ، وقال دون أن یلتفت برأسه أو علیه : « استمر ! .. وما أن نلقی بهذه الكلمة - فی صوت خفیف ولكنه عمیق - حتی ساد المكان صمت شامل . وما لبث مستر



(وود) أن قال : « ليس يوسى أن أستر قبل بعض النحري عن حصة ما قيل ، وحتى يقوم الدليل على صدقه أو زيفه » . وهنا عاد الصوت من خلفنا يقول : « لقد فسخت حفلة الزواج تماماً ولدى البرهان على دعواي .. إن هناك عقبة لا يمكن تفاديها تحول دون هذا الزواج » .

وسمع مستر روشتر ذلك ، ولكنه لم يكرث ، بل ظل صامداً لا يثني . ولم يبد حراكاً اللهم إلا لينتبه يدي ، وما كان أشد قبضته وأدفاها ! .. ولم كان وجهه الشاحب الحازم الضخم يشبه الرغام في تلك اللحظة .. وقد ما كانت عيناه تأتلفان في نظرة نحى تحتها صراوة !

\*\*\*

• ويدت الحيرة على مستر وود فقال : « وما ماعية هذه العقبة ؟ .. ربما أمكن تفاديها إذا وضحت لنا : .. فكان الرد : « يصعب ذلك فقد وجفها بأنها لا تدلل وقد تكلمت ناصحاً ! .. ثم تقدم المشكك ومال على الضبان ، واستطرد في وضوح وهبوط وثبات دون أن يرفع صوته : « إنها بكل بساطة تعني وجود زواج سابق .. إن لمستر روشتر زوجة على قيد الحياة ! »

واعتزت أعصابي عند سماع هذه الكلمات الخفيفة كما لم شتر من قبل لقصص الرعد ، وفعلت نبراتها يدي ما لم يفعل صقيع ولا نار من قبل ! .. يد أنني لم أقدر روعى ولم أعش انحاء ، وإنما تطلمت إلى مستر روشتر وحلته على أن ينظر إلى وجهه يشبه الصخر الشاحب ، وبعينين تقاسمان شرراً . ولم ينكر شيئاً ، وإن بدا عليه الإصرار على

أن يصحدي كل شيء ! .. ويدون أن ينطق بحرف أو يتكلم ، ويدون أن يبدو عليه أنه كان يراني مخلوقة آدمية . طوقني بفراجه . وصحرتي إلى جانبه . ثم سأل الدخيل المظفل : « من أنت ؟ »

— اسمي بريجز . عام بشارع ... في لندن .

— وهل تريد أن تلصق بي زوجة ؟

— أريد أن أذكرك يا صدي بوجود زوجتك التي يعترف بها القانون إذا كنت أنت لا تعترف بها .

— تكرم بيباك عنها .. عن اسمها والديها ومكان إقامتها :

فقال الخبيث : « بالتأكيد ! » . ثم أخرج مستر بريجز في هدوء ورقة من جيبه . وراح يقرأ ما بها بصوت رحي أغن : « تؤكد . وفي وسعي أن أقدم البرهان على أنه في يوم ٢٠ أكتوبر سنة .. بعد الميلاد ( منذ خمسة عشر عاماً ) تزوج إدوارد فيرفاكس روشتر صاحب قصر ثورفيلد هول (إقليم ... وصاحب ضيعة (قرنين) بمقاطعة ... بإيلترا ، من أنثى برتا أنطوناتا ميسون ، ابنة جوناس ميسون الحاجر وأنطوناتا ميسون زوجته ، الخالسية المولدة ، بكنيسة ... في سياتش تاون بجاميكا . ويمكن الحصول من سجلات تلك الكنيسة على وثيقة الزواج . وفي حوزتي الآن نسخة منها . التوقيع : ريتشارد ميسون » .

— إن هذه الوثيقة — إذا صحت — قد ثبتت أنني تزوجت ولكنها لا تثبت أن المرأة المذكورة هنا على أنها زوجتي ما زلت على قيد الحياة !

فأجابه الخبيث : « لقد كانت على قيد الحياة منذ ثلاثة أشهر » :

— كيف علمت ؟

— الذى شاهد على هذه الحقيقة لا يستطيع أحد ، حتى أنت ،  
دحض شهادته .

— فاقبله أو اذهب إلى الجحيم !

— سأقبله على الفور . لينقبض ميسون بالقدم .

فلا سمح مستر روشستر ذلك الاسم : صرف على أستاذه وبدت  
عليه رعدة تشجية . وكنت بهولاء ، فشرحت برعدة الخفق واليأس  
تجربى زواضاله . وكان الرجل الغريب الثانى .. الذى تلتكأ بهيئاً .. قد  
اقترب وأهل من وراء كتف الخاطى بوجهه الشاحب ، فإذا به ميسون  
نفسه ! .. واستدار مستر روشستر يحمل في يده حافظة — كانتظرات  
التي سبق أن حدثت عنها — ولكنها كانت في هذه المرة عظام ، أى  
تختلط ظلمتها بهريق دموى بينا احضن وجهه وتأملت وجنتاه السبروان  
وجبينه الشاحب بالثيران المتأججة في صدره وقلبه .. ثم تحرك ورفع  
ذراعه القوية . وكان من الممكن أن يلطم ميسون ويصرعه على أرض  
الكتيبة . بعد أن أذهلته الضربة التي نزلت على رأسه ، ولكن ميسون  
أجفل مبتعداً ، ثم صاح في صوت واحد « يا لمي ! » . وأمسس مستر  
روشستر نحوه باحتقار هذا من انفعاله : فإذا حنقه يغوي .. واكتفى بأن  
سأله : « ما الذى لديك ؟ » .. فأبعت عن شفتي ميسون جواب  
لا تستبينه الأذن :

— صفّا لك إذا لم تتكلم بوضوح : إنني سألك مرة أخرى : ماذا

تريد أن تقول ؟

فقاطعه الكاهن : « يا ميسون . يا ميسون . لا تنس أنك في مكان  
مقدس ! » .. ثم توجه إلى ميسون يسأله في رفق :

— هل تعلم علم اليقين أن زوجة هذا السيد على قيد الحياة أم لا ؟

وحته الخاطى قائلاً : « تشجع .. تكلم ! » ..

فقال ميسون بصوت أكثر وضوحاً :

— إنها الآن يقصر ثورنفلد هول . فقد شاهدتها هناك في أبريل

الماضي . وأنا شقيقتها !

فصاح الكاهن : « في ثورنفلد هول ؟ .. مستحيل ! إنني أقم

في هذه المنطقة منذ زمن قادم يا ميسون . ولم أسمع قط بوجود زوجة

لمستر روشستر في ثورنفلد هول . »

\*\*\*

• وشاهدت ابنة متجهمة تثرى شفتي مستر روشستر ، ثم علمت

قائلاً : « كلا والله ! .. لقد احتضت كفى لا يسمع أحد بها تحت هذا

الاسم . ولا يقصنها ! » .. ثم ألقى حوالي عشر دقائق ناقش فيها نفسه .

وما لبث أن اعتزم شيئاً أعلنه قائلاً :

— كفى ! سوف يطلق من كل شيء أشبه برحاضة ملوثة .

اطور كتابك يا وود واخضع عنك ثوبك الكهنوتي !

ثم التفت إلى الكاتب وقال : « وأنت باجون جرين . غادر الكتيبة

فلن يتم اليوم زفاف ! »

فأطاعه الرجل : واستطرد مستر روشستر في جراءة واندفاع :

— إن تعدد الزوجات كلمة بشعة ! .. ومع ذلك فقد قصصت أنك

( ٢٢٠ - جين إير - الجزء الثالث )



اكون زوجاً لاثنتين ، ولكن القدر خيب رجائي ، اوهى العناية الإلهية التي عافيتني عن ذلك . ولست الآن خيراً من شيطان رجيم ، بل اني استحق بلا شك .. كما يريد الكاهن أن يقول .. أقصى عقاب بفرقه الله . حتى اتار التي لا تقوى والدبدبان التي لا تشبع .. لقد فشلت خطتي بإسادة . فإن مقالته هذا الضامر ومجمله صحيح . إذ تزوجت ، وما زالت المرأة التي تزوجتها على قيد الحياة !! . لقد قلت يا ( وود ) إنك لم تسمع قط بوجود زوجة لي في ذلك القصر ، ولكني أعتقد أنك علمت بأذنيك لتلتقط أنباء المبتغاة التي وضعتها هناك تحت الحراسة والرقابة . وقد أسر إليك بعضهم بأنها أنت غير شقيقة لي ، وأسر الآخرون بأنها ختيلة متبوءة ، ولكني أخبرك الآن بأنها زوجتي التي افترنت بها منذ خمسة عشر عاماً ، واسمها ( برتا ميسون ) ، وهي شقيقة هذا الرجل الثابت العزم ( ١ ) الذي يربك الآن بأطرافه المرتعدة ووجعته الشاحبتين أي جانباً بجريء . يمكن أن يجعله الرجال بين جنوبيهم !! .. طلب نفساً يا إدمارد ، ولا تخشني قط فإني أؤثر أن أضرب امرأة على أن أضربك ! إن ( برتا ميسون ) مجنونة ، ومن سلالة أسرة مجنونة ، كلهم بلهاء ومثالثون طوال أجيال ثلاثة . فقد كانت أمها الخلاسية مجنونة وسكيرة . وقد اكتشفت ذلك بعد أن تزوجت الابنة لأنهم كانوا يتكلمون أسرار العائلة !! . وسرعان ما قلدت برتا أمها .. كآبة ابنة يالوة - في كلاً الأمرين .. واستطرد في بحيرة مبررة : : وغذبت في شريكة ساحرة . نقية : عاقلة ، حية !! . إن في ومعكم أن تصبروا وكيف كنت رجلاً سعيداً لهم عشاهد رائعة !! . كانت تجربة من السياء والنحو - لو تعلمون ! .

ولكنني لن أزيدكم شرحاً بل أدعوك يا بريجز - وأنت يا وود ، وأنت يا ميسون - إلى القصر كي تشهدوا زوجتي المريضة التي عهدت بها إلى مسر بول تترعاهم . سترون أية غلوقة خدعت فيها وتزوجتها . ثم احتكوا بما إذا كان من حق - أو لم يكن - أن أفهم الرابطة بيني وبينها وأبحث عن الحنان والمشاركة الوجدانية مع إنسانة من البشر . ثم نظرت إلى واسترسل تقول : : إن هذه الفتاة لا تعرف ، يا وود ، هذا العمر البغيض أكثر مما تعرف أنت . بل إنها كانت تعتقد أن كل شيء عادل شرعي ، ولم يدرك خطورها قط أنها سوف تتردى في حيائل زواج زائف ، من رجل شرير غدار مرتبط بشريكة شقية مجنونة متوحشة !! . تعالوا جميعاً .. أقيموني !! .

ثم غادر الكنيسة وهو مازال يشد قبضته على يدي ، والسادة الثلاثة يتبعونه . وعند مدخل باب البهو ، وجدنا العربية ، فقال لهندي يبرود وفور : : عديها يا جون إلى الحظيرة إذ لا حاجة لنا بها اليوم ! .. وإذ ولجنا القصر ، تقدمت مسر قبرفاكسي وصوصق ولياه تلقائياً وتحياتاً ، ولكن السيد صاح فيهن : : ابتعدوا جميعاً .. صفاً لهما نكاحك من الذي يحتاج إليها !! . استأنا ، إذ أنها قد تأخرت خمسة عشر عاماً ! .

\*\*\*

● وواصل السير مرتباً الدرج وهو مازال يتمسك بيدي وبشير إلى السادة أن يتبعوه ، حتى إذا بلغنا الطابق الأول واجتزنا الردهة ثم تقدمنا وواصلنا الصعود إلى الطابق الثالث ، فتح لنا مسر روشتر الباب الأسود الخفيض يفتتاحه الخصاص : وأدخلنا حجرة مغطاة بالسجاجيد ، بها

سرير كبير وصوان يدع ، ثم قال : « إنك تعرف هذه الحجرة باميسون ، فقد عضتلك وطمعتك هنا » .. ثم رفع الستار عن الجدار ليكشف عن الباب الثاني - المفضي للحجرة الداخلية - وفتح بدوره عن حجرة خالية من التوافد ، بها موقد مشعل يغط به مباح عال قوي ، ومصباح يتدل من السقف بسلسلة ، وكانت جريس بول متحنية على النار وهي تطهو شيئاً في مقلاة . وفي الظل الداكن ، في وكن بعيد ، كان ثمة شبح يدرج الغرفة بسرعة ولا يستطيع الماء أن يحكم لأول وهلة هل كان شبح حيوان كاسر ، أو أنه كان مخلوقاً آدمياً ، إذ كان يجيو على أربع ، ويصهم وبزجور كوحش عجيب . ولكنه كان مكسواً بالثياب ، ويكفي من الشعر السمجاني الحالك السدل أشبه بمعرفة تخفي الرأس والوجه .. وقال مستر روشستر :

« تصباح الخير باميسون بول ! كيف حالك وحال الأمانة التي في عهدتك ؟ »

« حالنا لا بأس به باميسون .. أشكرك ! »

وبعد أن رفعت الطعام المغلي بعناية عن موقد التسخين ، قالت : « إنها فطنة شرملة ولكنها ليست عطرة » .. وارتفعت إذ ذاك صرخة وحشية كأنها جاءت تكديماً لهذا التصريح الذي انطوى على جملة لها ، ثم وقعت الضربة البشرية على قاعها الخليليتين . فصاحت جريس :

« آه باميسون لقد رأيتك وغيرك ألا تفتي . »

« يضع دقاتك قطع يا جريس ، يجب أن تتخفي وضع لحفات . »

« احترس إذن باميسون .. احترس بالله عليك ! »

وجارت الضجيرة ، ودفعت عن وجعها خصلات شعرها الكث ، ثم خلعت كالوحشة في زواياها . فتبينت جيداً وجهها القرمزي وتقاطيع وجهها المتفتح . وإذا فتحت مسر بول ، دفعا مستر روشستر جانباً وقال : « أفسحي لي الطريق ، فلي على ما اعتقد لا تحمل الآن سكيناً ، كما أتيت على حذر منها » .

« إن الإنسان لا يعرف مالهيا باميسون ، لكنها غاية في المدهاء ، ويعلم على ذوي القعدة والقيصر تصور مكرها ! »

فصمغ باميسون بصوت هامس : « يجب بنا أن نتركها » . وإذا ذلك صاح به صهرة : « ألا اذهب إلى الجحيم ! .. بينما صرخت جريس : « حذار ! »

فارتد السادة الثلاثة إلى الخلف بحركة آلية تلقائية . وجذبني مستر روشستر خلفه . فانقضت الضجيرة عليه تمسك خفه بعنف وتغرد أسنانها في وجهه ، ثم دار بينهما البضال . كانت امرأة ضخمة الجسم وفي مثل فاعة زوجيا . فضلاً عن أنها كانت مغرمة في البدانة فأبدت قوة الرجال في نضالها . وكانت تحفه أكثر من مرة برغم أنه رياضي ! .. وكان في وسعه أن يتغلب عليها بضربة مسددة . ولكنه لم يشأ إلا أن يضارها . وأخيراً أمسك بذر أعيا . فتأولته جريس بول جبلاً شامخاً به خلفها ، ثم أولئها بجبل آخر إلى أحد القاعد . وقد تمت هذه ( العملية ) بين أشمغ الصرخات والحركات المدهورة . .. وأخيراً ، استدار مستر روشستر إلى النظارة ونظام إليهم في ابتسامة امتزجت فيها المرارة بالسخرية والأمين ،

وقال : « هذه زوجتي ، وهذا هو كل ما عرفت من عناقها كزوجتي ..  
هذا كل ما تمنحتني من مظاهر الإعزاز والتدليل التي أتتني بها في ساعات  
الفراغ » .. ثم وضع يده على كتفي ومضى يقول :

— هذه هي التي أردتها .. هذه الشابة التي تفت في هدوء وورانة  
عند طرفة البصيص ، وتطلع في ثبات إلى الشيطانة التي تجعل أمامها !  
أردتها فقط كضرب من التغيير بعد طبخة حريفة متبلبة . انظر يا بؤس !  
وأنت يا برجز - إلى الفارق بين الاثنين وقارنا بين هاتين العيزين الصافيتين  
وبين الكرتين الملتئمتين هناك - وذلك الوجه المنفع ، والجسم البدين  
المتفنع . ثم احكما بعد ذلك يا رجل الدين ويا رجل القانون ، وتذكرا  
أنه كما يدبر المرء يذلل ... ههنا اخرجوا جميعاً الآن حتى أغلق الباب على  
دروني الغالية !



● والسحبنا جميعاً : بقي مستر روشستر يضع لحظات ليصدر بعض  
أوامره إلى مسز بول ... وفي أثناء هبوطنا الدرج ، خاطبني الخاطي قائلاً :  
— أنت خالصة من كل لوم يا سليلتي وسيفيق عملك (جون إمر)  
بذلك : لو أنه بقي علي قيد الحياة حتى عودة مستر ميسون إلى ماديرا .  
— عني !؟ ما أخباره ؟ هل تعرفه ؟

— إن مستر ميسون يعرفه . فلقد كان مستر إمر عميلاً له في  
(فونشال) بضع سنوات . وتصادف عندما تلقى عليك خطابك الذي  
ذكرت فيه أنك اعتزمت الزواج من مستر روشستر : أن كان مستر



لم دار بينهما التماسان .. كانت امرأة شغوية الجسم وفي مثل قامة زوجها



ميسون معه إذ سافر إلى ( ماذيرا ) ليستكمل ثقافته .. بعد الحوادث التي  
تعرف فيه وقبل عودته إلى جهايكما - فأبلغه عمك النبأ لأنه كان يعلم أن له  
صلة بسيد يدعى روشستر ، وشك مادامهش مستر ميسون وأختم . ثم شرح  
جلية الأمر اعلمك الذي يؤسفني أن أقول إنه الآن مريض وطريح الفراش  
في حالة ابتياو قد لا يتجاوز منها ، ولذلك لم يقم على أن ياتر إلى إنجلترا  
بنفسه ليخلصك من الشك الذي وقعت فيه ولكنه توسل إلى مستر ميسون  
أن يسرع إلى اتخاذ التدابير اللازمة لمنع هذا الزواج الزائف . كما أحاله  
عليه لسماعته : فأمرعت ماوسعى الإسراع . وأحمد الله على أنني لم  
أناخر عن الوقت المناسب ، وخلق بك أن تحمدى الله معي . ولو لم  
أكن موجهاً من أن عمك ميسون قبل وصولك إلى ( ماذيرا ) لتصححت  
بمرافقة مستر ميسون عند عودته . ولذلك أرى من الخير أن تبقى في إنجلترا  
إلى أن تصلك أخبار من عمك أو عنه . حل هناك شيء آخر يدعونا لقلناه  
ياميسون ؟

فأجابته هذا في لحظة : « كلا .. كلا .. هيا بنا .. ومرفقا خلال باب  
البور دون أن ينتظرا مستر روشستر ليسأذناه في الانصراف . وبقي الكاهن  
ليأبهاش بعض عبارات لائحة أو مؤنية مع ابن إرانشيه - روشستر - حتى  
إذا انتهى من مهمته » غادر القصر بدوره .. وصحبه به رجل وأنا واقفة  
عند باب حجر في الموارب : بعد أن انسحبت إليها . وإذا خلا القصر ،  
أغلقت حجر في المزارع حتى لا يتطفل على أحد . ثم شرعت - لاني  
البكاء ولا في التعويل ، لأنني كنت أهدأ من أن أفعل ذلك - وإنما في  
خلع ثوب الزفاف بحركة آلية ، ثم ارتديت ثوبي العادي الذي كنت ألبسه

في اليوم السابق لآخر مرة كما زعمت . وجلست بعد ذلك وأنا أحس  
الوهن والشعب . فأتكأت بذراعي على المنضدة وأقيت . وأني عليها  
ثم أخذت أفكر في أن دورى - حتى تلك اللحظة - لم يكن يعدو مجرد  
أن أسمع وأن أشاهد وأن أثار ، وأنا مطاردة في أثناء ذلك أنها ذهبت  
أو البست .. أرى الحادث يتدفق وراء الجدران : والفضيحة تتلو  
الفضيحة : ثم لا أمك سوى التفكير !

\*\*\*

● والنقضي الصباح في هدوء تام ، فلما عدا مشهد الحيرة القصير ..  
حتى حادث الكنيسة لم يترأى أية جلية ولم تظهر فيه الانفعالات - أو ترفع  
المهازرات والخلافات : ولم يصحبه نحد أو صراخ أو دموع أو نسيج .  
بل قلت في أثناء كلمات قليلة ، وأثير الاعتراض ليهدوء نسبي . وألقي  
مستر روشستر بعض أسئلة جاللة مقتضية تلقى عنها إجابات وإيضاحات  
وأدقة ، اعترف سيدي بعدها بالحقيقة : وشاهدنا الدليل الحى مائلا  
ثاماً عيوناً . ثم رحل المتطفلان وانتهى كل شيء !

كنت في حجرتي كالعادة ، بغير ذي ، دون تغيير ملحوظ : فلم  
يشربني أحد أو يؤذي أو يشوهني . ومع ذلك فأين كانت ( جين إير )  
الأمس بحياتها وأملها ؟ لأن جين إير التي كانت امرأة ذات حية وآمال  
وكادت تصبح عروساً ، عادت فتاة باردة وحيدة كما كانت ، بعد أن  
شجبت حياتها وثقوبت آملها وحل لديها صديق رأس البسة في أوج  
الصفى . وجبت عواصف الشتاء المدوية في شهر يونية ، وعلل الجليد  
التضاح الناصح . وصحى الثلج الورود البيضاء ، ولف الحفول كفن من

الجليد . أما الفترات الصغيرة التي كانت تزدان في ليلة أمس بالزهور ، فقد أقرت من الحارة فلم تعد تطورها الآن سوى أقدام الجلود .. وأما الغابات التي كانت غطاة مورقة منذ أربع وعشرين ساعة كأنها أحراش المناطق الاستوائية ، فقد غدت الآن موحلة مهلهلة بيضاء لاصقة كأنها غابات الضويرة في شتاء النرويج !

ذلك لأن آمالي جميعها قد قضت عليها القدر بضريرة خفية .. وحدث أنما أمانى العزيمة التي كانت بالأفئس زاهرة زاهية فإذا بها قد ذهبت وغدت ربما لا يمكن قول أن تسترد الحياة ..! وغدت إلى حبي الذي خلطه سيمي فرأيت يرفرف في قلبي ، أشبه بطفل مريض في مهد بارد - فخرط ما كانت تلتفه العائل والألام - دون أن يقوى على البحث عن ذراعي مسنر وروشنر أو مصدرة ليستمد الدفء ..! أوله ! لن يستطيع قلبي الانجذاب إليه لأن الإيمان قد تبدد والحقبة قد تلاشت ، ولأن مسنر وروشنر لم يعد لي كما كان من قبل . ولا ظل على ما كنت أنصوره . ولست أعزو إليه أية نقيسة ، ولا أقول إنه غلبني ، وإنما زابل ففكرت في عنه كل الصدثن إلى الحقيقة الخالصة من أية شائبة ..! ولم يعد ثمة يد من الرحيل بعيداً عنه .. وكان هذا جل ما تراءى لي وما أحسنت به . ولكن : متى . وكيف . وإلى أين ..! لم أعتد بعد إلى رأيي ، غير أنني لم أرتب في أن مسنر وروشنر نفسه قد بلت أن يعجل بإقصائي عن « نور قبيل » . فقد لاح لي أن من غير الممكن أن يكون قد شعر بحوي حب حقيقي ، وإنما كان الأمر كله مجرد نزوة طارئة هدأت . ولن يعود السيك بحاجة إلى .. بل إنني بت أعطي أن أعترض طريقه ، إذ لا بد أنه غدا يعاف

روني .. آه . لكم كنت عباه . ولكم كان مسلكي ضعيفاً ! .. أجل ، كانت عيناى عجوبتين . ومغضتين !

وعيل لي أن القليلة تدور حول كالدواء . وأن أفكاري غدت سودة ، تنساب لي اضطراب السيل وتدافقه .. كنت أبدو - وقد يذئني نفسي وخلفتني مسترخية ، بلا حول ولا قوة - وكأنما ألقى في في حوض نهر جاف ، ثم سمعت فوضاً ينساب متحدرًا من جبال بعيدة ، وأحسُّ بسبيلة تقترب مني . دون أن أجد من نظير رغبة في التبرؤ ، أو قدرة على الفرار . فرفقت عذارة القوى أتلهب على الموت في ولا تراودني سوى فكرة واحدة .. ذكرى الله ، تيدت في صلاة جمانة راحت كل ما تسبح في عاطر في كش . يجب أن أهدس به دون أن أقوى على الطل به ! .. اللهم لا تزد علي لأن العناء قريب ولا أجد في عوفي ! ..

كان السيل قريباً .. ولكنني لم أجد بالبدعاء للسماء حتى تقبليه . ولم أضم يدي أو أني رمتني أو أتحرك شئ .. ثم أقترب السيل ودهمني بكل قوته والدفاعه ، فإذا كل إحساس المضضع بالحياة ، وحي المصعب ، وآمال الحايبة . وإعاني المصعوق .. إذا بها جميعاً تنصب على رأسي كتلة واحدة .. وكانت ساعة مريبة وهيبه يصعب وصفها .. والواقع أن الماء دهم نظمي . فإذا بي أغرق في حاة حقيقة . دون أن أجد أرضاً أضع عليها قدمي . وما لبثت أن بلغت الماء العميق ثم جرفني السيل !

### الفصل السابع والعشرون

• ورفعت رأسى - فى الأصل - وظننت حوى فرأيت الشمس الغائرة  
ترسم على الجدار صورة غروبها ، ورحمت أنفاسى : « ماذا أعلى ؟ » ،  
فجاءنى الرد من نفسى : « غادرتى نور فيلدى فى الحال ! » .. وكان رداً  
سريعاً مروعاً جعلنى أصم أذن . وأعترف بأننى لم أكن أظن إذ ذاك  
بجماع مثل هذه الكلمات .. ورحمت أنفاسى نفسى : « ليس بأسوأ مما فى  
الأمر أننى لم أجد زوجة لإدوارد رومستر ، ولكن استيقاظى من أحلامى  
الرائعة لأجد ما أكلها زائفة كاذبة ، هو الأمر الرعب الذى لا أقوى  
على احتماله والتغلب عليه ، كما لا يمكن أن أحتمل لو أن أقدم على مغادرة  
سبيلتى فى إصرار ، وفى الحال : وإلى الأبد ! »

ولكن صبراً من آماني أحبابى أن ذاك فى وسعى . وأن من واجبى  
أن أقبله . ورحمت أنفاسى هذا القرار وأمنى أن أكون من الضعيف بحيث  
أناشئ الطريق المؤلم الذى يقضى إلى عذاب آخر رأيت ميسراً أدنى ! ..  
وعندئذ ثار « الضمير » وتحول إلى طغاية أمسك بشارى « أقوى » ثم قال  
بؤسبه : إنه قد نس قادمة الرشيقة فى حماة موحلة ، وأقسم أن يظفه بفرواخ  
حبيدية فى أعماق الآلام والأوجاع .. وعندئذ صرخت : « سأتحرق  
إرباً إذا ! » .. أما من معنى ؟ .. وأجاب الهاتف : « كلا بل إنك  
ستمزقن نفسك دون أن يساعدك أحد ! » سوف تقطين عينك اليمنى  
وتقطعين بنفسك يدك اليمنى ، وسيكون قلبك الضعيف وشكوكين أثبت  
الكاهن الذى يذبح هذا القرئان ! »

وإذ ذاك نهضت فجأة وقد استبدى الرعب لوحدى القاسية مع هذا  
القاضى الذى لا يرحم . ومع هذا الصمت الذى غشى حواسه مثل هذا  
الصوت الرهيب ! .. وإذا انصرفت والمفلة ، سبح رأسى ، وأدركتى غثبان  
فعلت إلى أنه ناشى . عن ثورتى وخطو معدنى لأنتى لم أذق طعاماً ولا شراباً  
فى ذلك اليوم .. حتى الظهور لم أجد وقتاً لتناولته . وفطنت - وفهنت - بعمق  
بأنى عجب - إلى أننى إذا ظلمت فى معنى هذا فلن يسأل عني أحد  
أو يدعونى إنسان للتزول .. حتى أذبل الصغيرة لن تطرق باني .. بل إن  
مسر فيرفاكس لن يتحدث عني ! .. ثم غمضت وأنا أرفع المزلاج :  
« إن الأصدقاء يتسبون دائماً من يتصل عنهم الخط ! » .. وخرجت لأتشر  
بشيء فى طريقى ، وكنت ما تزال غائمة العينين واحدة الأطراف لا أقوى  
على استجماع قوى الحارة ، فسقطت .. لا على الأرض . وإنما تلتفتنى  
فراخ ممدودة ، فرفعت عيني لأجلى مستندة إلى مسر رومستر وقد  
جلس على مقعد عند عتبة غرفتى . ثم قال :

— ما قد خرجت أخيراً ! .. لقد انظر تلك طويلاً ، وأرهقت الضع  
دون أن تنامى إلى أذنى حركة أو تشيح واحدة ، ولو أن هذا السكون المطبق  
الشبيه بسكون الموت استمر خمس دقائق أخرى ، ففتحت الباب عشوة  
كأنى .. هل تغطين منى ؟ .. ماذا تغطين عليك الباب وتسلمين وحدك  
للأشعر ! .. إننى أوتر أن تأنى وتعطينى فى قسوة ! .. إنك شديدة الانفعال  
سريعة التأثر ولذلك كنت أتوقع منك مثل هذا المشد فأعددت نفسى  
لوايل من الدموع الحارة والعبثات . وما كنت أرجو سوى أن تدرى  
على صدى يدك أن تنقلها الأرض التى لا تحس ولا تشعر . أو ينطقها



منذ تلك الصغير الحال - بل أحسني غفلتاً قلبي أرى وجنتك شاذجة  
وعينك ذابلة دون أثر فيها للدموع ، فأغلب الظن إذ أن قلبك كان  
يوحي دماً ! حسناً يا جين ! أما من كلمة تقريع ؟ .. أما من شيء أشد  
مرارة وأثني ؟ أما من شيء - بقل الشعور أو ببلوغ العاطفة ؟ .. إنك  
تجلسين هادئة حيث وضعتك وتطلعين إلى بقعة واحدة مشبية ! .. ما أردت  
يا جين أن أصيبك بهذا الجرح .. إن المرء الذي لم يؤت سوى شاة صغيرة  
يعجز بها كما لو كانت ابتقة ، ويذعن بها تأكل من خبزها وتشرب من  
كأسه ، وترقد في حجره ، قد يضطر غفلاً ما إلى ذبحها .. ولكنه لن  
يعاني إذ ذلك من التذم على غفلته الدامية ، ما أعاني من الحسرة على  
غفلتي .. فهلا صفحت ؟

\*\*\*

● ولقد صفحت عنه أيها القارئ في الحال ، وعلى القبر ، بعد أن  
تبدي في عينيه ما نزع عن ذلك التذم العيني - وما تجلي في طبعه من هذا  
الأمي الخلقني ، وما ظهر على طبعه من رجولة صادقة . هذا ، فضلاً  
عما كان في كل شكله وهياته من حب لا يتبدل ولا يتغير .. أجل ،  
لقد غفرت له كل شيء .. غفرت في صميم قواصي . وإن لم أعبر عن  
ذلك بقول أو بظاهر ، وكأنما ربه إلهي الطويل إلى الصمت والاستكانة  
الذين كانا نتيجة ضعف أكثر مما كانا نتيجة تمعد وقصد . فما لبث  
أن سألتني : « إنك كبرت ألبني وغدا يا جين ؟ »

— نعم يا سيدي :

— إذن قولي ذلك في غفلة واحدة ولا تأخذك في رحمة !

— لا أستطيع .. إنني متعبة ومريضة ، وفي حاجة إلى بعض الماء ..  
فتبده تبدة واحدة ، ثم حلقي بين ذراعيه إلى الطابق الأسفل . ولم  
أدر في أول الأمر إلى أية حجرة حلقي ، لأن كل شيء كان غامضاً في  
ناظري ، ثم سرعان ما استشعرت دفء النيران المتعش بعد أن كنت  
محولة في حجرتي ببرودة جليدية برغم أننا كنا في الصيف ! .. ثم تسكبت  
خراً بين شفتي فتدوقها واتعشت . وما لبثت أن تناولت طعاماً قدعته  
إلى قاستر قدمت قواي وتبليت أني في حجرة المكتبة - اجلس على مقعد  
السيد ، بينما اجلس هو على مقربة مني ، وحدثت نفسي قائلة : « ليتني  
أعادر الحياة الآن دون ألم شديد ، فإن هذا خير لي » إذ يكتفي بثبوت  
بدل الجهد في اقتراح نياط قلبي وأنا أفصله عن قلب مستر روشستر الذي  
يسدو ألا مقر من فراقه ، وإن كنت لا أحب أن أتركه ولا أستطيع  
مغادرته ! .. وسألتني إذ ذاك : « كيف حالك يا جين ؟ »  
— أحسن كثيراً يا سيدي ، ولدي ألبث أن أصبح بخير .  
— تدوني السبب مرة أخرى يا جين .

فألمحني ، وعندئذ وقح الكأس على المنضدة ثم وقفت أمامي بفرس  
ق متصفاً ، وفجأة .. وبعد وقد نددت عنه صيحة مدعومة بحركة بالانفعال  
ثم أسرع ليعبر الحجرة ليعود من فوره فيضحي علي وكأنه يهم بتقبيل ،  
ونكبي تذكرت أن الغزل قد بات عظوراً علينا . فأنشجت برجحي عنه ،  
ودفعت وجهه بعيداً ، فصاح على الثور : « ماذا ؟ .. كيف هذا ؟ أوامه ،  
لقد عرفت ! .. إنك لا تريدني تقبيل زوج برقا ميسون وتعتبرين ذراعي  
مليائين ، وحدايري ماكناً لغريك ، اليس كذلك ؟ »

— غلى ككل ، ليس لي مكان أو حق في ذلك ياسيدي .  
 — لماذا يا جين ؟ سأكتيك مشقة الحديث الطويل وأقول اعنك  
 الجواب ، لأنني متزوج فعلا ، ليس هذانك كما أتوقعه ؟  
 — نعم .

— إذا كان هذا ما تظننه ، فإن رأيك في يجب أن يكون حرجيا ..  
 ولا بد أنك تعديتي منهكاً خليعاً يتآمر عليك ، ووعداً وضماً دليلاً نظاهر  
 لك يجب ككاذب زائف ليحتشدك إلى فتح محبوك الأطراف عن قصد وعمد  
 فيجرئك من الشرف ويسلبك كرامتك واعتزازك بنفسك .. ما قولك في  
 هذا ؟ أراك لا تفون على قول شيء : أو لا لأنك ما زلت ضعيفة واحدة  
 ولا تكادين تفيرين على اجتذاب أنفاسك ، ولأننا لأنك لا تستطيعين بعد  
 أن تعودي نفسك على انهائي وانتهاري .. وفوق ذلك ها قد فتحت عيون  
 الجميع ، وسوف تضجر إذا ما أكتشرت من الكلام .. لا رغبة لديك  
 في الاعتراف والتعنيف وإشهاد الناس عليك ، ولكك تكثرين فيما يجب  
 عمله ، وترين في الكلام أمراً لا ينعدي ولا ينفع .. إنني أعرفك وأعجل  
 منك جلدري ؟

— لا رغبة لدي في أن أعجل ضدك ياسيدي ،

\*\*\*

• وبهني صوتي المرتعف إلى ضرورة الإيجاز والاقتصاد ، فلم أزد  
 ولكنه أجاب قائلاً : « إنك لا ترغين في العمل ضدني بالمعنى الذي  
 تفهمينه ، ولكك ترعجين خطلك للتضاء على بالمعنى الذي أقهمه ، فقد  
 صدقت في قولك إنني رجل متزوج فيجب أن تتجشبن وأن يتعدي

عن طريق عقل ما رفضت منذ لحظة أن تقبلني لأنك اعترفت أن تجعل  
 نفسك إنسانة قريبة عني تماماً ، وألا تعيش تحت هذا السقف  
 إلا كعملة لأدبل ، وإذا وجهت إليك كلمة ود أو اجتذبتك نحوى  
 بشعور الصداقة ، فسوف تقولين : « لقد كاد هذا الرجل أن يتخذ  
 مني خيلة له ، فيجب أن أكون في علاقتي به كالتفح والحجلة » ..  
 وإنني لأدرك أن يوسعك أن تصبجي كذلك فعلاً !

فجلوت صوتي وثبتت نبراته لأرد قائلة : « لقد تغير كل شيء »  
 حوى ياسيدي ، فيجب أن أغير بدوري ، هذا أمر لا شك فيه ..  
 ولكني أعاشي كل تحول في مشاعري وكل صراع مع ذكرياتي وصلاتي  
 لا أجد أمامي سوى طريق واحد ، هو ضرورة البحث لأدبل عن معلنة  
 أخرى !

— أوه .. إن أدبل سوف تذهب إلى المدرسة : فقد قررت ذلك  
 منذ قليل ، كما أنني لا أريد أن أعذبك بذكرائك البغضة وصلاتك  
 القديمة بمررتك هول .. هذا المكان العزين .. هذا القبر العاق الذي  
 يعكس على ضياء السماء النسيحة شجوب الموت .. هذا الجحيم المحجى  
 القدين : وشيطانته الخفية التي تجعل أسوأ من كل ما تصور ..  
 سوف لا تقعين هنا يا جين ، ولا أنا .. فقد أعطأت في أن جنت بك  
 إلى نور تفيد هول برغم ما أعلمه عن هذا المكان الذي تسكنه العفاريت .  
 ولقد أمرتهم بأن يغفوا عنك لعة هذا المكان قبل أن تقع عليك عيناى ،  
 لأنني عشت ألا أحصل على معلنة لأدبل إذا علمت أية مرشحة  
 بالشيانة التي مستطير إلى الإقامة معها . ولم أكن أعترم نقل هذه

الجنونة إلى مكان آخر ، مع أنني أملك داراً قديمة في ضيعة ( غردين ) أكثر عزلة من هذا القصر . وكان في مقدوري أن أنقلها إلى هناك في سلام وعلمانية ، لولا أن خطر لي خاطر عن الظروف الصحية في قلب الغابة ، فأثار ضميري .. مكان من المحتمل أن تعجل الجدران الرطبة بتلاصق منها . ولكن لكل وغد عيباً ، وعيبى أنني لا أميل إلى القتل غير المباشرة : ولو لأكثر الناس نصيباً من بغضائى ..

ولقد أخفيت عنك مكان الجنونة القريب . فكنت في ذلك كن يغطي طناً بعماء تم يرقده بالقرب من شجرة ( الأوبا ) - السامة - فإن العيش بجوار هذه الجنونة سام .. سوف أغلق ( تورنبلد هول ) وأمر بابي الخارجى ، وأسد توافد الطائر الأرضى بالألواح الخشبية ، وأعطى مسز يوك ماتى جنينه في السنة لتعيش هنا مع زوجتى ، كما تسجن هذه الشجواه الرهيبة .. و ( جريس بول ) لا تردد في عمل الكثير من أجل الثقود ، وسوف تستعين بابني - الذى يشغل كحارس في جريسمي روتريت - ليحتمل وقتها ويأثر إلى مساعدتها في نوبات الجياج ، عندما تحاول زوجتى - كمادتها - حرق الناس في مضاجعهم بالليل ، أو طعنهم وفصل لحمهم عن عظامهم بألسنتها ، وما إلى ذلك ..

فقاطعته قائلة : « إنك شديد القسوة على تلك السيدة النعسة ياسيدى .. إنك تتحدث عنها بمقت .. بحقد وقسوة .. وهذه فسوة منك ، إذ لا حيلة لها في جنونها » .

— يا جين .. يا جينى الصغيرة — هكذا سأناديك وهكذا أنت

بالنسبة إلى — إنك لا تدركين ماذا تقولين . إنك تسيئين الحكم على مرة أخرى .. إننى لا أكرهها لأنها جنونة . حل نظيفتى أكرهك إذا مسك خبل ؟

— أظن ذلك ياسيدى .

— إذن فأنت غططة ، ولا تعرفين شيئاً عني أو عن مدى الحب الذى يمكن أن يوحى به قلبى .. إن كل ذرة من بلدك عزيزة لدى كأنها من لحمي ، سواء كانت سباحة أو عذبة . وعطيك كترى الغالى ومهما الخبل فيفضل كترى كذلك .. وإذا أنت هربت فسوف تكون ذراعى مؤرك . وليس ذلك القميص الضيق ، وإذا امتنحت فإن قبضتك تغدو كمواع السحر لندى .. وإذا هاجمتى يوحشية — كما فعلت تلك المرأة صباح اليوم — فظيقت على صدرى لأضدك وأقيدك إلى .. دون أن أجعل منك كما جعلت منها مقررراً .. أما في لحظات الهدوء قلن يحرسك أو يحرسك سواى ، وفي وسعنى أن أأزرك بثمان لا يلوكة تب رغم أنك لن تكافئني على ذلك بابتسامة .. لن أملك من التطلع إلى عينيك وإن لم يعد يثبث منهما شعاع ينم عن أنك تعرفينى .. ولكن لماذا أبيع مثل هذه الأفكار الملاحقة .. كنت أتحدث معك عن ثقاك من ( تورنبلد ) .. إن كل شيء معد كما تعلمين ومسافرين غداً . فقط أطلب إليك يا جين أن تعتملى الميت ليلة أخرى تحت سقف هذا القصر ، ثم تودعينه وتودعين آلامه وأحواله إلى الأبد .. ولدى مكان يمكن أن تحصى فيه من الذكريات العجيزة والتعلق الكريه ، ومن الويف والقيعة ..



فقاطعت قائلة : اخلد أخيل معك يا مبدى ، ومنوف : فؤتك ! ..  
 .. ماذا تعنين يا جين ؟ .. لقد قلت لك إننى سأرسلها إلى المدرسة .  
 ثم ما حاجتى إلى طفلة تراقىنى .. طفلة ليست من صابى ، وإنما ولدها  
 راقصة فرنسية فاجرة ؟ لماذا كل هذه العجاجة بشأنها .. لماذا تفر ضياءا  
 على كرفيفة ؟

.. لقد حدثتني عن رغبتك في التقاعد والاعتزال يا سيدى ..  
 وعما من بواعث الغم والاشتياك .. لاسيما بالنسبة إليك .

فقال تاراً : الاعتزال ! الوجاعة ! .. أرى من واجبي أن أبسط  
 لك الأمر ، ولا أهدى أى تعرض هذا الذى يرسم على أسار برك  
 ويصعلك أشبه بأى المول ! ذلك أنت الذى يجب أن تشاطرنى وسدق .  
 أقهرمت ؟ .. فهزمت وأمسى .. كنت في حاجة إلى شيء من الضجاعة  
 أمام ثورته حتى أستطيع أن أجازف بالتعبير .. ولو في صمت .. عن  
 رفضي . وكان يلوح الحجرة بسرعة : فتوقفت فجأة وكأن قديمه  
 صرنا إلى بقعة واحدة ، ثم تفرس في وجهي طويلاً وبقسوة ، فحولت  
 عنه عيني لأتنبها في إبران المدفأة محاولة أن أبدو أمامه هادئة رابطة  
 الجناش . وأتعبيراً قال في هدوء لم أتوقعه من نظارته : ها هنا التفرقة  
 في أخلاق جين ! .. إنه بكثرة الخيط الخريرى قد انسابت حتى الآن  
 ناعمة لمساء ولكنى لم أشك أبداً في أن تأتى عقدة تعوق سيرها وغير  
 العقل . وما هي ذى قد أتت لتبعث الكنكر والحقق والشاغب التي  
 لا تنسى . يا لى 1 كم أتمنى أن تكون لي قوة شمشون فأحطم كل قيد  
 وكأني أحطم حبلاً من الكنان ! .. وعاد يلوح الحجرة من جديد ،

ثم ما أيت أن توقف مرة أخرى أمامي مباشرة . وانغنى «فترباً بشفتيه  
 من أدنى وقال :

.. خلا أصبحت يا جين إلى صوت العقل ؟ .. إذا لم تعمل فسوف  
 أنتجى إلى العنف ؟

وكان صوته مبحوحاً ، ونظرته كمنظرة من يوشك أن يعلم قيدا  
 لا يحصل ثم يتدفع في ثورة هائلة . وأردت أنى إذا مكثت لحظة  
 أخرى سادرة في برونى قلن أتمكن من الوصول إلى شيء معه .. كان  
 الحاضر كل ما يجب أن أمسك بهائه وأكبجه في نفسي . وكل حركة  
 نافرة أو بفاع أو خائفة كقيلة بأن تقرر مصيرى ومصيره ، ولكننى  
 لم أكن خائفة بحال من الأحوال . بل إننى استشعرت قوة داخلية كامنة  
 وإحساساً من القوّة عليه يساندنى . وكانت التزمة خطيرة . وإن لم  
 تحل من السحر الذى يحسد الخندى وهو يتزلزل في قاربه على الجنادل .  
 فددت يدي وأمسكت بيده المشنجة . وإذا ذلك استرخت أصابعه  
 الملتوية ، فقلت له في رفق : اجلس . سأحدثك طويلاً كما تريد ،  
 وسأصغى إلى كل ما تريد قوله ، سواء كان معقولاً أو غير معقول .



● وجلس ، ولكننى لم أذن له في الحديث على الفور . لأننى كنت  
 أصارع دموعي ، وعانيت كثيراً من الآلام في حاسبي لأننى كنت أعلم  
 أنه يود أن يرانى باكياً . ولكننى عدت فأثرت أن أطلق لها العنان كما  
 نشاء ، ولو أغضبته ذلك ! وهكذا بكيت بحرقة . وإذا بي أسمع بهتضرع  
 إنى أن أهدئ من جاشي . فقلت له إن هذا لم يكن في وسعي ما ظل هو

ناراً مهتاجاً . وإذا ذلك قال : « ولكنني أشت غاضباً يا جين ، وإني أنا أحبك فحسب . » وقد رأيت على وجهك الصغير الشاحب دلائل الجمود والبرود والإصرار فلم أطلق روثك على هذه الحال . كفى الآن وكفى كفى جموعك !

وكشفت صوته الناعم عن هدوته فهذأت بدوري . وحاول إذا ذلك أن يعتمد برأسه على كتفي ، ولكنني لم أده . ثم أراد أن يبتدئ إليّ فأبيت ، واعتذرت قال في هجة بالغة الحزن والمرارة إلى درجة هزت أعصابي : « جين ! جين ! إنك لا تعينني . إنك لم تقدرى فقط سوى مركزي والمركز التي أتتبه من تكون زوجتي . فلما رأيت الآن أنني لا أستأهل أن أكون زوجاً لك ، كشت مني وأجفلت من لمني وكأنني ضئدع أو قرد !

أثرت في نفسي هذه الكلمات ولكن ما الذي كان في وسعي أن أفعل أو أقول .؟ ففعلت كان من الواجب أن أفعل أو أن أقول شيئاً ، ولكنني كنت أتعذب بالندم لإبدائي مشاعره . ولم يسعني أن أقام رغبتني في وضع يدي على الجرح الذي أدمته فقلت : « إنني أحبلك أكثر من أي وقت مضى ولكنني لا ينبغي أن أظهر هذا الشعور أو أطلق له العنان . بل يجب أن تكون هذه آخر مرة أعرب لك فيها عن شعوري . »

— آخر مرة يا جين ؟ ماذا ؟ أنت حين أنك تستطيعين العيش معي ورؤيتي في كل يوم ثم تعطين في يديك وتأبلك عني وأنت ما زلت تحبينني ؟

— كلا يا سيدي . هذا ما لا أشك فيه . إن ثمة طريقة واحدة : ولكنك قد تحتاج إذا ذكرتها لك .

— أوه . إذكريها ! وإذا عصفت بي الغضب فلديك فن اليكاه !

— يجب يا ستر ووشتر . أن أغادر !

— إلى متى يا جين .؟ ليضع دقائق حتى تسوى شعرك الذي

تشعب قليلاً ، وحتى تغسل وجهك شبه المصوم ؟

— يجب أن أغادر أديل وفورنيليك . يجب أن أجازيكم مدى

الحياة .! يجب أن أبدأ حياة جديدة بين وجه غريبة ومشاهد غريبة !

— طبعاً ، وقد أخبرتك بأن هذا ضروري . ولنوف أنت بعد أنك

زرومين فراق . لأفهم قولك على أنك تعين . ولابد . أن تصيحي

جزءاً مني . أما عن الحياة الجديدة ، فلا خير هناك . إنك على كل

حال متضيقين زوجتي . لأنني لست متزوجاً .! . ستكونين مسر

روشتر .! . وفعللاً ، وسألازمك ما دمت حياً . وسوف ألتقي إلى

قصر أمطاك في جنوب فرنسا . قليلاً بيضاء على شواطئ البحر الأبيض

الموسط . حيث تعين بالسعادة في أمان وتعيش حياة صافية ولا تخشيت

أن أغريك بار تكاتب إحدى المقاصي وأن أخذك غيلة . لماذا تهزين

وأسل ؟ يجب أن تكوني غائلة يا جين وإلا هاجت ثائري مرة أخرى .

وكان صوته ویده يتران ، وخياشيمه الكبيرة تسع ، كما تألفت

عيناه ، ولكنني جرأت على الكلام فقلت : « إن زوجتك ما تزال حية

يا سيدي وهذه حقيقة اعترفت بها بنفسك في هذا الصباح . فزدا أنا

عشت معك كما تهرى صرت لك خيلة .. أما القول بغير ذلك فمفسدة وزيف !

— أنا لست من رقيق الطبع يا جين فلا تلمنى ذلك ، كما أنتى لست من يقوون على الاحتمال الطويل .. لست بارداً أو هادئاً ، ولذلك أرجو إشفاقاً على .. وعلى نفسك — أن تضعى إصبعك على نضى ، وتنبهى وجيبه ثم حافزى !

وكشف عن رسته وقلمها إلى .. ووجدت الدماء تهرب من وجنابه وشبهه . وقد استحال الموتى إلى الزرقة ، فشمم الحزن كل نفسى ، لأن إثارته إلى هذا الحد الماضى — الذى كان يكرهه — ضرب من القوة .. وكان عضوى فى الوقت ذاته — أمراً مستحيلاً . ففعلت ما يفعله غيور من البشر بغريزته عندما يساق إلى نهاية الشوط : تطلعت إلى غياث من قوة تسمو على الإنسان ، وصحت على غير إرادتى : « أمدنى بالعون يا رباه ! »

\*\*\*

● وفجأة صباح مستر روشستر : « ما أحقنى ! لقد ظلمت أحداً بها بأننى لست متزوجاً دون أن أبسط لها الأسباب فقد نسيت أنها لا تعلم شيئاً عن أخلاق تلك المرأة وعن الظروف التى لا يست زواجى البغيض بها .. وأنتى لوائق من أن جين سوف تثنى معى فى رأى عندما تعرف كل ما أعرفه .. قطع ضعى يدك فى يدي يا جانيث لكنى أرى خاستى اللبس والبصر أنك قريبة منى ، وسأبسط يدي فى إغماز حقيقة الأمر ، فهل تستطيعين الإصغاء إلى ؟ »

— نعم يا سيدى .. ساعات إذا شئت !  
— كلا فليست أسألك سوى بضع دقائق يا جين .. هل سمعت أننى لم أكن أكثير أخوتى فى القصر وأنه كان لى أخ يكبرنى ؟  
— أذكر أن مسز فيرفاكس أخبرتنى بذلك .  
— وهل سمعت أن أبى كان رجلاً شجاعاً عجباً لئال ؟  
— فهبت شيئاً من هذا القليل .  
— حسناً يا جين ، لما كانت هذه طابع أبى فإنه لم يكن يطيع مجرد

التفكير فى نفسه بممتلكاته ليترك لى نصيباً عادلاً . ومن ثم استقر رأيه على أن يرث أخى ( رولاند ) كل شيء . ولكنه لم يرضى لى حياة الفقر فقصى يبحث لى عن زوجة غنية . وكان صديقه القديم مستر ميسون مزارعاً من سرافة جزر الهند الغربية وتاجراً كبيراً ، عرف أبى أنه أنجب ابناً واثية ، وأنه أثر الأخيرة بثلاثين ألف جنيه ، وما أن غادرت الكاثية ، حتى أوفدت أبى لى ( جانيثا ) لأتخطب الفتاة ، دون أن يشير لى ثروتها ، بيد أنه قال إنها فتاة المدينة . ولم يكن كاذباً فى ذلك ، إذ وجدتها جميلة من طراز بلاتش انجرام : هيفاء سحرآ ملتفة القوام ، أرادت أمرتها أن تستحوذ على نظراً لكرم محندى ، وتبعث فى ذلك .. كانوا يبرزونها لى فى المجتمعات فى أبهى فتتها ، فيحيط بها الرجال معجبين وهم يقطوئى عليها . ووجدتنى مبهور العواطف ، مسافراً للإغراء ، لا أفرى حقيقة أمرى . فقد كنت غراً قليل التجربة ، ولم أغرد بها أو أطل معها الحديث على حدة ، فخليل لى أنتى أحببتنا .. وليست هناك حافة تسلب اللب وتعيجل بتصير الإنسان كالثفاس الأبله



في الغضعات ، وكذا لاندفاع وراء العاطفة ، وتهور الشباب وعدم بصيرته . وهكذا شجعت اهل الفتاة ودفعني تراحم المتنافسين عليها ، وبهرتني هي بسحرها ، فتم الزواج قبل أن أفكر أين أنا !.. آه ، كم أحتقر نفسي عندما أفكر في هذه الخبيثة !.. وكما أتألم في قراري لقرابة التي تشبه بي . فإني لم أحبها ولم أحترمها قط ، بل إني لم أكن أكاد أحرقها ، أو ألتصق إلى وجود فضيلة واحدة في طبيعتها . أو ألتصق في عقلها أو خلقها شيئاً من النظم أو الأريحية أو الصراحة أو التمدب .. ونزولها مع ذلك . فكيف كنت أبه حفيراً قصير النظر ! أما أمي فإني لم أرها . وذهبت أنها كانت ميتة ، فلما انقضت شهر العسل أفرحت خطتي . إذ علمت أن الأم مجنونة في مستشفى المجانين . وأن لزوجتي كذلك أيضاً بصغرها إليه تماماً . أما لغوها الأكبر - الذي رأيته - فسوف يلقى على الأرجح نفس المصير يوماً ما . ولكني لا أستطيع أن أكرهه .. وإن أبغضت كل أقاربه - بسبب ما كان يظهر لأخته من حب يفتدي في اهتمام بهذه البائسة المتكودة ، وبسبب أنه كان يلازمي كثيراً ملازمة الكذب لصاحبه . وكان أبي ونعمي ( رولاند ) يعرفان ذلك كله . ولكن تكبيرهما كان مقصوداً على الثلاثين ألف جنيه ، فاشتراك في المؤامرة التي دبرت ضدتي !

واستطرد قائلاً : هكذا انكشفت لي أسيلة المدرسة الدينية .. ولولا إختفاؤها عني ما جعلتها موضوعاً لثاني زوجتي وتفرعها . حتى بعد أن وجدت طابعها تتألف مع طباعي . وميولها تتألف مع ميولي ، وعقلها منحطاً ضيق الأفق يستحيل التمسك به أو الاعتماد به إلى ما هو

أفصح من رفقته المخدومة . ووجدت أنني لا أستطيع أن أقضى معها أسية واحدة - بل ساعة واحدة من النهار - في راحة وسلام . وأنه لا سبيل إلى أن يتبادل الحديث معاً ، لأنني كنت إذا بدأت الكلام في موضوع ما ، نلت هي حديثي بفضافة وخشونة وغباء ، ووجدت ألا سبيلاً لي في منزلي إلى هدوء أو استقرار .. بل إن خلاصاً لم يبقو على احتياك ثورتها العنيفة الدائمة وطباعها البليهة وأوامرها السخيفة المتناقضة التي كانت تفرضها فرضاً ، وحاولت أن أصبح عواطفى - وأن أتعجب التفريع والتوزيع ، فأوجزت في احتجاجاتي ، وحاولت أن أتلوى صدرى على ما كان يفتابي من قدم وتقرقر ، وكنت ما كنت أحسن به من كراهية وبغضاء :

« ولست أريد يا جين أن أقفل عليك بالتفاصيل المثيرة ، بل تكفى بضع كلمات قوية للتعبير عما أريد قوله ، فقد عشت مع المرأة التي بالطابق العلوى أربع سنوات ذهبت منها خلالها الأمرين : إذ بدت طابعها بسرعة عجيبة خيفة ، وتجلت بذاتها بقوة لا تجدى معها غير الضمومة التي لم أتحاً أن أعبد إليها . كانت قزمية في عقليها . عملاقة في نزواتها وزعائها الشريرة التي حيرت على أشجع العنات .. أجل ، إن برتا ميسون كانت ابنة صديقة لأم مجنونة مثيلة ، وقد جلبت على كل ألوان العذاب المثبت المهين الذي يلاحق أى رجل ارتبط بزوجته غثلة للعقل ، عزيز عفيفة !

« وفي تلك الأثناء توفي أخى الأكبر ، وفي نهاية السنوات الأربع مات والدى كذلك ، فأصبحت غيباً . ولكن ما كان أشد فقرى - في

الحقيقة والواقع - معايشة هذه الغلوة البغيضة التي باتت شريكتي في الحياة - والتي يعتبرها القانون والقاس جزأ مني ، والتي لم يعد في وسعي أن أخلص منها بأية وسيلة شرعية - إذ كان الأطباء قد اكتشفوا إذ ذاك أنها عبولة ! ! إنشأ تخيلات لي قصتي يا جين ، إذ أرى على وجهك دلائل الاعتاض ، فهل تخمين أن أوجل البقية إلى يوم آخر ؟

— كلا يا سيدتي - أتعلمها الآن... إنني أرثي لك .. أرثي لك حقاً -

— إن الرثاء من بعض الناس يا جين عاطفة مهينة مزينة - يخلق بالمرء أن يرميها في وجوه من يقدمونها - إذ أنها تكون وليدة قلب مليئة بالخوف والأتانية - وإنه لما يدعو إلى الألم - القائم على الأثر - أن يسمع الإنسان كيف تقابل ويلات الناس وتكباتهم بالأزدرار يتصب على وموس من احتضلوا وقاموا ! ! أما رثائك لي يا جين فمن نوع أخسر أنواع يرتفع على وجهك ويندفع في عييك وينبش به قلبك - وترتد له يدك وهي في يدي ... إن رثائك يا جيني منبعث من قلب مظاهر كقلب الأم الغضاة - فلا يسعى سوى أن أتفله يا جين - وأفزع صديري !

— استمر يا سيدتي - ماذا فعلت عندما وجدت أنها مجنونة ؟

— كنت على شفا حوة اليأس والقنوط يا جين - ولم يحل بيني وبينها سوى بقية من احترام للنفس - نعم - كنت ملطخ الشرف في أعين الناس - ولكنني أصبرت على أن أكون نقياً في عيني نفسي - وأن أنأى عن دنس جرائم هذه المرأة وأن أبعد عن عيوبها وتفاصيلها العقلية .. وبرغم ذلك ظل المجتمع يقرن اسمها باسمي ، وظلت أراها وأسمع صوتها وأنتفض الهواء المشبع بأنفاسها - والعباءة بالله - كما أنني لم أنس أنني كنت يوماً

زوجها - وإن كانت هذه الذكرى - وما تزال - بشعة مقبته إلى درجة لا توصف ! .. بفضلها عن هذا فإنني كنت أدرك أن ليس يوسعي أن أكون زوجاً لزوجتي تفضلها ، مادامت هي على قيد الحياة - ومع أنها تكبرني بخمسي سنوات - فقد كذبت أسرتها وأبوها حتى فنيا بخص يسئلا - إلا أنه من المحتمل أن تعيش قدر ما أعيش - لأنها أوتيت من قوة البنية بقدر ما لديها من خيل - وهكذا وجدتني في السادسة والعشرين من عمري بلا أمل في الحياة !



● ومضى يقول : « وحدث ذات ليلة أن استيقظت على ضراخاتها ، إذ كنا قد حبسناها بطبيعة الحال - لما قطع الأطباء بخونها .. وكانت الليلة من ليالي جزر الهند الغربية السابعة - كما يصفون الطقس الذي يسبق لحواصف هناك ! ! - إذ عز علي أن أعود للعساس : غادرت قرأشي وفطحت النافذة - ولكن الهواء كان أشبه بحيون كبريتية ، فلم أجد فيما كان حولي ما ينشئ النفس - وأقبل البعض بظن في عتاد ويجوم في الحجرة - وتناهي إلى سمعي هدير البحر مكتوماً - وقد انعقدت السحب الغمامة - وانحدر القمر إلى الخقب في أطوار الأمواج ، طيدا عربطاً عمداً كقنبلة انطلقت من مدفع .. وراح يرنو بنظرة دموية أخيرة للعالم الذي كان يرتجف أمام العاصفة المقبلة ! ! وأثر الجو والمظهر في نفسي - كما امتلأت أذناني بالشتائم التي كانت المجنونة ما تزال تصرخ بها ، والتي كانت تخططها من آن لآخر باسمي في شجة حافدة بشعة ، وفي تعبيرات وقحة لا تقهر بها عاهرة ! ! وكانت كل كلمة تنأني إلى مسعوى وإن

فصلتني عنها سحرة قان . إذ أن الجبلان في بيوت الهند القرية رقيقة ،  
لا تحجب مثل تلك الصرخات الشبيهة بعواء النتب . وأخيراً قلت :

« إن هذه الحياة جحيم .. فهذا هو جهنم ، وهذه هي الأعصرات  
التي تبعث من جوفها الذي لا تفرار له ! .. إن من حق أن أنخلص منها إذا  
استطعت . فإن الآلام هذه الحلال القائلة خليفة بأن تختفي روحي .. لئني  
لا أتحسب الجحيم الخيم الذي يؤمن به المتعصبون ، فليس من مضمير أسوأ  
من حياتي الراهنة .. لأخلص من هذه الحلال ، وأطلق روحي ليارتها ! » .

« قلت ذلك وأنا أجتر على ركبتين يغرور حقبة مفتوحة مليئة بمسلمات  
محشوة بالرصاص . وكنت قد عزمت على الانتحار . ولكن هذه الفكرة  
لم تستلكني سوى لحظة واحدة عاد بعدها صواني لينقلب على رغبتي في  
القضاء على نفسي .. وإذا ذلك هبت رياح مبعثة من ناحية أوروبا ،  
ثم انسابت من المحيط إلى الحديقة . وثارت العاصفة وأرعدت وتوهجت ،  
ثم صفا الغمام ، وعندئذ رحمت لحظة وهولت على قرار .. فبينما كنت  
أتمشى تحت أشجار الزيتون في الحديقة المبللة ، وبين أشجار الرمان  
والأناس . والفجر من حوئي يضيء الأقاليم الاستوائية ، فكرت بتأجيل  
فأصغى لما ساورني ، لأن هذه هي الحكمة التي وجدت فيها عزاء في تلك  
الساعة وهي التي هدتني الطريق الصحيح الذي يجب أن أسلكه .

« وكانت الرياح المنعشة القادمة من أوروبا ما تزال تهب بين أوداف  
الشجر التي انتعشت ، وكان المحيط الأطلسي يدير في الإطلاق بدبح .  
وما لبث قلبي الذي ضال جفافه واحترقه أن تحرك تلك الأعظام ، واندلأ  
بدم حي ، كما ناق كبداني للتجديد وتعمشت روحي إلى هواء نقي ، ورأيت

الأمل وشعث ، وشعرت بأن تجدد القلب سهل فيسور : فرحت - من  
خجلة مزهرة في نياحة الحديقة - أنطلع إلى البحر الذي كان يفوق السحاب  
زرققة . فرأيت العالم القديم بعيداً وقد تفتحت أمامي الأمان هكذا :

« حدثني الأمل قائلا : « اذهب وعش في أوروبا ، حيث لا يعرف  
أحد أني أدم ملطخ بدمي : وأني عبء فخر جم على كاهلك . وفي وسعك  
أن تأخذ الحبوة معك إلى الجزائر حيث تحسب في ( لورفيلد ) وسط  
رعاية واحتياطات شديدة . ثم ارحل حيث شئت واتخذ لنفسك الحياة  
التي تروق لك والعلاقات التي تحبها ، لأن المرأة التي دنت اسمك ولعلخت  
شرفك وقضت على زهرة شبابتك ليست زوجتك ، ولست أنت زوجها .  
واعلمين إلى أنها تلقى من العناية ما تعطيه حالها . وأنت فعلت كل ما ينبغي  
منك الله والإنسانية . فما حقيقتها وعلاقتها بك فأمران يجب أن يطوبا في  
جلائل النسيان . فلا ترو لأحد قصتهما .. ولندعها في أمان ومسكينة  
وتستر على هوانها . ثم غادرها إلى الأبد ! » .

« وعلت بهذا الاقتراح بكل دقة . ولم يكن أي وأني قد أذاها عبر  
زواجي بين معارفهما . لأنني أشعرت عليهما - في أول خطاب أرسلته  
بعد زواجي - أن يكنتا عبر هذه الرابطة بعد أن بدأت أستشعر التفز  
البالغ من عواقبها . وبعد أن رأيت على ضوء الأسرة التي صاهرتها وحالها  
وحبائنها أمر مستقبل بغيض كان يسطر أمامي . ولم يلبث نيا المرأة المخبولة  
المثيلة التي اختارها لي زوجة أن تنأى إلي ، فأصبح وجهه يتضرج  
بدماء الخجل لانتسابها إليه ، وأصبح أكثر مني رغبة في كتمان أمرها !

« نقلنا إذن إلى الجزائر ، وما كان أقطع الرحيل مع هذه الوحشة



في سفينة واحدة ! .. وكما انتهجت نفسي عندما بلغت بها (تورنيليد) ،  
فوضعتها في الغرفة الخفية التي بالطابق الثالث ، والتي اتخذتها هذه  
(الحيوانة) الكاسرة عريتها لما عشرين سنوات طوال ، تحت رعاية جريس  
بول وإشرافها .. فإن هذه المرأة والجراح الدكتور كارتر - التي ضمد  
جراح ميسون - هما الوحيدان اللذان أطلعتهما على هذا السر الرهيب .  
ولعل مدني لم يفاكس قد استرايت في الأمر ، ولكنها لا تقدر شيئا عن  
الحقيقة . وعلى الرغم من أن جريس قامت بمهمتها في الحراسة على أكمل  
وجه ، إلا أنه حدث بسبب غلطة ارتكبتها - ويبدو ألا شفاء لها منها  
وإن ندمت عليها صفو مهنتها - أن يقطعها تراخت أكثر من مرة ، فإن  
المجنونة ماكرة بذر عامي شريرة مؤذنة ، فلذلك لم يفتأ أن تتهرب غفلة  
من حارسها ، فحصلت على ذلك الخنجر الذي طعنت به أخاها . كما  
سرفت الفتاح مرتين في أثناء الليل ، وحاولت أن تحرقني في فراشي في  
المرّة الأولى ، ثم زارتك في المرّة الثانية ، تلك الزمارة الرهيبة . وإلى  
لاشكر للعناية الإلهية أن صانعت فاقصرت المجنونة على أن تصب جام  
غضبها على غار زفافك .. إذ أنه لا بد قد أعاد إليها ذكريات غامضة عن  
أيام عمرها ، ولست أحتفل مجرد تصور ما كان يحصل أن يحدث ! .. إن  
الدم ليجمد في عروقي حين أفكر في ذلك الوحش الذي انقض في هذا  
الصباح على عني ، وتحمي بطولته القرمزية القائمة على عرش حي .

\*\*\*

● وعلينا توقف سألته : « وماذا فعلت يا سيدي بعد أن جئت بها إلى  
إلى هنا ؟ إلى أين ذهبت ؟ »

وبعدهما توقف سألته :

« وماذا فعلت يا سيدي بعد أن جئت بها إلى هنا ؟ إلى أين ذهبت ؟ »



— ماذا فعلت يا جيم ؟ تحولت إلى طيف .. إلى مرآة ؟ وإلى أين ذهبت ؟ رحت أتقول كالأرواح الماثمة .. سميت إلى أوروبا ورحت ألحرب في مناكها ، وأطوف ببلداتها ، وقد وضعت نصب عيني أن أبحث عن امرأة طيبة ذكية استطاع أن أحبه بها حباً ، وأن تكون على نقیض تلك الشيطانة التي تركتها في لورنجيلد .

— ولكنك لم تكن تعلم أن تزوج ياسيدي .

— كنت قد قرأت ذلك وأقنعت نفسي بأنني وسعي أن أتزوج .. بل وبأن من الواجب أن أتزوج . ولم يكن في يدي أن أجد أحداً كما عندك . بل كنت أعزم بسط قصتي في رسالة وعرض مقترحاتي في صراحة . وبدا لي أن من المعقول جداً أن يعترف الناس حرراً في أن أحب وأن أحفظ بالحب . ولم أشك في وجود امرأة تستطيع فهم قضيتي . فتقبلت زواجاً على الرغم من اللعة التي تشغل عاقلی .

— وبعد ياسيدي ؟

— إن فضولك يا جيم يحسني على الابتسام ، إذ تقنعون عينيك كقطار منقلب . وقد منك بين الحين والآخر حركة تأتي عن قلب . وكان المعلومات التي يزخر بها جاني لا تأوفيك بسرعة . فأتت تودين أن تستلقي فرائة قلبي .. ولكن قبل أن أستمر في الحديث ، تجرئني : ما الذي تعني بعبارة « بعد ياسيدي » ؟ .. إنها عبارة صغيرة عادية منك . ولكنها طامحة استند جنني إلى جانب لا ينهي . ولا أدرى السبب في ذلك .

— إنما أعني : ماذا بعد ذلك ؟ كيف سررت في طريقك ، وماذا

تفهم عن مثل هذا الحادث ؟

— تماماً ! : وماذا تترغين في معرفة الآن ؟

— هل وجدت من أحبتها ، وهل طلبت إليها أن تزوجك ، وماذا

قالت ؟

— في وسعي أن أحجب عن : هل وجدت من أحبتها ، وهل طلبت إليها أن تزوجني .. أما مقالته فسيدون في سجل القدر . فلقد قضيت عشر سنوات أهدم هنا وهناك ، أعيش فترة في عاصمة ، ثم أقادها إلى غيرها .. فأنا حيناً في سانت بطرسبرج ، وحيناً في باريس ، وأحياناً كثيرة في روما ونابولي والبندقية . وبفضل ما كنت مزوداً به من مال ، ومن جواز سفر يعمل أحياناً قدماً ، فقد كان بوسعي أن أختار الوسط الذي أنس إليه . إذ لم يكن أي وسط يفلق أبوابه في وجهي . فرحت أبحث عن زوجة نموذجية بين السيدات الإنجليزيات و « الكونتات » الفرنسيات و « السنيورات » الإيطاليات و « الجرافينيات » الألمانيات ، دون أن أعتدى إلى ضالتي . وكان يغيل لي أحياناً .. لفترة عابرة — أنني لغت نظرة وسعت صوفاً ورأيت قواماً يحظى حلمي ، ولكني كنت لا ألبث أن أؤوب إلى رخصتي .. لا تحسني أنني كنت أشهد الكمال سواء في العقل أو الجلال ، ولكني كنت أثنيف فقط على من تلائم على نقیض هذه الخلاسية . وعيناً حاولت ، إذ لم أجد بينهم من يمكن أن أسأله أن تزوجني لو أتيت في الحرية ، بعد كل ما عانيت من انقضا والأهوال والخوف من الأضرار التي لا تلائم معي . وجعل الناس مني شخصاً مستهتراً فحاولت الانعاس في الملذات . : وليس في نفسي ، فإني كنت أكرهه وما زلت أكرهه ! .. وكانت كل متعة فيها مصطب تقريني من المرأة

التي كنت أحرب منها ، ومن ثم كنت أسارع إلى تجنبها ! .. ومع ذلك فإنني لم أستطع العيش بحرية فحسبت معايشة الخليلات ، ووقع اختيارى أولاً على ( سيلين فارنس ) - وهذه إحدى الخطرات التي تجعل المرء يحضر نفسه كلها لتذكرها - وأنت تعرفين ماذا كانت وكيف انتهت صلتى بها ، وأعقبها الثفان : إحداهما إيطالية تدعى ( جياشيتا ) ، والأخرى ألمانية تدعى ( كلارا ) . وكانت كل منهما آتية في الحرام ، ولكن ما الذي صار إليه حظي في عيني بعد بضعة أسابيع ؟ . كانت ( جياشيتا ) امرأة عنيفة ، وضيفة الأخلاق والمبادئ قسرتها بعد ثلاثة أشهر ، بينما كانت ( كلارا ) أمينة وهادئة ، ولكنها كانت ثقيلة بلا عقل ولا عاطفة . كما أنها كانت لاثير شعرة في جسدي . فاغبطت بأن أمتحها مبلغاً كبيراً يكفل لما العيش الرغد ، وهكذا تخلصت منها برفق ! ولكني أرى من سيئاتك يا جين أنك لا تأخذين عني الآن فكرة طيبة . فهل تسميني وغداً مستهتراً لا يشعر ولا يتقيد بمبدأ ١٤ ؟

.. إنني لا أحبك بمثل ما أحببتك في بعض الأحيان .. هذا هو الواقع يا سيدى . أفلا ترى أنه من الخطأ على الأقل أن تحيا بهذه الطريقة : تعاشر هذه الصديقة ثم تلك ؟ .. أراك تتحدث عن هذه الأمور ، كما لو كانت ملبوعة !!

.. هكذا كنت أحياناً ولكني لم أحب هذه الطريقة ، ولكنها كانت مجرد وسيلة هاتمة للبقاء في الحياة ولا أحب أن أعود إليها بحال . فإن استلزام محبة هو في عيني بمثابة استرقاق جارية . كلاهما دنى بطبيعته

وبوضعه . وفي العيش مع الأدباء تدهور وانحطاط ، ولذلك فإننى أكره التفكير في الفترة التي قضيتها مع سيلين وجياشيتا وكلارا !



● وشعرت بصادق هذه الكلمات . واستخلصت منها النهاية الأكيدة . قال أنتي تسبت نفسي والعالم التي غرست في أعماقي ، فهدوت خيلتي هذه الفانيات المتعصبات . مريرة فعلتي بأى مبرر ، أو بآية حجة ، أو بمسافة لأى أغراء .. لنظر إلى على نفس القديم الذى يشع الآن في ذهني على ذكرهن :: ولم أبح بهذا الاقتناع . مكتفية بأن أشعر به . فكتمته في فؤادى عسى أن يمكث فيه ليكون في غيبي في وقت القضي ١

.. والآن يا جين ، لماذا لا تقولين : « وبعد يا سيدى ؟ » .. إنك تدين متهومة وأراك مازلت تستكفين ما فعلت : ولكن دعينا نصل إلى ما أرى إليه : فقد تخلصت في يناير الماضي من كل خليلاتي ، إذ تولاني تفكير قاسٍ مرير ، نتيجة الحياة غير الخيرية : القاذرة ، الموحشة ، التي تحرقها القنوط والحيلة . فإذا بي أشعر بكرامة بغضه لكل الناس . لا سيما النساء منهم ، لأنني بدأت أعتقد الرأي القائل عن عقل وإخلاص : إن المرأة الخفية لا تغدو بحلاً من الأحلام ! .. وكانت شغوفى قد أخرجتني إلى الخلط . وفي كنت ذاكاً جوادى بعد ظهر يوم شديد البرد من أيام الشتاء . وقد أشرقت على ( نور غلياد هول ) .. هذا المكان البغيض الذي لم أكن أتوقع فيه سلاماً ولا هناء . شاهدت في طريق ( هار ) شبحاً صغيراً يخالس وحيداً في هدوء ، فواصلت السير دون اكتراث ماراً بشجرة الصفصاف الضخمة في الاتجاه الآخر دون أن أدري ما سيكون لهذا الشبح



من شأنى فى حياتى ، ودون أن ينتهى شئ . فى قرارة نفسى إلى أن المرأة التى سيكون لها الحكم القاصلى فى حياتى ، وإلى أن الجنية التى ستقودنى إلى الغمر أو إلى البشر ، كانت تتفانى متكررة فى شخصية متواضعة . أجل . لم أظن إلى ذلك . حتى عندما تقدمت جادة تعرض مساعدتها لإنهائى من عرقى عندما كتب فى جوادى « مسرور » ..

كم كانت مخلوقة ناعلة أشبه بالأطفال ! .. لقد خيل إلى أنها عصفور وثب عند قدى وعرض على أن يحملنى على جناحه الصغير . .. وكنت فقط . ولكن هذه المخلوقة لم تصرع بل وفقت أمامى فى إلحاح عجيب . وجعلت تتطلع إلىى وتحدثنى فيما يشبه الأمر بأننى يجب على أنقبل العون ومن يدها بالذات .. وفعلنا ما لفتنى .. وما أن ضغطت على كفتها الخفيفة . حتى تصرب إلى جسمى لإحساس جديد .. ثم طليت نفسها عندما علمت أن هذه ( القرمة ) لن تلبث أن تعود لى ، إنها على صلة بتمزلى .. ولولا ذلك ما تركتها تخفى فى مبيتها وتختفى وراء السياج القاتم دون ندم غير عادى . ثم سمعتك تعودين إلى المنزل فى تلك الليلة بالجرى ، وإن لم يخطر ببالك أننى كنت أفكر فيك أو أرتقب عودتك . وفى اليوم التالى ، لاحظتك خفية نحو نصف ساعة وأنت تتعبين مع أدبل فى الدهليز ، إذ كان اليوم فر والجليل يتساقط ، فلم يكن فى وسعكما الخروج .. ولقد شغلت أدبل اهتمامك برهة ، ومع ذلك فقد خيل إلى أن أفكارك كانت تهيم فى مكان آخر . وأكلت كنت بالغة الصبر فى معاملتك لأدبل بالصغرى فى حين ، فظلت تحدثها وتسلها طويلاً .. حتى إذا غادرتك الطفلة فى النهاية . غرقت على الفور فى لغة عبقة من أعلام البقطة ، ورحلت لفرعين الدهليز

بخطوات بطيئة ، وكنت بين الفينة والأخرى تظلمن - كلما مررت بالكافه - على الجليل الكفيف المتساقط وتصفين إلى حبيب الرياح . ثم تعودين إلى فرع الدهليز وأنت ساهرة فى أحلامك ! وأغلب الظن أن أحلام البقطة تلك لم تكن قائمة . لأن عينيك كانتا تشعان فى سرور واعتباط . وكانت انفعاالاتك تنجلي على أساليبك ناعمة ، لا تلبث على شعور برارة أو اكتئاب أو وصومة .. كانت نظرتك تبنى بأماكن الشباب المخلوقة التى تخلق مع الروح على أجنحة الأمل إلى حواء الملك العالية . وأخيراً . أقتت من أحلامك على صوت مسز فيرفاكس تنادى إحدى الخادومات . وبالأقسام التى ابتسما بإجابت إذ ذاك لنفسك .. كانت ابتسامه تزخر بالمعاني .. ابتسامه أروية تلقى ضوءاً على شروء أفكارك . وكأنها تقول : « إن أحلامي لليلة للغاية ، ولكن يجب ألا أنسى أنها مجرد أوهام خيالية .. إن فى رأسى جنة نظيرة الأوهام وسما وروية اللون . ولكن عند قدوى طريقاً وصيراً ، وحولى تتجمع العواصف السوداء .. ثم أمرعت شيعتين الدراج إلى الطابق السفلى . وهدلت إلى مسز فيرفاكس نوعاً من العمل لعله الخشاب الأسبوعي انفضات الفصير أو شئ من هذا القبيل ، فاستأنت أنا لاختفائك عن عيى .

وترقبت وفود المساء فى ضيق نافذة ، لأدعوك إلى حضرتى . فقد شككت فى أن تكون لك طباع غير عادوة ولا قبل لى بها . فأردت أن أسبر عورها وأتعرف عليها جيداً . ورايتك تدخنين الحجرة بمظهر يجمع بين الحياة واستقلال الشخصية . كما أنك كنت فى ثياب متجربة كما أنت الآن .. واستندت جنتك إلى الكلام ، فسرعان ما وجدتك مشحونة بالانفضات

العجبية : فقد كانت ثيابك ومبايعك تخرج لقيود شديدة ، وكان مظهر  
 يتم في أغلب الأحيان عن خصر وحيا ، ولكنه في مجموعه كان يدل على  
 أنك مثقفة ، وغير مختلطة بالمجتمع .. كنت شديدة الخوف من التعرض  
 بلا داع إلى الخراء والأخطاء ، ولكنتك - إذا ما وجه إليك حديث -  
 كنت ترفعين إلى وجه عدوك عينا حادة جريئة متألقة ، وتظهر في كل  
 لغة من لغاتك أنك ذات سلطان بقدر إلى أحقاد عدوك ، فإذا ضيق عليك  
 الأسنة جاءت ردودك حاضرة سديدة .. وسرعان ما ألقيني وأعطت أنك  
 شعرت بالجواب يبتك وبين يديك المتجهج العيوس ياجين ، لأن  
 ثورتك كانت تحو لأهل تبتك من ناحيتي . ولأنك لم تعجبني ما أنصت  
 به من عيوس وفظاظه ، ولم تحالي ولم تزعني ولم تستأني لشراسي . بل  
 كنت ترميني وتبسمين إلي من حين إلى آخر بأساطة تلي عن الوصف ،  
 ففقت بما رأيت ورصيت بما شاهدت وتحتيت المزيه . ولكني ظلمت  
 مدة طويلة أفعالك معاملة ترمي إلى إقصائك ، فلأسع للاعتلال بك  
 إلا بما ندر ، لأنني أردت أن أطيل حبلي القصة من جهة ، ولأنني  
 خشيت من جهة أخرى أن تغلب الزهرة إذا أكثرت من تداولها ، فوضع  
 راعيتها الساحرة .. وما كنت أعرف وقتذاك أن زدها لها ليس زائلا .  
 وإنما هو إشراق دائم كالثاني الجوهر لا يتلاشى ولا يمحى . هنا إلى  
 أنني أردت أن أعرف ما إذا كنت تشدين وتبني إذا تجنبتك ، ولكنتك  
 لم تحفل بي ياجين وظلمت ثلاثين حجرتك ، فإذا التفت في عرضاً  
 وانظراً ، لم تظهر لي سوى إلا ما يفرضه عليك واجب الاحترام ؟  
 وكانت أسرارك العنادية في تلك الأيام ياجين تم عن التفكير العميق .

ولم تكن شاحبة ، لأنك لم تكوني تعانيين إذ ذاك همّاً ولا قنوطاً .. وكذلك  
 لم تكن مثيلة ، إذ كانت آمالك قليلة بسيطة ولم تكن في حياتك غبطة  
 حقيقية .. ولقد ساءلت نفسي : عما جال بخاطرك عني ، وما إذا كنت  
 قد فكرت لحظة في .. ولكني أثبتت ذلك فقلت أو تحبك ، فإذا نظرتك  
 شيء من الفرح ، وفي تصبر فأنك ما يتم عن شاحبة : وفي حديثك - إذا  
 تكلمت - ما يكشف عن قلب ودود . وما كان حزنك سوى ضجر  
 تولد عن حجرة الدراما الساكنة ، وعن الحياة الرتيبة ، الجامدة ! ..  
 وتركزت نفسي شعر بعملك بالحنى ، وسرعان ما تحركت عواطفك  
 بهذه الثقة ولأن أسرارك ونبرائك .. وأصبحت أحب سماح احى  
 تنطق به شفتك يلهمجة تشق عن الامتنان والسعادة . كما اعتدت أن  
 أكون الفرض القاطن في تلك الأيام ياجين ، ورأيتك في حيرة ، وشاهدت  
 قلقاً في نظراتك ، إذ لم تكوني تدرين هل سأمثل معك دور السيد فأعماكك  
 بشدة وحزم ، أو أنني سأأخذ دور الصديق فأبدي لك الود والعطف ..  
 ولكنني كنت قد أصبحت منبأ في هواك إلى درجة حالت دون أن أقوم  
 بإزاحة الدور الأول . فكنت إذا مددت إليك يدي في ود ، تهال وجعلك  
 الصغير وتوددت أسرارك المتشافة حتى أصبحت أجده عتاه كثيراً في  
 منع نفسي من أن أقدمك إلى صديري .



■ فقاطعت وأما أنك كنت دموعي غليظة : لا تحالني مرة أخرى عن  
 تلك الأيام ياسيدي ! .. فلقد كانت كتابته تعذبني ، لأنني كنت قد  
 عرفت ما يجب أن أفعله .. وأن أفعله بسرعة : ومن ثم فقد كانت تلك

الذكريات والأعترافات العاطفية تزيد في صعوبة مهني . والحياتي  
قائلا : « كلا يا جبريل .. لا ضرورة تدعو إلى التحدث عن الماضي إذا  
كان الحاضر أكثر متعة أمتا ، والمستقبل أكثر إشراقا وثقا ! » .

وأرتجفت لهذا التأكيد الذي يدل على أنه رجل مطلوب القلب .  
ولكنه استرسل بقول : « هاتذي قد رأيت قضيتي .. أليس كذلك ؟ »  
بعد شباب ورجولة القضايا في يسر لا يوصف ووحدة موحنة . عثرت  
على ضالتي المشوذة . والتقيت بمن أستطيع أن أحبا حباً صادقا .. عثرت  
عليك أنت .. أنت عاطفتي وذاتي الفضلي وملاكي الكريم .. وإلى  
أرسل بك برباط قوي . وأراك فتاة مليحة موهوبة مبهجة . وأعمل لك  
في ظلي حياً غانياً يهفو إليك ويغلبك إلى سويدائي وإلى منبع حياتي .  
ويدهق وجودي إلى أن بلغ حواذك . وإلى أن يشعل في طيب صدام  
مشبوب بصبرك وإياري في كيان واحد .. كان شعوري هذا ومعرفتي  
هذه من إصراري على أن أترجمك . وإذا قلت لك الآن أني زوجة  
فإن هذا القول بعد صرية فارغة . لأنك تعلمين أنها شيطانة مريدة ..  
لقد أخطأت فعلا في إخفاء هذه الحقيقة عنك . وعذري أنني كنت أحتج  
ما أعهدده من عباد أن أخلاقتك .. إنه جبريل متى بلا رب . فقد كان  
خفيقا في أن أبسط لك قضيتي كما بسطتها الآن . ثم أتوسل إلى نفسك  
السبلة وإلى كرم أخلاقتك أولا . ثم أكتشف لك بصراحة عن تاريخ حياتي  
العنية وأصف لك مدى جوعى وتعطشي إلى حياة أسمى وأفضل .. حتى  
إذا ما أبديت لك عزي الذي لا ينقضي على أن أحب وأخلص حياً أبداً

الحب والإخلاص . كان لي أن أسألك أن تبادليني العهد على الوفاء ..  
فهلا غادرتني يا جبريل ؟ » .

ورأى الشكون بيتا لحظة قال بعدها : « لماذا تسكتين يا جبريل لا » .  
وكننت أعاني غداً مغنياً . وكأنا راحت تنعصر أحشائي قبضة من  
حديد ملتهب .. كانت لحظة عصيبة زخرت بالصراع والظلام  
والاحترق .. ما كان في الدنيا إنسان يهفو إلى أن يلقى من الحب ما كنت  
ألقى .. وكننت أعيد هذا الذي يعني عبادة مطلقة ، ولكن واجبي كان يهزم  
قلي أن أتد هذا الحب وهذا العبود .. كان كل واجبي ينحصر في  
كلمة واحدة ، يقبضة : الرحيل ! !

وعاد يسألني : « أنفهمين يا جبريل ما أريدته منك ؟ » لا أريد سوى  
هذا الوعد : سأكون لك يا مستر روتشستر .

— بل إنني لن أكون لك يا مستر روتشستر !

ورأى الشكون مطلق آخر : قبل أن يستأنف السيد حديثه بصوت  
رقيق النظم له قاي . وأحالي كالخجر البارد لقرط الإشقاق والطلع .  
فقد بدا كصوت أسد يلهث وهو يقول : « أنتين يا جبريل أن تتحدثي لك  
في هذا العالم ملوفاً غير طريق ؟ » .

— نعم أعني ذلك .

فأخني على وضعتي إلى صدرها : ثم عاد يقول : « وهل نازلت  
تبعينتي الآن ؟ » .

— نعم أعنيته .

فقطع قبلة دقيقة على وجنتي وجنتي ثم قال : « والآن » .



فبادرت إلى النزاع نفسي تماماً من أحضانه وقالت : « نعم أصليه ! »  
 - أواد يا جيبين .. هذه قسوة ! .. هذا شر ! هل من الشر أن تحبني ؟  
 - بل من الشر أن أطيعك .

فارتفع حاجباه عن نظرات شرسة فوجهت على أساريره ، ثم تهاوس  
 من مكانه . ولكنه تجلد بينا التكات يدي على ظهره أحد الفاعد خشية  
 السقوط ، وقد ارتجف جسمي واستبدني الخوف .. ولكنني ظلمت  
 مصرة على ما اعتزمت . فقال : « خلقة واحدة يا جيبين .. أنتي نظيرة واحدة  
 على حديق البائسة قبل أن تذهبي . إنك تتزعين معك كل سعادي .  
 فإذا بقيت بي بعدها ؟ .. ليس لي إلا الزوجة المغنونة بالطابق العلوي كأنها  
 إحدى الجشت المغنونة في فناء الكنيسة . فإذا أفعل يا جيبين ؟ وأين أنشد  
 الرقيق ؟ وأي أمل بقي لي في الحياة ؟ »

- أفعل مثل : أنت في الله ، وفي نفسك ، وآمن بالساعة ، وتسلط  
 بالأمل في أن تلقى فيها !  
 - إذن قلني ترخصني ؟  
 - كلا .

فقال بصوت مرتفع : « إذن فأنت تقفين على بأن أعيش شقياً وأن  
 أموت مملوئاً ؟ »

- بل أنتخذك بأن تعيش بلا خطيئة ، وأنتهي لك أن تموت في  
 جلدك وبسلام !

- إذن فأنت تترعين مني الحب والبراءة ، وتردينني إلى الشهوات  
 والريذة ؟

- أنا لا أحبك على مثل هذه الحياة يا مستر روشستر . الأهم إلا إذا  
 كنت أو نظمتها لنفسي .. إنما ولدنا لكي نناضل ونحتدي .. هذا مصيرك  
 ونصيري ، وسوف تفسق قبل أن أنساك !

- إنك بهذه الكلمات تصميقي بالكذب والرياء ، وتشتيتني بشري .  
 لقد صار حركتي بأنني لن أجد لي رفيقاً غيرك ، ولكنك تواجهيني بأنني  
 لن ألبث أن أتغير فأنساك .. ألا ما أقسى حركتك . وما أبعد أراذك عن  
 الحقيقة ! .. هل من الخير أن تلقى مخلوقة في غيايب اليأس بدلاً من أن  
 تتجاوزني عن قانون بشري لن يصير أبناً إذا نفسه ؟ .. إنك بلا أقارب  
 أو معارف تخشين غضبيهم إذا ما عشت معي !

\*\*\*

● كان هذا صيحاً .. وكان خيمري وعقل قد تألبا ضدي - أثناء  
 الحديث - وانتهانا بأنني أخرج - في حقك إذا أقاومه . وصاح شعوري هائلاً  
 بدوري : « أواد ! .. اخضعي ! .. فكري في شقائه .. فكري في الخطر  
 الذي يتهدده . فكري في حاله عندما تغافرينه وحيداً .. تذكرى الدفاعة  
 وشوره في حركتك وفكري فيما قد يجره عليه اليأس .. هيا خفي عن وانفزيه  
 وأحبيه .. أخبره بأنك تحبينه وأنتك مستكونين له .. من ذا الذي يعني بك  
 في العالم غيره ؟ ومن الذي يصير ما نفعلين ؟ »

ورغم ذلك : فقد ظل الجواب الذي لا يغلب ولا يقهر : « سأعني  
 بنفسي .. وكلياً بقيت في عزلة وبلا صديق أو عائل ، زدت احتراماً  
 لنفسي ونسكاً بالبرائع التي استقيا الله وأقرها البشر : نعم ، سأعنيك  
 بالمبادئ التي اعتنقها وأنا في سلامتي العقلية ، لا وأنا مغبولة بانفعالاتي

كما أنا الآن - فإن قيمة الشرائع والمبادئ ليست في الأوقات التي تخلو من الإغراء - وإنما هي في مثل هذه اللحظات التي يتم فيها الجسم والروح على صرامة تلك المبادئ والشرائع - فهي صارمة حقاً - ولكنها مستظلمة مصونة حصينة - وإذا كان في وسعي أن أتركها لمصلحتي الخاصة - فأية قيمة لها إذن ؟ إن ما قيمتها كما كنت أعتقد دائماً ، فإذا كنت قد كذبت عن الاحتياط الآن ، فما ذلك إلا لأنني مجنونة .. مجنونة وأني جنون بسبب النار التي تسرى في شرايبي - وبسبب نبضات قلبي التي لم أعد أقوى على ملاحظتها وإحصائها .. لم يبق لي الآن سوى التوقف بجانب الآراء الجديدة والإرادة السابقة - وسوف أتمسك إليها لأزيم ولا أتركك ؟ -

وقد فعلت ذلك ! .. ورأيت منظر روضي مما ارتسم على أساور وجهي أنني اعترفت ذلك .. وكان غضبه قد بلغ الذروة فعزل على أن يهادني من سوزنه مهما حدث ، ولذلك عبر الحجر وأمسك يداي ثم أمسك بخصرى وراح يصلي بنظره الملتصق ، فشرعت في تلك اللحظة بعمى الجفاني . ولكن بقيت مخففة بقوى العقلية . وأحسست بأنني لذلك في مأمن تام وسلامة كاملة .. ومن حين الحظ أن العين تترجم ما يدور بالنفس ترجمة أمينة دون أن تدري ، وكنت قد رفعت عيني إلى عينه - وفيما كنت أفترس في وجهه الناز ، قدت عن صدري زفرة - برغبي - إذ كان يشد بقوة على خصرى . ووجدت قواي تنفجر فقال وهو يصرف علي أسنانه : « ما رأيت في حياتي قط شجوة كهله .. غابة في الضعف ، وغابة في الصلاة ! .. إنها تليد في يدي كفضية من البوص ! .. وهزني بقوة وهو يقول : « إنني أكاد ألويها بين أصبعي

وأبداي ، ولكن أي نفع أجنبه إذا أنا لويها أو حطمتها أو صفقتها ؟ .. انظر إلى هذه العين ! .. تأمل النظرة العبيدة ، النائرة ، المطلقة : إنها تتحداني بشيء يخوف الشجاعة .. شعور بالنصر المؤزر ! .. كأنني بهذا الجسد الهش أقض قضيض روحيها ! .. ولكني لن أستطيع - مهما أفعل بهذا القضيض - أن أصل إلى هذه الخلقة المرحشة الجميلة ! .. لو أنني مرقت أو دشت هذا القضيض الضبابي ، فإن يؤدي هياجي إلا إلى انطلاق الطائر الأسير .. إنني قد أقمعت هذا المألوس ، ولكن ساكنته سطر إلى السماء قبل أن تصل إليها يداي . إنك أنت أيها الروح بما أوتيت من قوة وقبيلة وطهارة ، هي كل ما أشد ، فلا حاجة لي بهيكلك الهش .. إن في وسعي أن تأتيني طواعية وأن تحط على صدرى كعصفور ، أما إذا تمسكت بك رغم أنفك فسوف تروغين من قبضتي مثل الأثير ، وسوف تخفين قبل أن أنبل من دبرك ؟ أهواه .. تعالي يا جين .. تعالي ! ..

ثم أطفأت من قبضته وراح يتأملني بنظرة أشد إيلاماً للنفس من قبضته ولكني وجدت من الخلق والنهاه أن أسلم الآن بعد أن جررت وقاومت ثورته في عفتوانها ، فراجعت إلى الباب ولكنه صاح : « أذهبه أنت يا جين ؟ »

.. أجل ، أنا أذهبه يا سيدى :

.. وهل تركيتي ؟

.. نعم

.. ألا تعودين ؟ .. هلا تكونين لي الأنيبة المنقطة ؟ .. ألا قيمة

لذلك لحبي العميق وحزني الشديد وضراعتي الحارة ؟

وكان في صوته شجن مكبوت ، ولذلك كان شافاً على أن أقول في عزيم وإصرار : « إني ذاهبة .. فهتف : « جين ! .. قلت : « ما مبرر رويشت ؟ »

« فذهبي إذن .. لقد رضيت ، ولكن تذكرى أنك تركيتني هنا لأعاني آلاماً مبرحة . اصعدى إلى غرفتك وفكرى في كل ما قلته لك . ثم ائني نظرة على شجرتي وفكرى في ! »

واستدار وانكفاً فوق الأريكة ، ثم ضم بين شفتيه في ألم : « آواه يا جين ! يا أملي وحبي وحياي ! .. وتنه باكياً .. وكنت قد بلغت الباب إذ ذاك ، ولكنني عدت أبها القسراً .. عدت بالعزم الذي اتصحت به ، فركمت بنوازه ، ونحوت وجهه عن الوصادة نحوى ، نزلت ونجست ، ومسحت يدي على شعرة ، ثم قلت : « باركك الله يا سيدي العزيز ، وحفظك من كل شر ، وعصاك من الخطأ وسدد خطاك ، ومنحلت السلولان ، وجزاك خير الجزاء على ما أسلفت على من عطف وحسان ! .. فأجابني : « إن حب جين الصغيرة هو خير ما أطعم فيه من جزاء ، وبدونه يتحطم قلبي . إلا أن جين ستمتحن حياً .. نعم ستمتحن في نيل وكرم ! .. ثم اندفعت الدماء حارة إلى وجنتيه والتهبت حينها فوثب وفقاً على قدميه ، ومد ذراعيه : ولكنني أفلت من يديهما وغادرت الحجرة على الفور . بينما كان قلبي يصبح وأنا أتركة : « وداعاً ! .. وأصاف ، اليأس إلى ذلك قوله : « وداعاً .. إلى الأبد ! .. »

\*\*\*

● لم يطف بمطاري في تلك الليلة أنني بحاجة إلى النوم . ولكنني لم أكند

استلقي على فراشي حتى أختلني سنة من النوم ، فالتفت في الرؤيا إلى أيام طفولتي ، وحملت بآني راقدة بالفرقة الحمراء في ( جيسيد ) في ليلة سالكه الظلام ، وقد استبدت بغفل مخاوف عجيبة ، وانبعث في المنام ضوء المصباح الذي لاح لي عندما كنت حياصة تلك الغرفة - منذ أمد بعيد - فأدركني غوفي وجعلني أفقد الرشد . ثم تراءى لي ذلك الضوء وهو يترق على الجدران ، ويظلم يرتعش ويبرز حتى تركز على السقف المغمى به وتبعته بصرى فلما لي أرى السقف يتحول إلى صب عالية داكنة وقد بدا فيها ذلك النور أشبه بالضياء الذي يخلقه القمر على السحب عندما بهم بتعريق شملها .. ورحلت أرقب ظهور القمر .. رحلت أترقبه في فقة عجيبة وكأن مصري سينطبع على فرصة . وسرعان ما برز يتل ما لم يبرز قر من قبل من بين السحب : فقد شقت يد طيات الغيوم السوداء وأزاحتها بعيداً ، وبدلاً من أن يظهر القمر ، بدا شيخ آدمي أبيض يلتصق في اللون اللاز وردي ، فأطل على الأرض بطلعة بيضاء ، وراح يحدق في ويطلق الصراخ ، ثم خاطب بروحي بصوت جد بعيد ، ولكنه مع ذلك كان جد قريب ، فكانما كان يهس في قلبي وهو يقول : « اهرق يا ابني من الإحرام ! .. فهتفت : « سأفعل يا أماء ! .. »

وكررت هذه الإجابة وأنا ألق من حلمي الذي كان أشبه باستمرارة روحية . وكان الليل لا يزال مرغماً استمره ، ولكن لبالي شهر يولية قصيرة ، لا تكاد تنصف حتى زدها الفجر : فقلت لنفسني : « ليس الوقت مبكراً ، فلا تنهض لأشعر في المهمة التي يجب أن تؤديها ! .. ومن ثم نهضت ، ولم أكن قد خلعت من ثيابي غير حذاءي : وكان من



اليسير على أن أخرج من أدراجي بعض الكتاب ، ورجعيتي وخالتي .  
وفها كنت أجمع هذه الأشياء عثرت على عقد من اللؤلؤ كان مسر  
روشنر قد أكرهني على قبوله منذ بضعة أيام ، فتركته لأنه لم يكن ملكاً  
لي وإن كان ملكاً لغيري التي ذابت وتبددت في الهواء ! .. أما أمعتي  
الأخرى فقد حزمها ، ووضعيت كيس لقودي في جيبي . ولم يكن به  
سوى عشرين شلماً هي كل ما كنت أملك . ثم ارتديت قلنسوتي القش  
ولبست شالي بالديابيس إلى شعري ، وحملت حزمة الأمعة و ( شديتي )  
التي لم ألبسه من قبل ، ثم تسلك من الحجرة :

وهمسب وأنا أمر بباب غرفة مسيرة القصر : « وداعاً يا مسر فير فاكسن  
الرحيمة ! .. وداعاً يا جيني أديل ! » .. واكتفيت بالتطلع إلى حجرة  
الطولة دون أن أجسر على الدخول لأقبل أديل . وكان يودي أن أمضي في  
طريق دون توقف — عندما مررت بمجرة مسر روشنر — ولكن قلبي  
كف عن النبض لحظة عندما بلغت عتبة بابها . كما صمرت قلماي في  
مكانيهما .. لم يكن التوم يعبر تلك الغرفة ، إذ كان ساكنها يترعها في  
فلق وانفعال ، من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر . وهو يقف بين  
آونة وأخرى . وأرهقت السمع .. كانت هذه الغرفة خليقة بأن تغلو  
جنتي لفترة من الزمان إذا شئت .. كل ما كان عليّ . هو أن ألبها وأقول :  
« لسوف أحبك يا مسر روشنر » . وسوف أحبا معك حتى المات ! ..  
ثم يفيض على شفقي الفرح : « هكذا خيل لي ! »

لقد كان هذا السيد الرحيم — الذي لم يقو على النوم — ينظر مطلع  
النهار بصبر نافذ ، كمن يرسل في طلي إذا ما أقبل الصباح . ولكنني سأكون

قد رجعت .. ولسوف يبحث عني سادي . ثم بشعر بأني هجرته ولبدت  
حيه ، فتمتدب ويتملكه اليأس .. فكرت في هذا كله أيضاً ، ثم امتدت  
بدي إلى قفل باب السلم ففتحته ، ثم تسالت .. وهبطت الدرج في اكتئاب .  
وكنت أدرك ما ينبغي عمله ، ومن ثم رحت أنصرف بطريقة آلية ، فيبحث  
عن مفتاح الباب الخلفي في المطبخ ، كما بحثت عن قارورة زيت وورشة  
فذهبت المفتاح والقفل بالزيت . وتناولت بعض الماء والخير خشية أن  
يطول في المسير وتغادياً تلور القوي الذي أصبح يتأني كثيراً في الفترة  
الآنخيرة . ثم فتحت الباب وخرجت وأغلقت خلفي . ولاحظت إذ ذاك  
نائبير الفجر معتمة في الفضاء . وكانت الأبواب الخارجية مغلقة بالمخارج ،  
ولكن كوة في أحدها كانت موحدة بالترلاج فقط ، فقتلت خلافاً ،  
ثم أغلقتها خلفي هي الأخرى .. وغدوت خارج ( نورفيلد ) !

وكان ثمة طريق — على بعد ميل من الحقول — يمتد في الاتجاه المضاد  
للكوت .. طريق لم أكن قد سلكته من قبل ، ولكنني شاهدته مراراً  
دون أن أعرف إلى أين كان يقضي . فيمعت شعره ، وانطلقت فيه ،  
لا أنظر إلى ما خلفي ولا إلى ما أمامي ، ولا أتجه نحو أطرى نحو الماضي  
ولا نحو المستقبل : فقد تان الأول صفحة سايورة البهاء ولكنها محفوفة  
بالآسى . يمكن أن أطلع سطرأ واحداً من معلومها لتفويب شجاعتي  
وتأثر عزيمتي .. ولأن الثاني كان صفحة مروعة أشبه بالدنيا التي أغرقها  
الطوفان وأزاحها من الوجود !

وسرت في عبادة الحقول وأسوار المزارع والطرق الضيقة إلى  
ما بعد طلوع الشمس . وأغلب الظن أنه كان صباحاً جميلاً من أيام الصيف

وكنت أدرك أن البدي لي يابث أن يبلل حذامى المذنبين ليهنهما عندما غادرت القصر .. ولم أتطلع إلى الشمس المشرقة أو إلى السماء الباسمة أو إلى الطبيعة المتبقطة ، فإن من يقاد إلى القفص عبر منظر جبل لا يفكر في الزهور التي تبهت في طريقه ، وإنما يتركز تفكيره في النطق وحافة البقعة وتزيق العظام والشرابين وفي القهر الذي يستقبله في النهاية .. وكذلك كنت أنا الأخرى أفكر في هروبى إلى الغنى ، وفيما كنت مقبلة عليه من تشرد .. كما فكرت فيه .. في مستر روشستر ! .. وتصورته في عرقته يرقب مطلع الشمس ويطلع النفس بالآمال ، متوقفاً أن أعود إليه لأخبره بأنني سوف أحييا معه وأكون له .. أه ، كم كنت أثقيل على أن أكون له .. وأحرق على أن أعود إليه ! .. إن القرصة لم تكن قد ضاعت بعد وكان في وسعي أن أكتفيه مرارة الحزن والمرقة ! .. وإذا كنت واقفة من أن أحداً لم يفعل لي قرارى ، فقد كان من اليسر أن أرتد لأكون له الأنيسة ، ولأكون المرأة التي يفخر بها ، ولأنفذه من اليأس والشقاء ، وربما من الهلاك !

وكان هجرة نفسه أثبتني من هجرى له ، فكيف أغرتني نفسي بذلك الذي إذا فكرت فيه شعرت بهمهم شالك في صلابى يترق فجي كلما حاولت التزاعه ، ويزيدني ضعفاً ومرصاً كلما سافته الذكريات إلى أبعاد من ذلك .. وكانت الطيور قد بدأت تغرد على الأيكات والأجاص ، فخبيل إلى أنها علفية ، كل ألف لأليفه ، بل إنها وموز الحب .. أما أنا فإذا كنت ٧ .. لقد أبغضت نفسي وسط الآلام التي كانت تحسح قلبى ، والمبادئ والقل التي كنت أجاهد من أجلها .. لم يكن ثمة

عزاه لي بعد أن جرحيت سیدی وأذنته ثم هجرته .. بل إننى غادوت بغضة في عيني نفسي ! ولكن لم أكن أقوى على الكوص والرجوع إلى الخلف خطوة واحدة ، بل كان لابد من أن أسير قدماً في الطريق الذي رسمه لي الله .. أما إرادتى وضغيري فإن الطول الدافق داس الأول وكبت الثاني .. ثم أخذت دموعى تنهم بشدة وأنا أسير في الطريق المحسلى بسرعة مطردة كمن اختل عثله أو مصبا الذهون .. إلى أن غشيتى ضعف لم يلبث أن امتد إلى أمدافى واستبدني فحطمت .. وظللت مستلقية على الأرض بضع دقائق وأنا أضغط وجهي في الخشائل المبللة ، وفي خشية أو رغبة في الموت في ذلك المكان ، ولكني لم ألبث أن نهضت وزحفت على يدي وركبتي ، ثم استويت على قدمي وقد عزمت في إصرار أن أصل إلى الطريق الذي كنت أجاز الحقل سعياً إليه .

وعندما بلغته ، اضطررت إلى الجفوس لأستريح تحت سياج نباتي ، على أنني لم ألبث أن سمعت وقع عجلات ، ثم رأيت عربته قادمة ، فوقفت ورفعت يدي فتوقفت العربته عن السير ، وسألت إلى أين هي ذاهبة ؟ فلذكر في الحوذى مكاناً بعيداً حدثت أن ليس أستر روشستر علاقة به . وإذا سألت الحوذى عن الأجر الذي يريد ليغتنى إلى هناك ، قال إنه ثلاثون شلماً .. فقلت إنني لم أكن أملك سوى عشرين شلماً ، وإذا ذلك قال إنه يكفى بها ، وسمح لي بدخول العربته التي كانت شالية . ثم أغلق بابها ، ومضى في طريقه .

أيها القارئ ، ادع الله أن عيناك ما كنت أشعر به ، وأن لا تدرى عيناك قط ما خرفت عيناى من دموع مدرارة ، لأذعة تعصر القلب ،

وأن لا تلجأ إليه سبحانه في صلواتك وأنت تعانى ما كنت أعانى إذ ذاك من يأس، وأن لا تكون مثل أداة تقسمه بشر إن نجح بكل روحك !

### الفصل الثامن والعشرون

● انقضى يومان ، وحلت أمسية من قديمات الضيف .. وكان المودى قد أتوا في مكان بدسى ( جويكر ومن ) . لأنه لم يشأ أن يقضى بالمبلغ الذى دفعه إلى أبعد من ذلك ، ولم يكن أمتهلك من دنياى شيئاً واحداً فوق ذلك المبلغ .. وكانت العربة قد ابتعدت ميلاً وخلفتى وحيدة ، عندما اكتشفت أنني نسيت أن أتناول من جيب العربة الحزمة التى أودعتها كل حالى . والى كنت قد وضعتها فى الجيب بقية الاطمئنان على سلامتها .. لقد بقيت حيث أودعتها ، وكان لابد من أن تبقى لأصبح معلنة بحيرة من كل شيء !

وليس ( جويكر ومن ) بمدينة ، بل ولا حتى بقرية . وإنما هى مجرد عمود حجري أقيم عند ملتقى أربع طرق ، وقد ظل بالثوب الأبيض يبدو بوضوح على بعد ، وفى الظلام . على ما أعتقد ! .. وتند من قبة العمود أربع أفروع تشير إلى أقرب المواقع على الطرق الأربع .. وكانت أقرب بلدة تشير إليها — كما هيئت لما كتب عليها — تبعد بحوالى عشرة أميال ، فى حين أن أبعد ما كانت على بعد يزيد على عشرين ميلاً . ومن أسماء هذه المدن .. وكانت مشهورة — عرفت المقاطعة التى هيئتها . وكانت من مقاطعات الشمال الأوسط . تسود أراضيها المستنقعات ، ويقوم على حافتها جبل كان من الصعب أن أراه .. وكانت المستنقعات الواسعة تمتد من شاطئ وعلى جانبي :: أما ليا أماى ، فقد كان نمة واد متخفص ،

بدت خلفه سلسلة من الجبال . . . ولابد أن سكان الإقليم كانوا قلقاً ، فلم يلبس أى عابر فى الطريق التى كانت تمتد .. شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً — يمشى ، واسعة ، مقفرة ، وقد شقت بعيداً وسط المستنقعات . وتمت الأعشاب وأعواد القصب كثيفة ، طويلة ، على جانبيها .

ومع ذلك فقد كان من المحتمل أن تسوق المصادفة غابر سيل ، ولم تكن فى رغبة فى أن ترائى عين . خشية أن يعجب الآخرين بما حدثا فى لى التسكع هكذا عند دليل الطرقات بلا هدف أو غرض . وقد بسألتى أحد فلا أستطيع أن أجيب إلا بانضراب بلير الرب والشكوك ، بعد أن أصبحت ولائى . يربطنى بالضياع الإنسانى . . إذ لم بعد قسمة صر أو رجاء يدهنى إلى حيث يقم البلير . وما كان من المحتمل أن تساور أى امرئ يرائى فكرة كريمة أو شعور يبعثه يرجو لى خيراً . وإذا لم يكن لى من أهل سوى الطبيعة — أم تكون — فقد عولت على أن ألتجأ إلى صدرها أتشد قوته الراحة !

وزحنت أشرب فى تلك الأجوات ( الأراضي المستنقعات ) . ثم يمست شطر حجرة وأنها تشق جانباً دكاً . ومضيت أعوض حتى ركنتى فى جثائنها المملكة ، وأدور مع متعرجاتها ، حتى عثرت فى ركن غنى على صخرة شائعة من الجرانيت بعلوها طحلب أسود . فجلست لتعذب ومن حولى أجسام عالية ، بينما كانت الصخرة تحمى رأسى . والسياء من فوقها . وانقضت فترة قبل أن أشعر بانحداء حتى فى ذلك المكان . فقد كان يساورنى خوف غامض من أن تكون إلى جوارى داية بوية . أو أن يكتشف وجودى صياد .. وكنت أرفع رأسى كلما هبت الريح ،



إذا أُنْعِمَ هَيَوبَهَا ثَوْرًا مَدْفَعًا لَحْوِي ، وَكَلَّا صَاحَ طَالُو تَوَهْمَتِهِ وَجِلَاءَ حَتَّى إِذَا أَقْبَتَ أَنْ عَالَمِي لَا أَسَاسَ لَهَا ، وَحَتَّى إِذَا هَدَأَ جَائِشِي بِفَضْلِ السَّكُونِ الْعَيْنِي الَّذِي سَادَ عِنْدَهَا أَمْلُ الدَّيْلِ فِي الْغِيُوطِ ، اطْمَأَنَّتَ نَفْسِي . وَكُنْتُ إِلَى تِلْكَ الْحَفْظَةِ لَا أَفْكَرُ فِي شَيْءٍ . وَإِنَّمَا أَكْفَيْتُ بِأَنْ أَصْغَى وَأَرْقُبَ وَالْخَوْفَ يَسْأَلُونِي . أَمَا عِنْدَمَا اطْمَأَنَّتُ فَقَدْ عَاوَدَنِي الْقُدْرَةُ عَلَى التَّضَكُّيرِ وَالْقَامِلُ قَسَامَةً : مَا الْعَيْلُ ؟ وَإِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ ؟

أَوَاهُ . . . مَا كَانَ أَقْسَى حَلِيمٍ السَّوَالَيْنِ . فِي وَقْتٍ لَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ فِيهِ أَنْ أَجْعَلَ شَيْئًا تَوَاضَعُ إِلَى مَكَانٍ مَا . . . فِي وَقْتٍ كَانَ لِأَبَدِي فِيهِ مِنْ أَنْ أَقْطَعَ مَسَافَةَ مَلَوْنَةٍ عَلَى قَدَمِي الْكَالِفَيْنِ الْمُرْتَعَشَيْنِ قَبْلَ أَنْ أَصِلَ إِلَى مَكَانٍ أَجْلُ الْبَشَرِ . . . فِي وَقْتٍ كَانَ يَجِبُ أَنْ أَضْرَعَ فِيهِ وَالْخَفَ فِي طَلَبِ الْإِحْسَانِ حَتَّى أَحْطَى بِمَا أَوْي . لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ شَيْءٍ فِي أَنْفِي سَالِحًا إِلَى الْفَاجِئَةِ وَالْإِحْجَاجِ لَا تَقْصَابُ عَطْفَ الْمُسْتَرْبِئِينَ بَلْ أَنْ تُعَدَّ قِصَّتِي مِنْ رِشْمِ عَالَمِي ، وَقَبْلَ أَنْ تُلْقَى حَاجَتِي مِنْ خَفِّ لِقَاضِيهَا !



● وَتَحَسَّسْتُ اخْتِلَافَ تَوْجِدَتِهَا حَيَاةً وَلَكِنِّي دَائِمَةً يَهْوَاؤُهُ الصَّيْفُ : وَتَقَلَّلْتُ إِلَى السَّيَاءِ فَوَجَدْتُهَا صَانِعَةً الْأَدِيمِ وَقَدْ أَرَمَ نَجْمُ حَانَ فَوْقَ حَافَةِ الْمَرَّةِ ، وَتَسَاقَطَتِ النَّدَى فِي نَعْمَةٍ لَطِيفَةٍ . . . وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ نَسْمَةٌ وَاحِدَةً ، فَجَبَلْتُ إِلَى أَنْ الْقَلْبِيَّةَ رَحِيمَةً طَلِيَّةَ الْقَلْبِ ، وَحَسْبِيَ قَدْ أَشْفَقْتُ عَلَى ، لَأَنِّي تَحَنَّنْتُ وَتَهَوَّنْتُ . أَنَا الْمُنْبُوذَةُ الْمَشْرُودَةُ حَتَّى لَا تُتَوَقَّعَ مِنَ الْإِنْسَانِ سِوَى الشُّكِّ وَالْهَيْبَةِ وَالْإِهَانَةِ . تَقَلَّعْتُ بِالطَّبِيعَةِ نَعْنَاعَ الْغُلْفَةِ بِأَمْرٍ إِلَى الرُّومِ ، وَعَوَّلْتُ عَلَى أَنْ أَتَزَلَّ عَلَيْهَا ضَيْفَةً فِي هَذِهِ الدَّيْلَةِ عَلَى الْأَقْلَى ، كَمَا لَوْ كُنْتُ

أَبْقَاهُ . . . فَإِنَّ الْأَمَّ خَلِيقَةٌ بَأْنَ تُرْجَبُ بِأَبْنَاهَا . . . وَمَنْ تَمَّ فَلَنْ تَطَالُبَنِي بِأَجْرِ الْإِبْرَاءِ . . . وَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَبَقَّى مَعِيَ سِوَى الْكِسْرَةِ مِنَ الْخَيْرِ . . . فَضْلَةٌ مِنْ رَغِيفٍ كُنْتُ قَدْ اشْتَرَيْتُهُ مِنْ مَدِينَةٍ مَرَرْتُ بِهَا فِي الظُّهْرِ بِأَخِي بَنِي كَانَ مَعِيَ ؛ وَلَكِنِّي شَاهَدْتُ ثَمْرًا نَاضِجًا كَالْكُرْزِ . يَنْشَبِعُ هُنَا وَهَنًا خِلَالَ الْأَجَامِ كَأَنَّهُ حَيَاتُ الْمَسَاحِ ، فَجُمِعْتُ مَعَهُ حَفْنَةً أَكَلْتُهَا بِالْخَيْرِ . وَبِذَلِكَ خَفْتُ حِدَّةَ جُوعِي وَإِنْ لَمْ يَتِمَّ لِشَبَاعِهِ . ثُمَّ أَذَيْتُ صَلَاةَ الْمَاءِ . وَأَخَذْتُ أَبْحَثُ عَنْ مَكَانٍ آخَرَ أَرْقُدُ فِيهِ . . . وَكَانَتْ الْأَعْشَابُ كَثِيفَةً بِغَانِبِ الْأَخْضَرَةِ فَخَدَقْتُ فِيهَا قَدَمِي عِثْلَةً وَقَدْتُ . وَحَالَ ارْتِفَاعُ عَيْنَانِي عَلَى الْجَالِيَيْنِ دُونَ أَنْ يَفْزَوْنِي هَوَاهُ اللَّيْلِ ، ثُمَّ أَلْقَيْتُ شَيْئًا مَرْدُودًا عَلَى جَنْبِي وَخَذْتُ مِنْهُ خَطَا ، كَمَا جَعْتُ بَعْضَ الْعُشْبِ فَمُوسَدَتِهِ . وَهَكَذَا رَقَدْتُ دُونَ أَنْ أَسْعُرَ فِي الْبِدَايَةِ . عَلَى الْأَقْلَى . بِأَيِّ بَرْدٍ !

وَكَانَ مِنَ الْمُسْكَنِ أَنْ تَكُونَ رَاحَتِي تَامَةً نَاعِمَةً ، لَوْ لَا أَنَّ الْأَلَامَ كَانَتْ نَهْرًا قَابِلِي الدَّامِي الشَّيْ خَلَّ بِشَفْطِ الْإِسْفَاقِ عَلَى مِيَادِي وَعَلَى مَا أَصَابَهُ مِنْ مَضْيَرٍ ، وَيَتَحَسَّبُ مِنْ أَجَلِهِ فِي رُحَةِ نَوْرَاءَ . وَيَتَلَهَّفُ عَلَيْهِ مِثْلَ طَالِيزٍ مَكْسُورِ الْيَنْتَاجِ يَحَاوِلُ عِيْدًا أَنْ يَهْدِيَ إِلَى عِشِهِ . وَإِذَا مَضَيْتُي هَلَهُ الْأَفْكَارُ الْمُضْطَلَّةُ ، جَثَوْتُ عَلَى رِجْلَيْي وَقَدْ يَلُغُ اللَّيْلُ صَفَوَانَهُ وَلَوْ تَلَعْتُ الْكُرَاكِبَ فِي كَيْدِ السَّيَاءِ . . . كَانَتْ الدَّيْلَةُ تَمَازُ بِسَكُونٍ سَاجٍ ، صَافٍ ، لَا يَجْهَلُ مَعَهُ نَحْوُفٍ . . . وَنَحْنُ نَطْمُ أَنْ نَلْزُقَ كُلَّ مَكَانٍ ، وَلَكِنْ وَجُودُهُ . . . سَبَحَانَهُ . . . يَجْعَلِي عَلَى صُورَةِ أُمِّ عِنْدَمَا تَهْدِي أَبْنَاءَهُ الْجَلِيلَةَ لِأَعْيُنِنَا . . . وَفِي تِلْكَ الدَّيْلَةِ الصَّخْرَةِ ، الَّتِي كَانَتْ عَجَلَةُ الْكُونِ تَوَاصِلُ فِيهَا دَوْرَانَهَا فِي صَحْتٍ هَادئةٍ ، تَجَاوَزَتْ لِي لِأَنِّي أَنَا اللَّهُ سَبَحَانَهُ ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ ، وَوَجُودُهُ فِي

كل مكان . ومن ثم رحلت أنسل من أنسل مستر روشستر وأنا بجانية على  
وكيتي . ورفعت عيني المنعرجتين بالدموع . فرأيت البياض المضيء  
المتألق الذي يسيه الفلكيون ( النجدة ) . وإذا تذكرت أوصاله وعدد  
الأجرام التي تشق الفضاء في وميض خافت . أبقت عظمة الله وقدرته  
على حفظ مخلوقاته . وإذا دأبت اعتصمي بأن لأهلك لأأرضي . ولا أروح  
من الأرواح التي تعمرها . إلا لأزادته سبحانه . ومن ثم حولت صلاتي  
إلى شكره .. فإن منبع الحياة نحو أيضاً غلص الأرواح وبمقلها ..  
وأوجت في هذه الفكرة بطلانية إلى أن مستر روشستر كان في أمان .  
لأنه من مخلوقات الله . فلا بد من أن يخرسه الله .

وعند أرقه في حضن الصخرة . فما ليث التزم أن أنبأني هوى  
وأحزاني . ولكن العوز والحاجة والسبعة عاونني في اليوم التالي .. وكانت  
العضايف قد غادرت أعشاشها . وخرج النحل يسمى في صدر النهار  
الديع ليجمع الرحيق قل أن يغيب الندى . والصبح قد جمع غلاله فلأ  
ضياء الشمس الأرض والسما . عندما تهبط . ورحت أنامل ما حوت ..  
وكم كان اليوم دافئاً بديعاً ! .. وما كان أجل الأجسام المتأتمية . إذ  
بدت — تحت الشمس السابعة — كصعراء ذهبية . فلهت نفسي إلى  
العيش فيها وعالها .. ورايت حلبة تعري على صخرة . ونحلة منهكة بين  
الكروم اللذيذة . فتميتت لو كنت حلبة أو نحلة لأضمن الغذاء الطيب  
والماوى الدائم في ذلك المكان ! .. وكنتي كنت من البشر . وى حاجة  
البشر ومطالبهم . ومن ثم لم يكن من سبيل إلى أن يفلول مكثي في مكان  
لاقتضاء فيه ثلاث الحاجات والمطالب . ونظرت خلفي إلى الفراش الذي

لخافوته .. وكنت بالثمة من المستقبل . فتميتت لو أن الله كان قد اسفل  
حياتي أثناء نومي فخلص جسدي الفضي . الواهن . من الصراع الذي  
كان يرتقبه مع القدر . وتركه يتحلل في مكينة وينزج في سلام بقربة  
هذه الفلاة . ولكن الحياة كانت تدب في كيانى بمطالبها وآلامها ونهباتها .  
فلم يكن بد من أن أتقي تلك المطالب . وأحتمل تلك الآلام . وأؤدى  
تلك التبعات .. ومن ثم سررت في طريقى . فبلغت ( هويتكروس ) ..  
وواصلت السير في الطريق الممتدة نحو الشمس المشرقة . الحامية . التي  
كانت تبرع السماء . وسررت طويلاً على غير هدى حتى إذا حبستى قد  
قطعت ماقية الكفابة . ونال مني التعب وأمضى . آثرت أن أسترى .  
فجلست على حجر رأيت على مقربة . ورضخت بلا مقاومة إلى الجمود  
الذي أربك قلبي وغل أطرافي . وإذا بي أسمع جرساً يدق .. جرس  
كنيسة !

واستدوت إلى ناحية الصوت . فإذا بين التلال الزائغة — التي  
كففت عن ملاحظة صورها ومشاهدها المتعددة منذ ساعة — كوخ  
ومنازة تشبه المسلة . وإلى يميني . كان الوادى كله مليئاً بالمرعى وحقول  
القمح والغابات . وقد اتسب مجرى مؤلفي متعرج خلال ظلال هذه  
الحضرة المباحة في ضياء الشمس . وذكرني ضجيج عجلات بالطريق  
الذي أمامي . فشهدت عربة قطار مثقلة تصعد التل في جهد شديد . وعلى  
مقربة منها . رأيت بقرتين وراعيهما . فأدركت أنني قريبة من الحياة  
البشرية والعمل البشرى . وأني يجب أن أناضل وأكافح في سبيل العيش  
كغيري من البشر !

• ودخلت الغرفة حوالي الساعة الثانية بعد الظهر . رأيت في نهاية شارعها الوحيد حائوتا صغيرا عرض في واجهته بعض الخبز . فخرقت شوقا إلى رغيف منه أستعيد به بعض نشاطي وقوتي . فقد بات من الصلوة أن أمضي في سبيل دون قوت . وعاهدني الرغبة في قسط من القوة والحياة بمجرد أن وجدني بين مخلوقات بشرية مثلي . ورأيت أن من المهانة أن يقضى علي وأنا في طريق إلى الكوخ . ولو أنني كنت أملك شيئا لما ترددت في أن آخذ منه رغيفا من هذه الأربعة . وكان معي متديلا من الجوع . ألفه حول عني : ثم ففازي : ولم آكن أفري ماذا يصنع الناس في وقت انقضاء العوز ، وأي طين الشبين بقبلهما صاحب الخائوت . بل لعله يرفض الاثنين . ولكني قررت أن أجرب في النهاية . ومن ثم دخلت الخائوت فوجدت به امرأة طفلي . لياني . إنسانا عذرية . فقدمت تستقبلي بخفاوة . واستبد في الحجل . وانعقد لساني فلم أستطع النطق بما أعدهته من رجا . ولم أجري على أن أقدم لها القفاز الباني أو المتديل المتعفن حتى لا تستغني . فاستظيت بأن رجوتها أن تأخذني في باجلوس لحظة لأتخلف من تعب . وإذا خاب أملها في أن أحتاج منها شيئا . فقلت طلي بيروود وأشارت إلى مقعد بعت فيه . وكنت أهيكي لو لا أنني استكرت هذه الظاهرة في غير أوانها . فحبست دموعي . وما لبثت أن سألتها عما إذا كان في القرية حائكة أو امرأة تشغل بالطعير . فقالت :

نعم . توجد الثنائ أو ثلاث ، هن كل ما تتطلبه الحاجة !

وفكرت هنية . كنت مسوقة إلى عمل . فقد وجدني أمام الحاجة

وجها لوجه . وأصبحت في موقف من لا مورد لها ولا صديق ولا قوة . ! كان لابد لي من أن أعمل . ولكن . أي عمل . ؟ يجب أن أبحث . ولكن . أين . ؟ . وسألت السيدة :

— هل تعرفن مكانا قريبا يحتاجون فيه إلى خادمة ؟

— كلا . لا أستطيع الجزم .

— ما هي أهم المهن في هذا المكان . ؟ ماذا يعمل معظم الناس ؟

— بعضهم مزارعون . وكثير يعملون في مصنع مستر أوليفر

الإنتاج الإبر . وفي المسبك .

— وهل يستخدم مستر أوليفر نساء ؟

— كلا . إنه يستخدم الرجال .

— وبماذا تشغل النساء ؟

— وأجابت بأنها لم تكن تدري . وبدأ أنها تستعد أسفل . وأي

حق كان لي في الواقع . في هذا الإحلاف . ؟ وما لبث أن أقبل

رجل أو اثنتان من الجيران . فأصبح مقعدي مطوية . ومن ثم استأنفت

في الانصراف . وسرت في الطريق أنظر عنة ويسرة إلى المنازل . ولكني

لم أستطع أن أكتشف حجة أو سقا يقول في دخول منزل منها . فواصلت

السبر ألتكاف حول القرية . أيتها . عنها قليلا لأعود إليها . وهكذا . نحو

ساعة أو أكثر . حتى تال مني الإرهاق وأمضيت الجوع . فاجهت إلى

حارة جاذبية . وجلست تحت سياج من النباتات . وقبل أن تنقضي بضع

دقائق . انصبت على قدم مرة أخرى . لا أبحث عن شيء . عن معين

أو على الأمل عن يرشني إلى من يعطيني . ! . ورأيت في طرف الحارة



منزلاً صغيراً جيلاً ، أمامه حديقة نظيفة مزهرة ، ففتحت ووقفت عنده  
أنساءل : « ما الذى يبيع لى أن أقرب من باب الأبيض وأمس مفيضه  
اللامع ؟ » وكيف يتلقى مكانه مقدى ؟ .. وبرغم ذلك اقتربت وطرقت  
الباب ، ففتحت شابة مليحة الوجه والمندام . وسألها بصوت يبعث من  
قلب يائس وجسم أنهكه الآلام حتى كاد يغشى عليه : « هل تريدون  
خادمة ؟ » فأجابت : « كلا .. لسنا نحتاج خادم . »

.. هل يوسعك أن ترشدنى إلى مكان أجد فيه عملاً ؟ .. لئنى غريبة  
بلا معارف هنا ، ولى حاجة إلى أى عمل .

ولكنها لم تكن ميالة إلى أن تفكر من أجل أو تبحث لى عن مكان .  
وكان من الطبع أن تبدو لها شخصيتى ووضعى عوطين بالشك . لذلك  
هزت رأسها معربة عن أسفها لأنها لا تملك أن تعنى بمعلومات فى هذا  
العهد . ثم أغلقت الباب الأبيض فى رفق بانغ وتأدب ، فكأنما أغلقت  
بذلك باب الدنيا فى عيني .. ولو أنها أفتت الباب مفتوحاً ليضع لمخاطات  
أخرى ، لاستجدتها كسرة من الخبز ، إذ كانت كبرياتى قد تهاوت  
من عليانها ! .. ولم أكن أظن أن أعود إلى القرية الجاحدة ، حيث لم  
يلج لى رجاء فى مساعدة ، فافترت أن ألقى إلى غابة غير بعيدة ، جديتى  
إليها ظنّها الوارف . وتكنى كنت غاية فى الضعف والوهن ، كما أن  
غريزى كانت تردى لى التجوال حول البشة المعمورة ، حيث يتسلل  
أن تسح فرصة الحصول على طعام ، فما كان ليلاً لى بأن أو يفر لى  
قرار مادام الجوع — ذلك السر الكائن — يقرص مفاواه وبخاليه فى  
أحشائى ! .. لذلك اقتربت من المسكين ، ثم باعدت بينى وبينها ، لأرتد



وسألها بصوت يبعث من قلب يائس وجسم أنهكه الآلام  
حتى كاد يغشى عليه : « هل تريدون خادمة ؟ »

إليها مرة أخرى ، ثم همت على وجهي مبعدة ، وفي أعماق شعور ياتهرق  
قائلاً : لا حتى لي في أن أحالب بشيء ، أو أتوقع أنني ليشاق في هذه  
المنطقة المنعزلة . وكان المساء يقرب - في تلك الأثناء - وأنا أقيم ككتاب  
خال برح به الجوع . وفيها كنت أجتاز أحد الحفول ، شاهدت برج  
كتيبة أماني ، فأمرعت نحوه . ووجدت بالقرب من قناء الكنيسة  
- ووسط حديقة - منزلاً صغيراً ولكنه حسن البناء ، فأدركت أنه  
مسكن النفس . وتذكرت أن الأشراف الذين يخلون في مكان لا معارف  
في فيه ليشتدوا عملاً . يالجأون أحياناً إلى النفس ليوصي بهم ويساعدهم .  
ولقد كانت مهمة النفس أن يساعد - ولو بالتصيح - فقد رأيت من حق  
أن أشهد هذا التصيح ، ومن ثم استجذبت شتات فوائ الخاتمة ، وسعيت  
إلى المنزل فطوقت باب مطبخه .. ولحقت الباب امرأة عجوز سالماً  
عما إذا كان ذلك بيت النفس ، فقالت : نعم .

- وهل النفس هنا ؟

ولقد أجابت بالنفي . عدت أسألها : « وهل سيعود قريباً ؟ »  
فقالت : « كلا ، لقد رحل » ، فسألها : « إلى أي بعيد ؟ » .

- ليس بعيداً جداً .. لعله على مسيرة أميال ثلاثة ، فقد استعديت  
لوفاة والده في ( مارش أند ) ، حيث يمتلئ أن يبنى أسبوعين آخرين .  
- هل توجد ربة لذيت ؟

- كلا . لا يوجد غيري .. مدبرة المنزل .

ولم أعلق - أيها القارئ - أن أسأفاً أن تنشأني من الضيق الذي  
كنت غارقة في لجته ، ولم أسأ أن استجدي ، فعدت أرحف من حيث

أثبت ، وأخرجت مندبلي من جديد .. ومرة أخرى فكرت في أروعة  
المعز في ذلك الحانوت الصغير .. أه ، أتى لي ولو بعض الفئات ! ..  
ولو بلقمة تهللني من آلام هذا الجوع . ولم ألبث أن همت بغريزي  
شطر القرية ، حيث وجدت الحانوت مرة أخرى قد دخلت ، ووجدت  
أشخاصاً مع المرأة ، ولكنني تحيرت وتوسلت إليها قائلة : « هل تعطيني  
رغيفاً في مقابل هذا المندبل ؟ »

فتطرت لي في شك ياد ، ثم قالت : « كلا فست أشتري الألباء  
بهذه الطريقة قط . » . وكادت أياض : فطلبت منها نصف رغيف ،  
ولكنها رفضت مرة أخرى قائلة : « كيف لي أن أعلم من أين حصلت  
على هذا المندبل ؟ » . فسألها ضارعة : « هل تأخذين قفازي ؟ » ،  
ولكنها قالت : « كلا . ماذا أصنع بهما ؟ » .

وليس من دواعي السرور - أيها القارئ - أن أورد هذه التفاصيل  
وفقد يرى بعض الناس أن هناك متعة في ذكر المحن المؤلمة التي تخطت ،  
ولكنني لا أشعل اليوم أن أشهد ذكرى الأوقات التي ألمح إليها ،  
فإن ما فيها من هوان يمتزج بالعناء الجهاني فتتألف منهما ذكريات أليمة  
لا أحب التفكير فيها . ولم أتح باللائحة على أحد من هؤلاء الذين نهروني  
بل خيل لي أن هذا هو عين ما كان يجب أن أتوقع دون أن يكون لي  
في الأمر حيلة ، فإن المسول العادي يكون دوماً عرضة للشكوك مهما  
يكن هذا كله حسناً ، والواقع أنني لم أكن أسأل إحساناً ، وإنما كنت  
أشدد عملاً . ولكن .. من الذي يعني بأن يقدم لي عملاً ؟ .. ما كان لي  
- بطبيعة الأمر - أن أرجو ذلك ممن كانوا يروني لأول مرة ، فليسوا

يعرفون عن أخلاقي شيئاً . ولقد كانت المرأة على حق في رفضها أنه  
تقبل مندلي في مقابل خبزها . قريماً رايها لمري : أو لعلها رأت  
المشايقة غير مريحة .. ومن ثم أوجز الآن في الحديث لأنني ستمت  
الموضوع .



● وقيل الغروب ، مزرت بمزلة في مزرعة ، وقد جلس في باب  
المفتوح فلاح يتناول عشاء من الخبز والجبن . فتوقفت أمامه وقلت :  
« هل لك أن تعطيني كسرة من الخبز لأنني جائعة جداً ؟ » .. فرمى  
الرجل في دهشة . ولكنه قطع شريحة كبيرة من رغيفه أعطاها دون  
أن يتعلق بحرف . وأغلب الظن أنه لم يتصورني مسؤولة . وإنما حسيت  
سيده غريبة الأطوار : استهواه ورغيفه الأخضر .. وما أن ابتعدت عن  
متره ، حتى جلست ألتهم الشريحة .

ولم يكن يساورني أي رجاء في الحصول على مأوى تحت أحد  
السقوف ، فالتجأت إلى العتبة التي أشرت إليها من قبل ، ولكن لم يكن  
كانت شفاء ، وراجعت لم تصفر ، إذ كانت الأرض مبللة والسماء  
بارداً . فصار من مرور المتطفلين في أكثر من مرة ، مما كان يضطرني  
إلى تغيير موقفي دون أن يلازمني شعور بالسلامة والطمأنينة . وأدبرت  
السما قبيل الصباح . واستمر المطر يهطل طوال تيار الليل . ولا تسألني  
أيتها القارئ أن أسرد عليك تفاصيل ذلك اليوم بدقة ، فقد بحثت عن  
عمل كما حدث في اليوم الذي سبقه ، وقويت بالبقاء والنفور من  
جديد . حتى أشرفت على الموت جوعاً . إذ أنني لم أذق طعاماً في

ذلك اليوم إلا مرة واحدة . فقد مرت بفتاة عند باب كوخ ، ثم  
بالتقاء بقية من تريد باردة أمام عتير فساتنها : « هل لك أن تعطيني  
هذا ؟ » .. فحفظت في وجهي وضاحت : « أمه ! توجد امرأة تريد  
أن أعطيها هذا الثريد ! » .. فأجابها صوت من الداخل : « حسناً  
يا صبية .. أعطيها إياه إذا كانت مسؤولة ، لأن الخنزير لا يريد » .  
ومن ثم أقرعت الفتاة ذلك الضئ الضئ في راحتي ، فصرخات  
ما التهمت في ثم .

وعندما اعتكر ضياء القسي ، توقفت عن السير في طريق راكبي  
الحبل معول ، كنت أتعبه منذ أكثر من ساعة ، ثم قلت أناجي  
نفسى : « إن قواي تتخلل عني ، وأشعر بأن ليس في وسعي المضي  
إلى أبعد من ذلك ، فهل سأزيد هذه الليلة أيضاً ؟ » .. وهل لابد من أن  
أتمسك الأرض الباردة المبللة ، بينما تنهمر الأمطار بهذا الشكل ؟ ..  
ما أرى أمامي سوى هذا ، إذ من يقبل ليواني ؟ .. ولكنه أمر مروع  
نظراً للجموع وضعت وبرودتي وعزائي ، وهذا الأمل المتقوض ، فليس  
بمستبعد أن ألقظ آخر أنفاسي قبل أن يطلع الصباح .. ولكن لماذا  
لا أوطن النفس على الموت ؟ . ولماذا أناضل للاحتفاظ بحياتي القليلة؟  
الواقع أنني كنت أشعر — بل أوقن — بأن مستر روشستر حي يرزق ،  
وإذن فالموت من الإملاق والبرد مضمير لا تغيله الطبيعة باستكانة  
واستسلام . أواه : أيتها العتبة الإهنية أمديني بقوتك .. عاونيني  
واهدئين سواء السبيل !

وراحت عيناي المالحتان تجسبان في أنحاء الأرض المعتمة التي



تعلوها الصحب ، ووجدتني قد تأثت عن القوية بحيث غابت عني معاليها ، ولم يعد بيني وبين التل غير بضعة حقول قليلة ، فأثرت الموت هناك على الموت في شارع تطرفه المسارة .. بل أثرت أن تنبش الغربان لحصى .. إذا وجدت غربان في تلك الأنحاء .. على أن أجهن في كفن وأدفن في مقابر القسولين !

وما ليث أن يمست شطر التل حتى باغتته ، وبني فقط أن أبحث عن حفرة أرفد فيها وأشعر بأنني عتيقة فيها عن الأنظار ، إن لم أكن في أمن وسلام . ولكن الأرض كلها كانت مستوية ، ولا تختلف بقاعها إلا في اللون ، فهي خضراء .. بسبب الطحلب والحشائش النامية .. في البطاح والمنخفضات ، أو سوداء حيث لا تحمل التربة الجافة سوى الجندب والموت . واشتدعت الظلمة شيئا فشيئا ، ولكنني كنت ما أزال أتبين ذلك الاختلاف في اللون ، وإن بدا كمتعاقب الظلال والأضواء . لأن اللون الحقيقي انمحي مع نور النهار .

وخلت عياني نحو ما فوق المرفعات الكثيرة وحافة الآجام . ثم تبهم نظراتهما وسط ذلك المنظر الموحش ، إلى أن ظهر ضياء فجأة . كقطعة بعيدة بين البطاح والحواف ، ففكرت أول ما فكرت في أن ذلك نوع من السراب ، وتوقعت أن يتلاشى على الفور . ولكنه ظل متقدما في ثبات واستقرار ، دون أن يتضاءل أو يتزايد ، فتساءلت : « أهى نار أشعلت على التل ؟ » وترقبته لأتبين ما إذا كانت مستند . ولكنها لم تقو . كما أنها لم تضال . فعدمت أنها ربما كانت مصباحا في منزل . ولكن - فيم يهمني أمرها وليس في وسعي أن أصل إليها

.. إذا صح حسبي - لأنها كانت جد بعيدة .. بل ما نفعا إذا كانت على ياردة واحدة من مكاني ، مادمت أظن أن أطرق بابها حتى لا يفلق في وجهي .. وتهايلكت في البقعة التي كنت أقف عليها ، وأنحيت وجهي في الأرض ، ووردت فترة في هدوء وسكون .. وكانت الرياح تهب فوق التل وفوق - ثم يتلاشى أتبنا بعيدا . وأخذت الأمطار تهطل بسرعة قتيلا من جديد وتنفذ إلى جلدتي ، فلم يسعني سوى أن أجد في ذلك الصريح الذي خلعت أنه برودة الموت تسري في جسدي .. وما كان ينبغي أن أتأذى منها . ولكن الجسد الحى ما أثبت أن راح يرتعش تحت وعزها . فلما ليثت أن نهضت .



• وكان الضوء لا يزال يشع هناك وباستمرار ، خلال المطر ، فحاولت السير مرة أخرى . ووجدت أجرا قدس الغليظين في بطن نخوة . فإذا بي أتجه إلى أعلى التل خلال مستنقع واسع كان الخوض فيه مستحيلا في الشتاء ، بل في هذه الآونة . إذ كنا في منتصف الصيف .. وسقطت مرثين ، ولكنني نهضت واستجمعت قواي ، لأن هذا الضوء كان الأمل الذي أشتغل في سبيله ولا بد من أن أبلغه .. فلما عبرت المستنقع شاحدت أظرا ليافس فوق الآجام ، فسررت إليه . وإذ به طريق يصعد إلى التل الذي كان يضيء من خلال فترة وسط مجموعة من أشجار الشربين على ما لاح لي وسط الظلام ، واختفى ( نجسي ) عندما اقتربت منه . لأن عقبة حائلت بيني وبينه فحجبت عني عيني . ولكنني بسطت يدي أطمس طريق في الظلمة التي كانت أمامي . إلى أن وصلت إلى

سور من أحجار خشنة ، فواصلت تلمسي إلى أن رأيت مرة أخرى شيئاً أبيض يلتصق أمام عيني .. وكان هذا الشيء باباً لمسته فتحرك على مقاصله . فإذا خلفه - على كل من الجانبين - أيبكة قائمة الأول من أشجار البدر .. ونفذت خلال ذلك الباب وسرت بين الخشاش ، فرأيت شبح منزل أسود منقضى ، طويل ، ولكني لم أؤثر للصورة المصادف حول ، بل كان الظلام مسيطراً . ترى هل هيجع سكان الدار ؟ .. ووجف قلبي طرفة الفكرة . وفيها كنت أبحث عن باب المني ، انتقلت حول زاوية ، فسطع أمامي الضوء الصديق مرة أخرى خلال زجاج نافذة صغيرة ترتفع قديماً عن الأرض وتبدو أصغر من حجمها الحقيقي ، إذ كانت تحيط بها النباتات الزاحفة كالعذيق وغيره . وكان الداخل محجوباً ، فأزحت ستار النباتات المنسقة عن النافذة وإذا ذلك نجل المشهد أمامي ، قرأيت حجرة قرشت أرضها بالرمال ، وبها منضدة وبعض مقاعد ، وكان المصباح الذي أورشدي بسطاع فوق المنضدة . فتشاهدت على ضوءه امرأة طامعة في السن ، خشنة الظهور ، ولكنها غاية في النفاقة كمثل شي . حولها ، وقد جلست ترفو جرياً .. وكانت النظرة التي ألقيتها على هذه الأشياء سطحية ، إذ لم يكن بينهما شاذ أو غير عادي . ولكن منظر آخر استرعى انتباهي .. كانت ثمة شابتان يجانب المدفأة : وسط السكينة الوردية والدفء الغامر .. وكانتا سياليتين في كل شيء . وقد جلست إحدهما على مقعد متأرجح نحيفي والأخرى على مقعد أكثر الخوضاً ، ودون مساند .. وكانتا في ثياب الخداد التي زاد مسودتها من ثائي وجهيهما وتقر بهما ، وقد اعتمد

كلية كبير - من كلاب الصيد - برأسه الضخم على ركبة إحدى الشاتين . بينما استكانت في حجر الأخرى قطرة سوداء !

ما كان أحقره من مكان هذا الملبخ المتواضع ، إذا قبس يظهر ساكناته ! .. ترى من تكون الشاتين ؟ ما كان من المحتمل أن تكونا ابنتي جده المرأة الجالسة بجانب المدفأة ، لأنها كانت غريبة جافة ، في حين أنهما كانتا قيتين مهذبتين . والحقي أنني لم أر مثل وجهيهما من قبل . ولست أعلم أن أحدهما بالجانب الثاني لأنهما كانتا شديدي الانقطاع والزلة .. وعندما كانتا لوحدة منهما تنحني على كتابهما . كانت آيات التفكير العميق الحاد تنجلي على أساريهما . وكان بينهما قائم جدول خفية أخرى . ومجتهدين ضخمين طالما رجعتا إليهما . وكانتهما تقارنان بينهما وبين الكنايين الصغيرين الذين كانا في أيديهما كما يرجع الناس عادة إلى القاموس ليعاونهم على مهمة الترجمة . وكان مشهوداً سائماً . فهذا الأشخاص كالأشباح . وبدت الحجرة المانجة في أضواء الموقد أشبه بالصورة الرائعة .. أجل ، كانت الحجرة في صحت شامل حتى أنني سمعت تساقط الرماد خلال شبكة المدفأة . ودقات الساعة في الركن المظلم . بل لقد خيل لي أنني سمعت ارتفاع الإبر في يدي المرأة العجوز ! .. وأخيراً ، هناك حجاب القمصان صوت تنافس لأدنى . إذ قالت لإحدى الشاتين المتهكمتين لرفيقتهما : « استعني يا ديانا .. إن فراز ودجال الشيخ يقضيان الليل معاً ، فيروى فراز حاداً سيقظ به مضطرباً .. استعني ! » ثم قرأت شيئاً بصوت خافت لم أدرك منه

كلمة واحدة لأنه كان باعثة يونانية أو ألمانية حتى إذا فرغت من قراءتها قالت : « هذا أسلوب قوى لا أستطيعه ! »

وكانت الفتاة الأخرى قد رفعت رأسها لتصفي إلى أختها ، فكررت سطرًا مما قرئت وهي تحملق في نار المدفأة . وقد عرفت فيما بعد تلك اللغة وذلك الكتاب ، ومع ذلك فإني لم أنهم معنى لذلك السطر الذي حفظ على رأسي أشبه بطريقة على نعامي . وإن .. أجل : كان كالرنين الأجوف الذي لا معنى له . ثم كتبت الفتاة وعبثها السودوان العميقان تألفان : حسن .. حسن .. إني أستطيعه ! .. ووالد عليهما العبدت مرة أخرى إلى أن قطعت العجوز وقد رفعت عيناها عن شغل الإبرة : — هل توجد بلاد يتحدثون فيها مثل هذه اللغة ؟

— نعم يا حبة : بلاد أكبر بكثير من إنجلترا ، لا تكلمون فيها

غير هذه اللغة .

— الواقع أنني لا أدري كيف يفهم بعضهم بعضاً . فهل إذا

ذهبت إحداكما إلى تلك البلاد استطاعت أن تدرك ما يقولون ؟

— لعلنا نعرف بعض ما يقولون وليس كله ، لأننا لا نتكلم

الألمانية ولا نستطيع أن نقرأها بغير الاستعانة بقاموس !

— وأية فائدة ترجوها ؟

— نرجو أن تتولى تدريسنا .. أو أن تعلم على الأقل مبادئها — كما

يقولون — وعندئذ نحصل على أكثر مما نرعبه الآن !

— حسناً ، لكن درساً هذه الليلة !

— أفئذا كذلك .. إني — من تاحيتي — متعبة ، وأنت يا ماري ؟

— كل التعب ، فإنه من الصعب أن ترحق أنفسنا في لغة لا تفهم

عليها غير المعاجم !

— هو ذلك ، لا نبتا إذا كانت كنهذه اللغة الألمانية المقتلة ،

وإن كانت رائحة . ترى متى سيمود سانت جون ؟

— قالت وهي تتطلع إلى ساعة صغيرة صغيرة أخرجتها من حزامها :

« سيمود بعد قليل ونحن الآن في تمام العاشرة ، والمطر ينهمر غزيراً سريعاً

يا حبة . هل لك أن نطعمي إلى اشتعال النار في غرفة الجلوس ؟ »

فنهضت المرأة وقضت باباً رأيت من خلاله مراً ، ثم ما لبثت أن سمعنا

نقلب ناراً في غرفة داخلية وتعود على القصور لتقول : « أواف

يا صغيرتي ! .. لكن يقضى أن أغيب الآن إلى تلك الغرفة التي تبدو

موحشة بالمقعد الحاروي المودع في أحد الأركان ! » . وصححت عيناها

بمرولتها . كما تبسدى الحزن على الفتاتين الرزيتين . واستطردت

حتى تقول :

— ولكنه انتقل إلى مكان أفضل ، ولنا نرجو له أن يعود إلى

هنا ، فما أظن أحداً خطي بأحدنا من بيته !

فتألتا إحدى السيدتين : « نقول إن له لم يذكرنا ؟ »

— لم يكن لديه متسع من الوقت لذلك ، فإن المشي عاجلته ..

كان يعاني بعض الشوك الذي أصابه في الليلة السابقة دون أن يهتم

كثيراً بالألم . ولما سأله أخيراً « متى ( سانت جون ) عما إذا كنا

نرسل في طلب إحداكما » « لكني بأن ضحك منه . ثم أصيب في اليوم

التالي بنقل في رأسه .. كان ذلك منذ أسبوعين تماماً ، ثم مضى ليتمام



فلو يستيقظ إلى الأبد ! .. وعندما دخل عليه أخوكما وجده جثة هامدة .  
أواه يا حطفاي ! .. هكذا انتهى الرجل الكهل بمثل ما ذهبت أمكنا من  
قبل . إنك صورة طبق الأصل منها يا مامرى ! .. أما أنت يا صيانا  
لتقهرين والدك !

ولكنني كنت أراها جده مقشابين . فلم أدر من أين جاءت  
الكلامه العجوز بهذا الفارق بينهما . في حين أن كلاهما كانت جميلة  
الحبا . نعيمة القوام . ترتسم على وجهها آيات النعمة والذكاء . وإن  
كان شعر أحدهما من أهلك قليلا من شعر الأخرى وبخلف في طريقة  
تصفيفه . فمأوى ذات خصللات سوداء ومروقة معقوفة . بينما كانت  
جدائل دبانها — الأهلك لونا — تسدل بحواة على عنقها !



● ودقت الساعة العاشرة . وقالت حنة : « أعطد أنكما ترغيبان في  
تناول العشاء » وكذلك سيفعل فستر سانت جون بمجرد عودته ! ..  
ثم تقدمت اتعد العشاء . قهقشت السيدتان . ولاح أنهما تهما بالانطقال  
إلى حجرة الجلوس . وكنته إلى تلك اللحظة أرقبهما في اهتمام وقد  
استهوانى منظرهما وحديثهما . حتى كدت أنسى موقعي التعمس . ولكن  
سرعان ما عاودتنى الآلام ورأيت كيف تناقض حالتي البائسة اليائسة  
حاليهما . وأدركت كيف يستحيل أن أجعل سيدتى هذا المترو يهتان  
بأموى وأهلها على تصديق حاجتى ووبلائى وأغريهما بأن ترهبانى  
من عتاء التشرد . وعندما تحسست طريقى إلى الباب وطرفته في تردد .  
شعرت بأن الأمل الأخير لا يعلو أن يكون وهما باطلا . وفتحت حنة

الباب . فلما رأته على ضوء الشعة التى تحملها . سألتنى في صوت  
مشدود : « ماذا تريدن ؟ » فأجبته : « هل أستطيع التحدث إلى  
سيدتيك ؟ »

— يحسن أن تخبرينى بما تريدنه منها . من أين جئت ؟  
قلت : « لائى غريبة ! »  
فأجبت بمسألة : « وماذا تريدن في مثل هذه الساعة ؟ »  
— أريد أن أيت لائى في حجرة خارجة أو في أى مكان وأريد  
كسرة من الخبز .  
وبدا الإحساس بالثك — الذى كنت أخشاه — يظهر على وجه  
حنة . فقالت بعد صمت قصير : « سأعطيك كسرة من الخبز ولكننا  
لا نستطيع أن نؤوى غريبة ! »

فهتفت ضارعة : « ألا دعينى أتحدث إلى سيدتيك ! »  
— كلا .. لما الذى تصعبانه لك ؟ .. ما كان يميل أن تتجول  
الآن على هذه الصورة التى لا تليق إطلاقا .  
— ولكن أين أذهب إذا طردتنى ؟ ماذا أصنع ؟  
— إنك أفرى بلا شك بالمكان الذى تفهين إليه . وما تصعبته !  
إنما حذار من الإقدام على أى شر . خذى هذا البش واذعبي !  
— إن البش لا يستطيع أن يطمعنى . ولا قوة لى على السير أكثر  
من هذا . لا تطلقى الباب .. أواه لا تغلقه باله عليك !  
— بل يئيب أن أقبل لأن المطر ينهمر .  
— أخبرى السيدتين . دعينى أأفهما !

— كلا لن أفعل .. لأنك لست أهلاً للقائهما ؛ وإلا ما أحدثت هذه الجلبة . إذ بقي من هنا !  
— ولكنني أموت إذا طردتني ؛  
— لا صبر عليك ! .. أتعلم أن تكون لك أغراض شريرة ؛ هي التي تجعلك تحومين حول بيوت الناس في مثل هذا الوقت من الليل فإذا كان ثمة وفاق لك من الخصوص أو من إلهيم يترصدون على مقربة ، فعبر لك أن تخبرهم بأننا لستنا وحيداً في البيت ؛ بل إن معنا سيدياً ، ونهدنا كلاباً وبنادق ؛  
وهنا أوصدت الخادم الأمية — التي لم يلبس في فليبا — باب المنزل وأحكمت الزناج . وكانت هذه هي الطامة الكبرى . فجاء الألم في قلبي بوقت بعد أن استبد في اليأس والفتور . وبلغ في الإعياء أن غلبت لا أقوى على التحرك خطوة واحدة . فتألمت على حدة الباب المبتهل أن أخرج وأتصر بدي وأبكي في ألم مض . أواء .. هذا شبح الموت ! .. أواء ؛ هذه ساعتنا الأخيرة تدنو رهبة مروعة ! .. وأسفاه على هذه العزلة . وهذا البعد عن أبناء جنسي ! .. ولم تزدني فقط (مرساة) الأمل ، وإنما تلاشت كذلك (قاعدة) الخلد والنبات ، لحظة على الأقل ؛ سارعت بعدها أحاول استعادة آخر بارقة من الرجاء وصحت ؛ لا معدني من الموت ! إنني أؤمن بالله فلا أنتظر إرادته في سكون وهناء ؛

ولم تمر هذه الكلمات بخاطرني فحسب ؛ ولكنني نطقت بها ؛ ثم كنت شغاف في قلبي . وحاولت إكرامه على انشاء هلالك في صمت

وسكون ؛ وارتفع إذ ذاك صوت قريب يقول : « لاية للناس جميعاً من الموت ، ولكنهم جميعاً ليسوا مسوقين لأن يلقوا مثل هذا المصير البطيء السابق للأوان ، والذي يمكن أن تلقيه أنت إذا حلكت هنا من الإملاق ! »

فارتجفت لصوت الذي لم أكن أتوقعه ، وسألت : « من أو ماذا يتكلم ؟ » .. وكنت عاجزة عن توقع أي أمل في مساعدة . ولكنني رأيت شيئاً أسود كظلام الليل . وعجز نظري — الذي خضع — عن تمييزه . ثم طرقت الوفاة الجليد الباب طرقة غالية طويلة . فصاحت صرخة : « أهذا أنت يا مستر سانت جون ؟ »

— نعم . نعم . افتحي بسرعة !

— لاشك أنك تقاسي الليل والبرودة في مثل هذه الليلة الوحشة . ادخلي فإن أخيك في غاية من الشغل عليك .. وأعتقد أن في هذه البقعة قوماً من الأشرار . فقد جاءت مشوكة .. إنها لم تذهب بعد ، فهي هي ذئ ترقد هنا ! قومي ! يا للعالم ! .. إذ بقي من هنا !

— صه يا حنة ، فليدي ما أقوله لهذه المرأة . لقد قت برابريك بطردها ، فدعيني أقوم بواجبي بإدخالها . فقد كنت على مقربة وصحت كل ما دار بينكما من حديث . وأعتقد أن هذه حادثة غير عادية تحتاج إلى أن أدرسها . انتهى يا شابة وتقدميني إلى المترك !

فأطلعتني عناء . وما لبثت أن وجدتني داخل المطبخ النظيف المشرق أرخفت ، وقد أخذ رأسي يدور ، ومن حولي مشهد في الخارج

غاية في الوحشة وقد عصفت به الطبيعة ، بينما كانت السيدتان وأخوها  
يتملقون في . ثم سمعت من يسأله : « من هذه الفتاة يا سانت جون ؟ »  
— لا أخرى . لقد وجدها عند الباب !  
وقالت حنة : « إنها تبلى شاحبة » .  
— شاحبة كالصلصال أو كالموت ، وتكاد تهوى من الإغصاء  
فلدنيا تجلس .



● والواقع أن راسي كان يسبح ، وسقطت ليلفتني أحد المقاعد .  
وكنت ما أزال مستجمعة حوامي ، وإن عجزت عن الكلام إذ ذاك .  
فقال الشاب : « لعل جرعة من الماء تعيد إليها قواها يا حنة ، فالتبها  
بعض الماء . ولكنها منهوكة غاية الإنهاك وغاية في الغزال والامتقاع » .  
— إنها مجرد شبح !

— هل هي مريضة أو هو الجنوع روح بها فحسب !  
— ألقها تنصور جوعاً . هل هذا لين يا حنة ؟ .. هاتيه وهاتى  
كسرة من الخبز .

لما ديانا — التي عرقها مجدائلها الطويلة التي حجبت عنى المدفأة  
— عندما انحلت على — فقد قطعت شريحة من الخبز تحسبها في الذين  
ووضعتها في فمي . وكان وجهها قريباً مني فشاهدت عليه آيات الرثاء  
كما كنت حناناً في أنفاسها الراكضة . وقالت لي بكلمات بسيطة نشفت  
عن نفس الغرائف : « حاول أن تأكل ! .. ورددت ما رى الرجاء  
في رفق قاتلة : « أجل ، حاول ! .. » ثم رفعت فلتسوق الليلة كما

رفعت رأسي ، فتناولت ما قدم إليّ في ضعف ثم في خفة . وقال أخوها :  
« لا تعطيها كثيراً في البداية ، فقد تناولت ما فيه الكفاية ! .. » ثم  
حبب فتجان الذين وطبق الخبز . ولكنها قالت : « بل أعطها مزيداً  
يا سانت جون . انظر إلى الشراة السجلى في عينيها ! .. » فقال :  
« يكفي الآن ما تناولته يا أختاه . جري ما إذا كانت تقوى على الكلام .  
سألبها عن اسمها » ..

وشعرت بأنني أستطيع الكلام فقلت : « إن اسمي : جون  
البرت » . فقد انتحلت هذا الاسم حرصاً مني على ألا يكشف أحد  
حقيقي .

— وأين تقيمين ؟ .. أين أصداؤك ؟

وترثمت الصمت ، فعاد يسألني : « هل في الوسع أن ترسل في  
طلب واحد من معارفك ؟ .. ولكنني هرزت رأسي ، ففسال :  
« ماذا لديك من القول عن نفسك ؟ » :

وشعرت بأنني وقد عبرت عتبة هذه الدار ، وأصبحت مع  
أصحابها وجهاً لوجه . لم أعد المنبوذة الشريرة التي تنكرت لها الدنيا .  
ولذلك جررت فخلعت عنى ثوب التسلو المستعجلة . واستعدت  
أطوارى وأخلاق الطبيعة . وبدأت أعرف نفسى مرة أخرى . فلما  
سألني مبتر ( سانت جون ) أن أروي قصتي — التي كان خضعني  
إذ ذاك يحول دون روايتها — أجهت بعد فترة وجيزة : « لست أقوى  
اليلة على ذكر التفاصيل يا سيدي » . فقال : « وما الذي توفعز مني  
أن أعمله من أجلك ؟ » فاجبت : « لا شيء ! .. »



وكانت قوتي لا تنكسر لتغير الإجابات المتغيرة ، فقلت ديانا :  
« أتعين أننا قدمنا لك كل ما كنت تحتاجين إليه من معونة ، وأن في  
وسعنا أن نبحث بك الآن إلى الآجام والابل المطير ؟ » فتطلعت إليها  
وإذا هي - كما بدت لي - ذات عجايب يتميز بالقوة والفطنة ،  
فتشجعت فجأة ، وأجبت عن نظراتها الحنون بالقبلة : « شفعنا بقولي :  
« سأفعل فيك نفق .. لو أنني كنت كلية ضالة بلا صاحب ، ما طردتني  
من منزلك البلية .. » لمست خائفة « فأفعل ما شئت في ولاجلي »  
ولكني أسألك الصفح إذا عجزت عن الكلام الطويل : إذ أن أنفاسي  
قصيرة وأشعر عند الحديث بشئ يضايقني » .

ورأى السكون على الثلاثة .. وأخيراً قال مستر سانت جون :  
« دعها يا حنة تجلس هناك الآن ولا تثنى عليها أسئلة ، وبعد عشر دقائق  
أعطيتها بقية الخبز والابن . هيا بنا يا ماري وأنت يا ديانا إلى غرفة  
الجلوس لتحدث في الأمر » .. ثم انسحبوا . وسرعان ما عادت  
إحدى السيدتين - ولم أدر أيتهما ، إذ كنت في شبه غيبوبة لتأنيده -  
وأنا جالسة بجوار الشو البيجة - فألقيت على حنة بعض تعليقاتها بصوت  
خافت : وما لبثت أن أرتقت الدرج بمعاونة الخادمة إلى حيث خلعت  
ثيابي البلية .. وتلقفت فرائش دافئ جاف ، فشكرت الله وقد عمر في  
وسط الإنهاك الشديد - ضياء الفرحة الشاكرة ، ثم نمت !

\*\*\*

## الفصل التاسع والعشرون

● إذ ذكرى حوالي ثلاثة أيام وثباتي - بعد ذلك - تضع مبيدة في  
ذهني .. وبوسعي أن أذكر بعض الأحاسيس التي خاضرتني في تلك  
الفترة ، ولكنني لا أذكر من الأفكار الواضحة المعالم إلا قليلا ، كما  
أنتى لم أقم بعمل ما ! .. وكنت أدرك أنني في حجرة صغيرة ومزيرة  
ضيق .. وتخليل إلى أنني كنت أكبر من ذلك المزير ، وقد رقدت  
عليه دون ما حراك ، وكأني تحولت إلى صخر : وكان التراب مني بعني  
قالي .. ولم أظن إلى مرور الزمن .. لم أكن أعي تطور الصباح إلى  
ظهيرة - ولا نحو الظهر إلى مساء ، ولكنني كنت أشعر بأهل الدار  
عندما كانوا يدخلون الغرفة أو يغادرونها . بل كان في وسعي أن أميز  
شخصياتهم ، وأن أفهم ما كانوا يقولون إذا وقف المتكلم على مقربة  
مني ، ولكنني لم أكن أستطيع أن أجب .. كان الفراج شقي أو تعريك  
طرائف ضرباً من المستحيل ، وكانت ( حنة ) - الخادم - أكثر أهل  
البيت تردداً على غرفتي ، فكان مقدمها يزعمني ، إذ كنت أشعر  
بأنها راغبة في إقصائي ، وأنها لم تعهني ولا قدرت طروقي ، ومن ثم  
كانت متحاملة علي . أما ديانا وماري فكانتا ثابتي إلى حجرتي مرة  
أو اثنتين في كل يوم ، فتنهسان بجانب فرائشي ، يمشل ما يلي من  
عبارات :

« لقد أحسنا كثيراً بزيوتنا ! .. » نعم وإلا عثر عليها في الصباح  
جثة هامدة بجوار الباب ، لو أنها تركت في الخارج طوال الليل . ترى

أى عنه قائمه ١ ٢ ٣ ٤ .. لا بد أنها قامت مناعب عجيبة فيها أعقده ، فبالها من مشردة باله هزيلة شاحية ١ ٢ ٣ ٤ .. أغلب النش أنها متعلمة كما يبدو من تصرفاتها وحديثها : فإن طبعها جند مهلبية : وملايسها التي خلعتها جميلة ، وليس بالية لعماد ، وإن كانت ملونة بالطين ومبيلة .. إن لوجهها طابعاً فذاً ، يرغم أنه هزيل منيوك ، ويومعى أن تصورها ذات صفة مقبولة بمجرد أن تسترد صحتها وتلتشى .

ولم ألتس قط في حديثهما المتبادل ما يدل على ما أعقده وأخوفا على من كرم الوفاة ، أو ما يوحى بالشك أو الشور مني ، مما أطلع صدرى .. أما مستر (سانت جون) ، فلم يزدنى سوى مرة واحدة نظر فيها إلى ، ثم قال : إن سباني العميق كان نتيجة رد فعل لعب شديد ظال أمله ، وأن لا حاجة تدعو إلى دعوة طبيب ، لأنه كان واقفاً من أن الطبيعة سوف تتكفل في على أكل وجه إذا تركت خالي . وأكد أن كل أعضاء قد أرهقت بحيث أصبح جميع جهازى المعبى في حاجة إلى الاستجمام بعض الوقت ، وأنى لست مريضة على الإطلاق وقال إنه يعتقد أننى إذا ما بدأت أسترد قوئى ، فلن ألبث أن أستكمل شغائى سريعاً ، وعيز عن آرائه هذه في كلمات قلائل ، وبصوت خافت ، ثم توقف لحظة وعاد يقول بلهجة رزجى الذى لم يعتد كثيراً أن يبطىء التعلين : إن لوجهها صفة لا تكاد تكون عادية ، ولكنها ليست بكل تأكيد على شيء من الابتذال أو الخسة .

فأجابته دباناً : حقاً .. ولا أملك أن قلنى ينعنو على هذه الصغيرة البالية : ويودى لو تقوى على مساعدتها مساعدة دائمة ..

وكان رده : ليس ذلك محتملاً ، وسوف تجدن أنها سيدة شابة وقع بينها وبين أهلها سوء تفاهم ، فغادرتهم في شور ، وقد توفى في أن نعيدها إليهم ما لم تكن عبدة ، ولكنى أقرأ على وجهها سطوراً تدل على القوة مما يعنى أوقن من ديانة أخلاقها .. ثم استمرى يقول : إنها تبدو عاقلة ولكنها ليست جميلة ١ ٢ ٣ ٤ ..

— إنها غابة في المرض يا سانت جون .

— مريضة أو غير مريضة فستظل امرأة تغير جميلة ، إذ ينقص أسارىها الناس .



● وفى اليوم الثالث تمددت حائتى ، وفى الرابع استطلعت النكلام والتحرك في فراشى ، والجلوس فيه ، وانقلب في أرجائه ، وجاءنى حنة ببعض الحساء والخبز المخصص لغدائى فيها أعقده ، فأكلت بشية . وكان طعاماً جيداً عالياً من ذلك الطعام المصنوع الذى كان يسمى ما كنت أبتلعه من قبل ، وعندما غادرتنى ، أحسست بقوة ونشاط نسبين ، ثم لم ألبث بعد قليل أن شعرت بميل إلى التحرك ومغادرة الفراش ، ولكن ماذا أؤدى ١ ٢ ٣ ٤ .. لم يكن لدى سوى ملايسى المبيلة القدرة ، فشعرت بالتعجيل من أن أقهر أمان من أحسنوا إلى هذه الثياب ، ولكنهم وفروا على هذا الشعور المهيمن ، إذ وجدت لياى كلها نظيفة وجافة على مقعد بجوار الفراش ، بينما كان فستانى الحريرى الأسود معلقاً إلى الجدار وقد أزيلت عنه أقدار المصنوع ، وسويت التعضنات التي كانت به فيدا لطيفاً كل اللطف : حتى حوائى وجورنى نظفت بحيث أصبحت

لائقة : وكذلك أعدت في حجرتي وسائل الاستئصال ، وزودت بمشط وفرشاة للشعر : فلما لبثت بعد عشاء والباس الراحة في كلى جس دقاتي ، أن تحسنت من ارتداء ملابس التي تهدئت على كفتي بسبب ما أصابني من هزال ، ولكني مشرت هذا العيب بشلي ، وهكذا استعدت ، يظهرى التليف المفرم ، وكلفت من الأقدار التي خلقت في ، ومن الفوضى التي أكرهها بطبعي وأشر بأنها تخط من قدرى ، ثم حبست السارج المجرى زاحقة ، وأذا أستمع بالبرازين حتى يلبث رعدة فسيقة خفيفة السقف ، وسرعان ما وجدت طريق إلى المطبخ ، فإذا به يعين بعير الخبز الطازج ، وقد أغمى بده نار مشعرة :

وكانت حنة تميز ، ومن المعروف أن الفسور والحمامي يضعب اقتلاعهما من القلب الذي لم يحسب التعليم تربته ، إذ أن جلوسهما تنقل هناك قوة كالأعشاب التي تنمو بين الأحجار . وقد كانت حنة يارفة جافة معي في أول الأمر ولكنها بدأت أخيراً ترفى بعض الشيء ، فلما رأته أدخل عليها في ثياب نظيفة مهتمة ، ابتست وقالت : « ماذا ؟ » . هل نهضت من فراشك ؟ . إذن فأنت أحسن حالا ، وفي وسعك إذا أردت أن تبلى في مقبلى بجانب المدفأة . . وأشارت إلى المقعد المتأرجح ، فجلست فيه ، بينا اتهمكت هي في عملها ، وهي ترمقى من طرف خفي بين وقت وآخر ، ثم تناولت بعض أرغفة من القرون واستدارت إلى تسألني في جفوة وغلظة : « هل كنت تتولين قبل أن تأتي إلى هنا ؟ » . فقولاني العيظ لحظة ، ولكني سرعان



وجاءتني ( حنة ) ببعض الخضار والخبز المحمص  
فبذلتني فيما اعتقيد ، فالتفت بنهية



ما تذكرت أن الغضب لا يهدى . وأنى فعلا كنت أهدو كالمسونة ،  
فأجبتها في هدوء لا يتخلو من بعض الحزم :

— إنك تخطئين إذا حسبتي مسئولة ، فأنا أبعد عن التسول بعدك  
وبعد سيدتيك عنه .

فصكت خبطة ثم قالت : أنت أفهم .. أنت بلا دار  
ولا نحاس ؟

— إن الحاجة إلى الدار والنحاس .. وأظنك تعين به المال —  
لا تكن لأن تجعل الإنسان مشغولا كما تعنى كليلك .

فسألني عن القور : « أتعلمة أنت ؟ »

فأجبت : « أجل : وإلى فرجة كبيرة » .

— هل دخلت مدرسة داخلية ؟

— نعم ، وقضيت بها ثلثي سنوات .

فأصغت عيناها وقالت : « إذن فإذا لا تستطيعين إعالة نفسك ؟ »

— لقد كنت أعول نفسي وسأعول مرة أخرى .

ولما أخرجت سلة من الكرور قلت : « ما الذي تعزمين صنعه بهذه  
الفاكهة ؟ » فأجابت : « قطناز ؟ » .. فقلت : « هايتها لأعني  
بإقتصاء التجار غير الطيبة » . « وإذ أجابت : « كلا .. لا أريد أن تعمل  
شيئا » . قلت لها : « بل يجيب أن أقوم بعمل ما .. حتى الفاكهة » .

وقبلت : « فجاءني بشفقة نظيفة تخبرها على ثوبي حتى لا يسخن »  
وهي تقول : « أرى من يدرك أنك لم تمارسى أعمال الخدم من قبل .

فهل كنت تمارسين الحياة ؟ »

— كلا .. لقد أخطأت الخدم .. لا تهمي بما كتبه .. ولا تشغلي  
بالك .. ولكن ما اسم المنزل الذي نحن فيه ؟

— بعضهم يسميه ( مارش أيد ) والبعض الآخر يسميه ( مور  
هاوس ) .

— والسيد الذي يقم هنا .. ادعى مستر سانت جون ؟

— لا .. إنه لا يقم هنا ، ولكنه جاء لبعض الوقت . أما مقامه في  
أبروشه بمورتون .

— تلك القرية التي تبعد بضعة أميال عن هنا ؟

— وإذا قالت : « نعم » .. عدت أسألك : « وماذا يعمل ؟ »

فأجابت : « إنه فاس .. وقد ذكرت في مدرسة المنزل العجوز في بيت  
راعي الكتيبة ، عندما ملئت إليها أن أقابل القسيس . فقلت : « إذن  
فهذا بيت أبيه ؟ »

— نعم كان مستر ريفرز الشيخ يقم هنا ، ومن قبله والده وجده  
وجده الأكبر .

— إذن فاسم هذا السيد هو مستر سانت جون ريفرز ؟

— نعم . ويبدو أن ( سانت جون ) اسمه عند التعميد .

— وهل تدعى شقيقته ديانا ومارى ريفرز ؟

وأجابت : « هو ذلك » .. فعدت أسألك : « وهل توفي أبوه ؟ »

فقلت : « منذ ثلاثة أسابيع » .. « وإذا ذلك سألتها : « أو ليست لهم أم ؟ »

فأجابت : « لقد توفيت منذ سنوات » .

— وهل قضيت مع الأميرة طويلا ؟

— قضيت هنا ثلاثين عاماً ربيت خلالها الإخوة الثلاثة !

— هذا يدل على أنك خادم أمين مخلصة ، وسأفضي إليك بالكثير

وإن بلغت بك السابعة أن دعوتني مقبولة !

فحملت في وجهي مرة أخرى وهي مشلولة ثم قالت : «أعتقد

أنني كنت غفلة فيما يخصك عنك ولكن المظاهر خدعة قاسية حقاً :»

ولكنني استأنفت حديثي بشيء من الحدة والصرامة : « ومع ذلك فقد

ثبت أن نظريتي عن بابك في ليلة ما كان ينبغي أن تطرد ، فيها كلباً

من الكلاب . »

— كانت قسوة مني ، ولكن أي حيلة للإنسان في ذلك وقد كان

تذكيري في الثناين أكثر منه في نفسي : إذ ليس هناك من يتم بهاتين

خلفتين المسكينتين غيري ، ولذلك أبدى على شيء من الحدة !

وأخذت لحظة إلى صحت متجهين فقالت : « أرجو ألا تقضي في

الحكم علي ! »

— بل إنني أقسم : لا لأنتك أبنت ابواني ، أو ظننتي بحالة ،

وإنما لأنتك غيرتي منذ قليل بأنني لا أمك داراً ولا مالا ، مع أن العالم

زاحر بالفقر والمعوزين من هم على شاكنتي . ولو أنك كنت تقيّة

لما اعتبرت الفقير جرماً !

— لن أفعل ذلك بعد الآن . وهكذا حدثني مسر سانت جون ،

ولذلك أدركت خلطتي . وقد غيرت الآن فكري.. إنني لأراك مخلوقة

لطيفة مستقيمة .

— حسناً ، لقد صفت عنك فصافحتني :

فوضعت يدها الخشنة المكسوة بالدفق في يدي ، وأشرق وجهها

الجفاف بإبتسامة طيبة ، وصرتا بعد ذلك صديقتين :

• • •

• وكان من الجلي أن حنة مفرمة بالكلام والثرثرة ، فلما أخذت أقرؤ

النهار وانهمكت بدورها في إعداد العجين للقطاير ، راحت تقص عليّ

بالضخيل كل شيء عن المرحومين سيدها وسيدتها ، وعن الثنائين :

فقالت : إن مسر ريفرز الشيوخ كان رجلاً بسيطاً ، ولكنه سبد من

أعرق العائلات ، وأن ضيعة ( مارش آند ) ذلك لم منذ كانت منزلاً

عتيقاً شيدته العائلة منذ مائتي سنة ، ولا يقارن بالبيو الكبير في قصر

مسر ( أوليفر ) في ( مورتون ) . ومع ذلك فقد كان والد ( بيل أوليفر )

صانع لبر مشجول : في حين كان آل ريفرز من السادة ملاك الأراضي

منذ عهد الملك هنري ، كما يستطيع كل امرئ أن يرى بنفسه في

صحلات كنيسة ( مورتون ) . على أن السيد لم يكن يمتاز بغير ولعه

الجنتري بالصيد والزراعة وما إليهما ، أما زوجته فكانت على التقيض ،

تشغف بالفراة والأخلاق ، وقد أخذ أولادها عنها ذلك الشغف ، فلم

يكن في تلك الأصقاع — ولئن يأتي — من يعرف ثلاثهم علماً ، إذ كانوا

يدرسون منذ نعومة أظفارهم . وقد اختار كل منهم مستطيله ، فلما كبر

مسر سانت جون ، تعلم وأصبح كاهناً . أما الثنائتان ، فقد اختارنا

عندما أننا الدواصة : أن نصيحا مريثين ، إذ أخبرناهما بأن أباهما فقد

شطرأ كبيراً من ثروته منذ سنوات — لمر إلفانس رجل كان قد التمتته

على ماله — ومن ثم لم يعد في وسعه أن يخلف لها ثروة ، فكان عليهما

أن تكسبنا غيظهما .. ولم تكونا تهيان في الدابر إلا لثمرات قليلة .. منذ زمن .. وما جاءنا أخيراً إلا تلك البضعة أسابع .. بعد موت أبيهما .. ولكلّهما كانتا تخبان (مارش أب) و (مورتون) والمستلزمات والحلال الغنيمة بهما .. وقد زارتا ليدن وغيرهما من المدن الكبيرة وإن ظنننا أن لا شيء يعدل عندهما مخطط رأبهما .. وهما متحاضنان .. فلم يقع بينهما خلاف قط .. ولا تكاد توجد للأسرة شبيبة في النفا من !

وإذ التويت من مهشي في نظيرة الكرّ : ساكتا عن السيدتين وأخيهما .. فقلت : « لقد ذهبوا يتمشون إلى قرية (مورتون) وسجودون قبل تصعب ساعة لتناول الشاي .. والواقع أنهم حضروا قبل الموعد الذي قدرته حنة .. قدخلوا المنزل من باب المطبخ .. ولما رآني مسرّاً سالت جون اكنفي بأن حني رأسه ثم واصل السير .. أما السيدتان فقد ترفقتا .. وأسرت في ماري عن ابتهاجها لمروبي بنهر وقادوة على التزول بيديا تناولت ديانا يدي ثم هزت رأسها وقالت : « كان ينبغي أن تنفري حتى أجمع لك بالتزول .. فذلك ما زلت شاحية لاجلها يا ميسكينة ! »

وكان لها صوت جميل الوقع في أذني .. فكانت ديانا الجمال .. ونظرة أحست ببرجة كل الففت بنظرني .. ووجهه مليء بالسحر في سبني .. وكذلك كانت أسرار ماري تتم عن نفس الدكاء والجمال .. ولكنها كانت تبدو أكثر تحفظاً .. أما كان حديراً يتم بحب السيطرة والسلطان .. وبدل على مضاه العزبة .. وكنت أجد طبعني راحة في الخضوع لمثل هذا التفوه .. وفي أن أنتهي الإرادة الماضية .. فيما يسمح به ضميري وترضي عند كرامتي ..

واسترسلت ديانا تقول : « وماذا تفعلين هنا ؟ ليس هذا مكانك .. ابني وماري يجلس في المطبخ أحياناً .. لأننا نحب ونحن في المنزل أن نتحرر وألا نقيّد بشيء .. ولكنك زائرة .. فيجب أن نذهب إلى غرفة الجلوس .. » قلت : « بل ابني مغتبط هنا .. » ولكنها قالت : « لا غبطة على الإطلاق مع محب حنة ودقيها الذي يتأثر عليك ! » .. وقد غلقت ماري في الحديث قائلة : « ثم إن البربان هنا أشد من أن نعملها .. » فأردفت أختها تحاطي : « بالتأكيد .. هيا .. وكوفي مطيعة ! »

وأنفضتي وهي ما زالت ممسكة بيدي .. فقادني إلى الغرفة الداخلية حيث أجلسني على أريكة وقالت : « امسكي هنا ربما نلتجع لياينا ونعد الشاي فإنه ليحلو لنا ونحن في دارنا هذه أن نهيئ وجباتنا بأنفسنا عندما نحب .. أو عندما تكون حنة مشغولة بالخيز أو بصنع الجعة أو الغسيل أو الكي ! » .. ثم أغلقت الباب لتتركني وحيدة مع مسر سالت جون الذي كان يجلس في مواجهة متصرفاً إلى كتاب أو صحيفة كانت في يده .. فرحت في أول الأمر أنامل الحجرة ثم أخذت أنامل شاعلي :

كانت حجرة الجلوس صغيرة بسيطة الأرياش .. ولكنها نظيفة أتيقة بمقتاعها القديمة اللامعة .. ومنضدة من خشب الجوز أشبه بالمرآة المصقولة .. وبضع صور عجيبة عتيقة لرجال ونساء من الزمن السالف وصوان ذي أبواب زجاجية يحتوي على بعض الكتب وطاقم قديم من الخزف .. ولم أر في الحجرة زينة لا داعي لها .. ولا شيئاً من الأرياش الحديث سوى صندوقين ومكتب نسوي من خشب الوردة قام بجانب منضدة يجوار الحائط .. وهكذا كان كل شيء في الغرفة .. بما في ذلك



ایسا بذا السانز - ہم لأول وهلة عن حسن التصديق والاعتبار :  
 وكان مستر سانت جون ساكتاً في جلسته سكوت الصور المتعلقة إلى  
 الجدران ، وقد تسمرت عيناه على الصفحة التي كان يطالعها ، وأطبقت  
 شفتاه ، مما مكّني من تفحصه بسهولة . ولو أنه كان تمهلاً وليس  
 إنساناً لكانت مهنتي أسهل وأيسر : كان شايياً بين الثامنة والعشرين  
 والثلاثين ، طويل القامة ، نحيل الجسم ، يجذب وجهه النظر لأنه كان  
 يشبه الوجه الأغريق في لقائه وصفائه وألفه المستقيم . كما كان له قم  
 ودفن من أثينا . والواقع أنه قل أن تجد وجهاً إنجليزياً أقرب من وجهه  
 إلى الخواذج القديمة . ومن ثم فقد كان على حق حين صدم لعدم تناسب  
 أساريره وهو على هذه الملاحظة . إذ كانت عيناه واسعتين زرقاوين .  
 وكانت أهدابه سوداء ، وكان جبينه كالعاج تثنى عليه خصلات من  
 شعره الجديل في إحمال . أليس هذا رمزاً دقيقاً لعلله : أيها القارئ ؟  
 ولكن ، من الذي لا يؤثر . بأوصاف كهذه - في نفس أوتيت مثل  
 طبيعة رقيقة طيبة سهلة القيادة على مجالب كبير من الوداعة ؟ وبالرغم  
 من هدوئه في جلسته ، فقد كان ثمة شيء حول خياشيمه وفيه وجينه  
 يدل - فيما بدا لي - على عالم توحى بالقلق ، أو ضلع النفس والتهافت .  
 ولكنه لم يوجه إلي كلمة أو نظرة واحدة ، حتى عادت شفتاه :  
 وجاءتني ديانا بكلمة صغيرة خبزت على ظهر القرون ، وهي تقول :  
 - كلّي هذه الآن لأنك جائعة بلا شك . فقد أخبرتني حتى أنك  
 لم تتناول شيئاً بعد الإفطار سوى بعض الزبد .  
 ولم أرفض ، لأن معدتي كانت قد تغطت وناقت إلى الطعام :

وعندئذ أغلق مستر وينز كتابه واقتراب مني ثم راح - وهو يتخذ  
 لنفسه مجلساً - يتفرس في بعليه الزرقاوين الجميلتين . وقد ارتسيت  
 فيما استقامة غير متكلفة وعزم نافذ واسع ، مما داني على أنه لم يكن  
 يتجاسى النظر إلى الغربية عن الدار تيباً وإنما عن قصد وعمد . وما لبث  
 أن قال : « إنك جد جوعانة ! » . فاجبت : « نعم يا سيدي ، إن من  
 عادتي - وكانت دائماً عادتي بالسليقة - أن أقابل القلة بالانقياد ،  
 والوفرة بالإقبال ! » .

كان غيراً لك أن تغطري بسبب الحس البسيطة إلى الامتناع  
 عن الأكل ثلاثة أيام . إذ كان هناك خطر من تلبية لنداءات الجوع في  
 بادئ الأمر . أما الآن فني وسعك أن تأكلي ، ولكن في اعتدال !

ثم أنبئي أن أتناول الطعام طويلاً على نفقتك يا سيدي :

وكان ردّاً نابياً غاية في السهاجة ، ولكنه أجابني في برودة : « كلا  
 فسوف نكتب إلى أصدقائك متى دلفنا على مكانهم ، وسنعود إلى  
 منزلك » .

- يجب أن أمارحك بأنني لا أملك هذا : لأنني بلا صديق  
 وبلا منزل !



• ونطاع الثلاثة إلى غير مصديقين .. ولم ألتص شكة في نظرائهم ،  
 وإنما مجرد دهشة وعجب .. وأنا بهذا أعني القنازين بصفة خاصة ، لأن  
 عيني سانت جون كانتا - رغم صفائهما - مما يعصب النوص فيها ،  
 وكأنهما كان لا يستخدماه إلا في مسير أغوار الأنصوين ونيس في

الكشف عن أفكاره هو ١.. وكان في نظرائه خيلط من الحدة والاحتفظ مما يبعث على الارتباك لا التشجيع .. وسألي : « أقصدين بقولك أنك لا ترتبطين بأية قرني على الإطلاق ؟ »

— نعم ، فلا رابطة لي بأى حى ، ولا حتى لي في الاتجاه إلى أى منزل بلانجلترا .

— ياله من مركز شاذ بالنسبة لفتاة في سنك !

ثم رأيت نظرة مبددة إلى مدى المفودتين أمامي على المنضدة ، وعجبت لأفكاره ، ولكنه ما لبث أن أوضحها بلغة الكلام قائلا : « أما تزوجت قط ؟ » أعانست أنت ؟ .. فضحكت ديانا وقالت : « كيف ، وهي لا يمكن أن تكون قد تجاوزت السابعة أو الثامنة عشرة تقريباً يا سانت جون ؟ » فقلت : « لئني في التاسعة عشرة تقريباً ، ولكنني لم أتزوج .. كلا ! »

وشعرت بوجه مشتعل يزحف إلى وجهي ، لأنه أبغض بالإلماح إلى الزواج ذكر ياتي المرة الثانية . وشاهدوا جميعاً ما تولاني من الارتباك ، فحاولت ديانا وشقيقتها أعينهما عني . أما النس فقد ظل يقرسني حتى اشتد تضرع وجهي بالدعاء ، واغروقت عياني بالدموع ، فسألني : « وأين كنت تبقيين آخر مرة ؟ » .. وهما تحففت ماري في خفوت : « إنك تكثر من الأسئلة يا سانت جون ؟ » .. ولكنه انكأ على المنضدة ، ورمقني بنظرة أخرى من نظرائه الرصينة الشافية يتعجلني الرد . فقلت : « إن اسم المكان الذي كنت أقبع فيه ، والشخص الذي كنت أقبع معه ، من أمراوى . » فقالت ديانا : « فمن حقلك — ق رأي — أن تخفيه عن

مستر سانت جون ، وعن كل مسائل ، إن شئت . » وإذا ذلك قال النس : « ولكني لن أستطيع مساعدتك إذا لم أعرف شيئاً عنك وعن تاريخ حياتك ! » إنك في حاجة إلى العمود .. أليس كذلك ؟ .. فقلت : « بل .. لئني في حاجة إليه وأطايه يا سيدي على يد حب حقيق للإنسانية . يربني طريق الوصول على عمل أستطيع أن أؤديه . وأن أكسبها منه الأجر الذي أعيش منه ، والذي يوفر لي ولو أوزم ضرورات العيش ! »

— لئني لا أدري ما إذا كنت عبقاً صادقاً للإنسانية — بالمعنى الذي تقصدينه — ولكنني أراغب في مساعدتك بقصاري ومعنى الوصول إلى عمل شريف . ولكن عليك أن تقررين بما اعتدت أن تفكر فيه : وما تستطيعين أن تفعليه .

وكنيت قد شربت الشاي ، فشعرت بعد هذا الشراب باعتاش لا يشابه الاعتاش المنبعث من التبدد المعنى ، فقد سرت في أعصابي قوة جديدة مكتنزة من غداية هذا القاضي الشاب . انقلب النظرات — بكل ثبات — فاستمرت إليه وبداثة نظرة بنظرة في صراحة لا يشوبها تريب وقلت : « لقد أسليت إلى يا مستر ريفرز — أنت وشقيقتك — خدمة كبيرة لا تداليها خدمة أي إنسان آخر في الإنسانية . فقد أقصدتوني بكرمكم الجليل من الموت .. وهذا الجميل بمنحكم الحق في أن أشكركم وأعترف بفضلكم . ولي أن تكملوا — إلى حد ما — موضع نقى . ولذلك سأروى لكم من تاريخ الفتاة الشاردة التي أوتسوها القادر الذي أستطيع الإقضاء به دون أن أعكر صفو بالي ، ودون أن أعرض أمتي — وأمن

الخير - فخطر أدنى أو مادي ، فأنا بتيمة ، وابنة فسيس ، وقد مات والداي قبل أن أعرفهما ، فتشأت عالة على غيري ، وتعلمت في معهد خيري - سأخبركم باسمه - حيث قضيت ست سنوات في طلب العلم ، ومنذئذ كعامة .. إنه يدعي ملجأ اليقائات في ( لو وود ) ، فهل سمعت به يا مستر ريفرز ؟ إن الأب روبرت بروكلهرست يفتق عليه .

- سمعت باسم مستر بروكلهرست ، ورأيت المدرسة .

- ومنذ عام واحد تقريباً ، طافرت ملجأ ( لو وود ) لأعمل مربية خاصة وهي وظيفة طيبة سعيدت بها ، ولكنني اضطررت إلى تركها منذ أربعة أيام قبل مجيئي إلى هنا . أما السبب الذي حملني على الترحيل ؟ قلت أولئك أن أقصى به ، لأن الإقصاء غير محدد ، وخطر ، ففضلا عن أنكم لن تصدقوه . على أنه لا لوم علي في ذلك ولا تريب ، بل إنني لا أقل عن أي فرد من ثلاثكم بعداً عن الحرم . إنني متعبة وسأظل كذلك زمناً ، لأن الكارثة التي طوحت بي من المنزل الذي ظننته جنتي كانت كارثة غريبة مروعة ، ولم أكن معنية في قرارى بغير نقطتين : المروعة والتحكم .. ولما وقع هذه الغاية ، تركت خلفي كل شيء عدا حزمة صغيرة نسبياً - لمحتلي واضطرابي - في العربة التي أقتني إلى ( هويتكرورس ) . وإلى هذه المنطقة جئت بأثقة الفخر والعوز ، فبت ليبلين في العراء ، وهدمت على وجهي يومين دون أن أجد عتبة من الأعتاب ، ولم أذق الطعام في تلك الأثناء سوى مرتين : إلى أن أشرفت على الخلاك جوعاً وتعباً وفوقاً ، فالتفتلني أنت يا سيدي من الموت أمام بابك ، وأخذتني تحت سقفك : وقد عرفت ما فعلته خفيقتك من

أجلى : لأنني كنت غريبة عن الوعى أثناء ما حبستموه سياناً عبقاً ، فأنا مدنية لرحمتها الأسيلة غير المدسطة ، بقدر ما أنا مدنية لإحسانك المتبست من قلب يعرف الإيمان .

\*\*\*

● وإذا أجدت إلى قصص . قالت ديانا : « لا تحبها الآن على مزيد من الكلام يا سانت جون ، فلانها لا تحتمل الانفعال ، تعالى واجلسي على هذه الأريكة . يا مس اليوت » . فارتفعت بجملة - على الرغم مني - عندما سمعت الاسم المستعار ، إذ كنت قد نسبت اسمي الجديد ، ولكن مستر ريفرز - الذي لم يكن يقوته شيء - سرعان ما لاحظ ذلك وقال : « ألم تقول إن اسمك جين اليوت ؟ » . فأجبت : « قلته ! .. فهذا هو الاسم الذي أراه مناسباً في الوقت الحاضر ، ولكنه ليس اسمي الحقيقي . ولذلك كان له وقع غريب في أدنى عندما سمعته » .

- ألا تذكرين اسمك الحقيقي ؟

... كلا فإن أعطى ما أشتهاء أن يكشف أمري وأحب أن أعاشي ما قد يؤدي إليه هذا الكشف !

فقالت ديانا : « إنك على حق .. والآن أرجو يا انجي أن تتركها قليلاً في سلام ! »

ولكن ما إن أطرق ( سانت جون ) بفتح لحظاته ، حتى عاد إلى حديثه بريافة جاش وبراعة كعادته ، فقال : « إنك لن تقبلي أن أن تركني إلى ضيافتنا ملووبلا ، إذ ترغبين في التخلص - بأسرع



ما تستطيعين - من حنان وعطف شقيقتي ومن إحساني ( على الأخص )  
رغبة منك في الاستقلال بنا :

- هو ذلك ، وقد قلته من قبل - فأرأي كيف أعمل ، وكيف  
أجد عملاً - هذا كل ما أوجوه ، وبعد ذلك دعني أذهب ولو إلى آخر  
كوخ ، ولكن لا تطردني من بيتك - قبل أن يتم ذلك - وأبقي هنا  
لأنني أحتاج أية تجربة جديدة بين أهوال القشر والظافة .

فقلت ديانا وهي تضع يدها البيضاء على رأسي : « لسوف تبقي  
ولا شك » .. وكررت ماري ذلك بلهجة من الإخلاص بدت طبيعية  
إذا قالت : « ستبكين هنا ! » . فقال منتر سانت جون : « إن شقيقتي  
تبهجان - كما ترى - يقاتل ، ابتهاجها بإيواء وإكرام ملائكة طوح  
به إليها رباح الشتاء وهو موشك على الموت يراد . ولسوف أعيتك على  
أن تكفي نفسك . ولكن أرجو أن تلاحظي أن مطلقتي صغيرة ، وأني  
أست أكثر من قسيس لأبرشية صغيرة فقيرة ، ولذلك ستكون مساعدتي  
فعليلة غيراضحة . فإذا لم ترق في غيبك يوماً من الأيام وجب أن  
تجني لك عن معاونتي أكثر مما في طاقتي . » فأجبت ديانا أنني قللة :  
« لقد قالت لي رغبة في أني عمل شريف تستطيع القيام به ، وأنت  
تعلم جيداً يا سانت جون أنها ليست مطلقلة الحرية في اختيار من يساعدونها  
ولكنها مكرهة على أن تلجأ إلى أملاكك من الأملاك ! » . فقلت :  
« يومسعي أن أكون حاكمة ، أو عاملة .. بل سأعمل خادمة أو مربية  
إذا لم أجد خيراً من ذلك ! »

فأجاب منتر سانت جون في برود تام : « حسن : إذا كانت

هذه روحك فإنني أعذك بالمساعدة في الوقت الذي أراه وبالطريقة التي  
أختارها . » ثم عاد إلى كتابه الذي كان مشغولاً به قبل الشئ . وسرعان  
ما انسحب ، إذ كنت قد تحدثت كثيراً وجلست طويلاً ، وأظلم شعبي  
ووهني .



### الفصل الثلاثون

● أخذت جني لأجل ( مور هاوس ) يزاد كلما ازدادت معرفة بهم :  
ولم تنفص سوى أيام قليلة حتى استرددت حشني ، فاستطعت الجلوس  
طوال النهار . وأقضى في الخارج في أحيان كثيرة ، والاشتراك مع  
( ديانا ) و ( ماري ) فيها كانا تصلاان ، والتحدث معهما فيما يخلو  
لها ، ومعاونتهما كلما صححتني .. ووجدت في معاشرتها لذة تعجبني موات  
النفس !.. لذة من نوع لم أندوق مثله من قبل ، لأنها أبغشت عن  
نجانس تام في الأدواق والعواطف والمبادئ . فقد أحببت قراءة ما كان  
يطيب لها مطالعته . وكان ما يروق لها يهيجني . وما تحيلان إليه يلقى  
تضديراً مني .. وكانا تحبان منزلهما الضعيف ، وكذلك أحببت أنا ذلك  
المبنى الصغير العتيق ، بسطحه المنخفض ، ونوافذه الموشاة بالبنسات  
الزاحفة . وجدواته المكسوة بالأخشاب المنسلقة ، وذلك الغرب المسته  
بين صفين من أشجار الشربين التي كانت تنمو مائلة تحت دفع الرياح  
الجليلة ، والحديقة المكتظة بأشجار السدر والتي لم يكن يتبع فيها إلا أقوى  
الزهور احتمالاً .. وأقيمت في كل ذلك صبراً قوياً مستديماً !

وكانت الفتاتان تبهجان بالآجام الأرجوانية المنسدة خلف المنزل

وجوله . وبالأولى الخفيف . والطريق الموصوف بالحصى . والذي كان يقضى مسجداً من جسوفه إلى باب البيت . ويتعرج ويعلو بين الشطآن المكسوة بنبات السرخس . ثم بين بعض الحقول التي تحف بالأحجار الموحشة . والتي تربي عليها الأغنام الشبيهة والحراف الصغيرة الأجسام . الموفورة الصوف . بل إنني لأذهب إلى القول بأن الفئتين كانتا متصلتان بهذا المنظر في حاشي صادق . ثم ، ما لبث أن أدركت مبعثه . فشا طريده إياه . ولست مثلهما فتنة هذا المكان . وشعرت بقداسة هذه العزلة . وتعمت عيشي بذلك الآفاق . كما نعمت بالألوان التي كان يحلها الطحلب والنباتات والزهور البرية على القسم والوديان . وأصبحت تلك المعالم بالنسبة لي . كما كانت بالنسبة للفئتين . معث غبطة مسابقة . عذبة . وصارت الريح الموجه والنسيم العليل . اليوم العاصف واليوم الهادئ . وساعات الشروق وساعات الغروب . وضوء القمر . وديكور الليل المليد بالمحجب . صارت كل هذه تفتني بقدر ما كانت تفتن الفئتين . وتغمر مشاعري بقمس البحر الذي كانت تغمر به مشاعرهما !

كذلك كان الانسجام تاماً بيننا في داخل الدار . فقد كانت الفئتان متفتنات . وأكثر مني اطلاعاً . ولكنني رحت أفتن آثارهما . في فوق وشغل . في طريق المعرفة الذي سلكته قبل . وأوقات ألهم الكتب التي كنت أستعيرها منها . وأجد متعة في أن أناقشهما في المساء في مطالعة أثناء النهار .

وإذا كان الشاعر رائس وزعيم . فقد انعقدت الزعامة الديوان لي

كانت تفرقنا في الجسم . كما كانت طريقة ذات عز ومضاء . أما حيويتهما فكانت دنيا في آخره أثارت دهشتي وإن دقت على فهمي . وكنت أعادت قليلاً في صدر الماء . حتى إذا تقدمت معنى ورايتني ملائقي . جلست على مقعد خفيض عند قدمي ديانا واعتصمت برأسي على ركبتيها ورحلت أصغى بالتتابع إليا وإلى أختها ماري وهما تدبران الموضوع الذي أكون قد أثرته . وحرصت ديانا أن تعطيني الأمانة . فأجبت أن أعلم على يديها . ورأيت دور المعلمة يرعينا ويلائمها . كما كان دور المعلمة يرعيني ويلائمني بعد أن توافقت طبعاً وتبادلنا الحب نتيجة للملك . واكتشفت الشيفان التي استطاع الرسم فسرعان ما كانت أقلامهما وعلب ألوانهما في خدمتي . وقد أدهشتهما وقتبتهما مهارتي وتسلوقي عليهما في هذه الناحية . فأخذت ماري تجلس بجانبني وأراقني ساعات طويلة . ثم تلقى على يدي دروساً في الرسم تظهر في أثنائها أنها تلبسة طيبة ذكية مثابرة . وهكذا مرت الأيام كأنها ساعات والأسابيع كأنها أيام .



● أما مستر سانت جون : فإن المودة التي توطدت بينه وبيننا تصنع بيني وبين شقيقته لم تعد إليه . لأنه قلما كان يمكث في المنزل . والظاهر أن جزءاً كبيراً من وقته كان مكرساً لزيارة المرحلي والفقهاء من سكان أيروشة الثنايين . ولم يكن في نوع من أنواع الغضب لبعده عن القيام بهذه الزيارات الخلوية . فلم يكن يبالي . متى انتهى من ساعات دروس العنباح . يعط أو يحو . بل كان يتناول قهقهة ويخرج

ليؤدى رسالة الحب والواجب ، يتبعه (كارلو) كلب أبيه .. ولست  
أدرى في أى ضوء كان ينظر إلى رسالته هذه : فقد كانت شقيقتاه في  
اليوم غير اللامع متعرضان على خروجه ، ولكنه كان يجيبهما بإبتسامة  
عجيبة فيها من الرزاق أكثر مما كان فيها من الإبتهاج : «إذا كانت  
نفحة من ربيع أو نثار من الخمر بمعنى من أداء هذه الواجبات السهلة ،  
فأنى مستقبل أرجوه لنفسي يمثل هذا الكسل والاسترخاء ؟ » وكان رد  
ديانا ومارى على ذلك يمثل عادة في زهرة وبعض لحظات من التفكير  
الآسمى .. على أنه كان ثمة حائل آخر - إلى جانب هذا التفتت الكثير  
الدائب - يمنع من أن يصادقني .. فذلك أنه كان متحفظاً شاردة الفكر ،  
كثير التأمل بطبيعته . وبالرغم من أنه كان لاصع السيرة ، غيوراً على  
واجبه الكنسي ، إلا أنه كان - على ما يظهر - يتعمق بذلك الهدوء الفكري  
والرؤي الداخلي الذي يتعمق به كل رجل ديني يحب للإنسانية ، خلفه  
ظالماً شاهده - وهو جالس إلى مكتبه يطالع أو يكتب - يأتي بالكتاب  
أو القلم ويحدث بدفته على يده ، ثم يسلم نفسه إلى أفكار لم يكن أدرى  
في أى طريق تنجده ، ولكنها كانت ولاشك مزعجة مثيرة . كما كان  
يوحى فياين وميض عينيه واتساع حلقته .. وأحبب كذلك أن الطبيعة  
لم تكن له - كما كانت لشقيقته - مصدر بهجة وغبطة .. ولقد تغير  
مرة - ولكنه لم يفعل على مسمع منى سوى مرة واحدة - عن إعجاب  
قوى بما كان لتلال من صخر عيسى ، وعن حب غريزي لغيره أنه  
القائمة الحقيقة التي كان يدعوها منزلة 1 .. بيد أن التهمة والكتابات التي  
عبر بها عن إحساسه هذا ، كانت تنم عن اكتئاب أكثر مما أوحى

بإبتهاج . كما أنه لم يكن يتجول في أنحاء الفروج والأجام حياً في مسكونها  
التي يبدى الأصحاب . ولم يكن يبحث أو يعنى بالآلاف من مباحثها  
اليسامة !

ونظراً لهذه في العثرة والاختلاط بالغير ، فقد انقضت فترة  
طويلة قبل أن تسجل في القردية لسبر غور أفكاره . وقد أدركت مداها  
لأول مرة عندما سمعته يحد في مكتبته في (مورثون) . ويبدو لو أقوى  
على وصف تلك اللحظة . ولكن هذا فوق مقدورى : بل إننى لأمستطيع  
حتى بيان التأثير الذي تركته في نفسي . فقد بدأت ملحوظة هادئة :  
«الواقع أنها - من حيث ارتفاع الصوت والإلقاء - ظلت هادئة حتى  
النهاية .. ولكن سرعان ما أغرى حارس مكبوح في تيراه الواضحة ،  
فراح يستحب الكلمات العنصرية ، فإذا بها تزداد قوة .. ولكنها كانت  
قوة مضطربة ، مكبحة العنان .. واهتز القلب ، ودخل العقل ، لقوة  
الاعتدال . وكانت تشع في العظة مرفوعة عجيبة .. كانت تعوزها الرقة  
المسرية : وتعددت فيها الألطاف القاسية إلى عقائد » كالقصر  
الإصلاحية - كالاتجاه والردى ، وكالفضاء والقدر - والاستكثار -  
وكان لكل لماعة من هذه . وقع الحتم بالإعدام . فلما انتهى من خطابه :  
لم أشعر بأنى حدوث بخبرته أحسن حالا أو أعداء بالاً أو أكثر انشراحاً .  
ولمما غشيت شعور بالحزن والألمى ، إذ أدركت - أكثر من غيرى -  
أن هذا البيان النصيح الذي كتبت أضفى إليه إنما ينبعث من أعماق يشوبها  
عكر اليأس ورواسب القنوط ، وتضطرب فيها بواعث مقاطع لاهن  
وأمال لا تشع .. ووجدتني أوقن من أن سانت جون ديفر وإن كان



نقى التبرقة ، حتى الضمير ، شليد العبرة ، إلا أنه لم يجد هدوء الروح  
والنفس ، الذي يمل عن التهم .. وطاف بطائري أنه .. في ذلك .. لم  
يكن أسعد خلقاً من وسط أحراني المكتومة ، المتأججة .. أحراني على  
معيدي الذي تحطم وفر دوسى الذي ضاع .. أحراني التي تجتبت لغيراً  
أن أشير إليها ، وإن ظلت تتدبني وتعلنني بلا راحة أو هوانة .



● والقضى في تلك الأثناء شير ، فاقرب موعد رحيل ماري وديانا  
عن ( مور هاوس ) لنعودا إلى الحياة البعيدة المختلفة التي كانت تنظرها  
كمريتين ، في إحدى المدن الكبيرة الختوب إنجلترا . حيث تحصل  
كل منهما في أسرة غنية متعالية تعتبرها تابعة وضيفة ، ولا تقدر من أياها  
إلا بالقيام الذي تقدر به مهارة الطاهية أو ذوق خادمة المائدة ! .. ولم  
يكن مستر سانت جون قد حدثني بشيء عن العمل الذي وعد بالحصول  
عليه من أجلي . فإذ وجدتني وحيدة معه ذات صباح في حجرة الجلولس ،  
لبضع دقائق ، أحرأت واقتربت من فجوة المائدة القريبة من مكتبه ،  
وهضمت بأن أحدث . وإن لم أترك كيف أصوغ سؤال أمام جليله المتحفف  
الذي كان يمسو طباعه . ولكنه كضاي تلك المشقة بأن يبدأ الحديث ،  
إذ سألتني عندما اقتربت : « هل لديك ما تسأليني عنه ؟ »

.. نعم أود أن أعرف عما إذا كنت قد سمعت بعمل أستطيع  
أن أقدم للقيام به ؟

.. لقد وجدت ، أو بالأحرى ابتكرت عملاً لك منذ ثلاثة أسابيع ،  
ولكنني عندما وجدتك تقضين وقتك في مرور واعتباط مع شقيقتي

هنا ، رأيت من عدم اليقظة أن أذكر سفير سعادتك إلى أن يحين وقت  
سفرهما .

.. لسوف تسافران في مدى ثلاثة أيام .

.. نعم . وسأعود إلى منزل في ( مورتون ) بعد سرحا ، وسأذهب  
حثة معي ويطلق هذا المنزل العتيق .

ثم سكنت . فانتظرت أن يعود جدتي في الموضوع ، ولكنني رأيت  
أفكاره قد شغلت بأمهات أخرى ، وشردت عني وعن عملي ، فاضطرت  
إلى أن أنبهه إلى الأمر الجيوى الذي يحثني . وسأله : « وما نوع العمل  
الذي وجدته بأفستر ريفرز ؟ » أرجو ألا يؤيد هذا التأخير في صعوبة  
الحصول عليه .

.. كلا ، إنه يتوقف فقط على أن أعرضه عليك وأن تقبله .

ثم سكنت ثانية ، زهداً في الحديث ، فبظنا صبرى وانتمست على  
وجهي نظرة قلقة أغتت عن الكلمات فقال : « لا تعجل . بل دعيني  
أضربك بصرحة أن ليس لدى شيء واضح أو دو فائض أقدمه لك .  
وقبل الشرح أرجو أن تذكرني ماقله ، وهو أنني إذا قدمت لك مساعدتي  
فلنأخذ أن تريد على مساعدة الأعمى للمقعذ ، إنني زجسل فقير . وقد  
اكتشفت هذه الحقيقة بعد أن سددت ديون أبي . فوجدت أن كل  
ما تبقى هو هذا البيت العتيق المتداعى ، ونصف من أشجار الشربين  
العقيمة ، والأرض الحشاة الممتدة أمام الدار .. وأنا ما أزال تكرة ..  
إن أعم ( ريفرز ) عريق ، ولكن الثلاثة الوحيدين من سلالة كما  
تربهم : اثنتان تكسبان عيشهما بخدمة الأغراب ، والثالث يعتبر نفسه

غريباً عن بلده ، لا في الحياة فحسب ، بل وحتى في الموت .. أجل ، وإنه ليظن .. ويحد نفسه سوفاً إلى الفن .. بأنه لن يبقى التكريم من قومه ، ولن يتاح له أن يلهمهم إلا بعد أن يعمل على كفاية ملتبس التحرر من روابط الجسد ، وعندما يثبت به قائد الفاعلين من رجال الكنيسة .. الذين يعتبر نفسه أهلاً شاملاً .. أن : « تم وإتبعني » .

نظرت سالت جولة هذه الكلمات بنفس الصوت الحاد العبي الذي يلقى به مواظله ، وقد غارت وبتتاد ، واتبع من عينيه برين وهاج . ثم استقر : « وما كنت فقيراً ، نكرة ، فليست أمك أن أقدم لك سوى عمل فقير ، متواضع ، وقد ترون في ذلك حيلة ، إذ أنني تبيئت أن عادتك لما بسببه الناس : « راقية مهذبة » ، ولأن أخواك تنحوا إلى السوء ، ولأن مثلك كان بين المتففين .. على الأقل ، على أنني لا أرى حيلة لي أني عمل يؤدى إلى تحسين لغتنا ، التي أعده أنه كلما اشتد جذب الأرض التي يقدر على المسيحي العامل أن يتعهد في حوتها ، ومهما تضاعف ما يستلزمه منها ، كان نصيبه من التكريم أسنى .. إذ حظه إذ ذاك حظ الفاعل في الطليعة ، والرائد .. وقد كان أول الزوائد في الإنجيل هم الحواريون .. أرسل .. وكان قائدهم هو المسيح ، المنفذ والمخلص : » .

وإذا عاد إلى السكون ، قلت : « حسناً ، استمر ! » . قطع إلى مكانه بقراً وجهي . كما لو كانت أسارى حروفاً مخطوطة ! .. وعبر عما استخلصه من هذا التخصيص بالعبارة التالية : « أعتقد أنك ستقبلين المهمة التي سأعرضها عليك ، وستؤدونها .. لا بصفة دائمة ، وإنما إلى

أجل . فإن في طبيعتك ما في طبيعتي من عوامل تأخذ من الراحة .. وإن كانت عواملك من نوع غير نوع ما لدي ! » .

وأخذت للصمت مرة أخرى ، فقلت : « أرجو أن تزيدي إيضاحاً ! » .

— سأفعل ، وسترين كم هو فقير ، تافه هذا الاقتراح .. إنني لن أقوم طويلاً في « مورتون » بعد أن توفي والدي وأصبحت أمك زمام نفسي .. ومن ثم فربما غادرت هذا المكان في غضون اثني عشر شهراً ، ولكنني إن أكثف .. غادرت مقيماً في المنطقة — عن بدل قصارى الجهد في سبيل تحديق حاشا : « عندما قدمت إلى « مورتون » — منذ عامين — لم تكن فيها مدرسة واحدة ، بل كان أطفال الفقراء يرومون من كل أمم في الشوارع .. ومن ثم قد شهدت مدرسة للبنين ، وقد قررت أخيراً أن أسس مدرسة أخرى للبنات ، فاستأجرت مبنى لهذا الغرض ، وكوّنوا يتصل به ويضم شرفتين ملحقة بالمدرسة التي سيكون مرتبة ثلاثين جنباً في العلم . وقد أتممت تأثيث مسكن المعلمة هذا ، بثلاث بسيط ولكنه كاف ، وهناك مجموعة « مس أوليفر » : « الابنة الوحيدة للرعى الوحيدة في أبراشيق .. وأعطى به جستر أوليفر ، صاحب مصنع الإبر والمبيك القائمين في الوادي .. وشكك كل هذه السيدة .. مس أوليفر — بنفقات تعليم وكساء فتاة يتيمتها من الملقا لتعاون معلمة المدرسة في الأعمال المنزلية والمدرسية البسيطة ، التي تحول واجبات المعلمة دون أن تباشرها بنفسها . فهل تفكرين أن تكلمي هذه المعلمة ؟ » .

\*\*\*

• ألقى حباله هذا في شيء من العجالة . وكأنه يخشى أن أرفضه في شهم

وليام ، غير مارك حفيظة أفكارى ، ومشاعرى . بل إنه كان يشترك بعضها ، إلا أنه لم يكن يجرى على أى ضوء سيبدينى الأمر . والواقع أن العمل كان متواضعا ، ولكنه كان يكفل لى المأوى .. وكنت بحاجة إلى مثل هذا المأوى الآمن .. كان عملا شاقا ، ولكنه إذا قورن بعمل المربية فى منزل من منازل الأثرياء ، اعتازت به بالاستقلال . ثم إن الخوف من رغبة الأعراب كان يثقل على نفسى ، فى حين أن هذا المقترح لم يكن يطوى على جوانب أو ضعة لوائى المتهان لئلى . ومن ثم حزمت أمرى وقلت : « أشكر لك اقتراحك يا ماستر ريفرز ، وأقبله راحية » .

— يجب أن نفهمى أنها ستكون مدرسة قروية . وأن تلميذاتك سيكون من البنات الفقيرات .. وبنات الفلاحين والمزارعين على أقصى تقدير . وسيكون التطريز والخبز والفرازة والكتابة والحساب هو كل ما تعلمه هن . فإذا تصغيرى بشافتك وبفنتك الكثير ، وإحساناتك وفوقك ؟

— سأدخلها إلى وقت الحاجة ، ولن تبتدىء !

فسألتى : « إذن فهل عرفت مهنك ! » . وكان جوابى : « عرفت ! » وإذا ذلك اليتم .. ولم تكن ابتسامة مبررة أو حزينة . وإنما كانت ابتسامة الارتياح والشكر العميق . ثم قال : « ومتى تبدئين عملك ؟ » . فقلت : « سوف أذهب إلى مسكنى هناك فى غد » . ثم أفصح المدرسة فى الأسبوع القادم إذا شئت . فقال : « حسنا .. ليكون ذلك ! » .. ثم نهض وراح يلبس العرق وما لبث أن توقف عن السير ليأتىنى . وهو رأسه منك : « ترى ما الذى لا يروقك يا ماستر ريفرز ؟ » .

— إن تمكنتى طويلا فى ( مورتون ) .. كلا ، كلا !  
— لماذا ، وماذا يجعلك على هذا القول ؟  
— قرأته فى غيليك .. إن وميضها لا يوحى بالثبوت بحياة تسير على وتيرة واحدة .  
— أنا لست طموحة .

فأجفل إذ سمع كلمة « طموحة » وعاد يقول : « لا ! .. وما الذى دعاك إلى التفكير فى الطموح ؟ من هو الطموح ؟ أعرف أبى كسفت . ولكن كيف اعتديت إلى ذلك ؟ » . فقلت : « إنما كنت أتحدث عن نفسى » . فقال : « حسنا .. إذا لم تكورنى طموحة فأنت .. » . وأمسك . فقلت أستحبه : « ماذا ؟ » .

— كنت أهم بأن أقول : « عاطفية » . ولكنى خشيت ألا تفهمى الكلمة فسمعتنى . أظنى أن الحب الإنسانى والوجدانيات ليست بالسهل . وأنا واثق من أنك لن تفهمى طويلا بفضاء وقت الفراغ فى عزلة وانفراد . ويشكرى ساعات العمل الجهد رتيب خال تماما من المثيرات . وأنا كنت أكثر منك قناعة بأن أعيش مدفونا فى هذه البضاح التى تكتنفها الجبال من كل ناحية . إن مواهبى التى منحنى إياها السماء قد شلت . وبها قد سمعنى الآن أنا أقصى نفسى ، لأن هذه هى طبيعتى التى وهبى الله إياها .. أنا الذى يومى الناس بالقناعة .. أنا الذى يبرر الناس — حتى الخطابين منهم والسقائين — مهنهم الرضعية .. أنا فسيح أفق . أعرف متعلما فى نوبات القلق . مع أن التذخرات يجب أن تتشرب مع البساطة بطريقة ما ! !



● وغادر الحجرة : وهكذا عرفت عنه خلال هذه الساعة الوجيزة  
 ما لم أعرفه خلال شهر كامل مضى ، ومع ذلك فقد ظلمت في حيرة من  
 أمره .. وكان وجود ديانا وماري وصحبتهما يزادان كلما اقترب يوم  
 فرأتهما لأخيها ومنزلها . وحادثت الاثنتان أن قيسوا عادتيتي ولكن  
 الأمر الذي كان عليهما أن تناضلاه ، كان أقوى من أن تستطعا معالته  
 أو إخطائه . وقد أشارت ديانا إلى أنه سيكون فرقا مختلفا كل الاختلاف  
 عما عهدناه . بل إنه كان من المحتمل - بالنسبة لسانت جون - أن يكون  
 فرقا لسنوات ، ثم ربما كان فرقا إلى الأبد . وقالت : « سوف يضحي  
 أخي بكل شيء على مذهب أغراضه البعيدة . وهي : الحب الطبيعي  
 والمشاعر الطبيعية التي ما تزال تزداد قوة في نفسه . إن سانت جون يبدو  
 هادئا ياجين . ولكنه يخفي في حشايا صدره شيء . ولقد تعجبته رفقا  
 ولكنه في بعض الأمور كالملوث ، لا يرحم ولا يلين . وأسوأ ما في  
 الأمر أن شميري لا يفتوغي على ربه عن قراره القاسي . والواقع أنني  
 لا أستطيع أن أكون عليه بخلاف من الأحوال ، لأنه قرار سليم قبل شيء  
 ولكنه يعظم قلبي . »

واخبرورقت عنها بالتمعن ، بينما حدث ماري وأنها مظهرة  
 بالانكباب على عملها وضغمت قائلة : « إننا الآن بلا أب . ولن نلبث  
 أن نغدو - عما قريب - بلا داور أو أخ . »

ووقع في تلك اللحظة حادث كانما بعث به الأقدار عذبة لتزيد المثل  
 القائل بأن المصائب لا تأتي فرادى ، ولتضيق إلى كثر وبهم وتكسبهم  
 همجاً جليداً ، فقد مر ( سانت جون ) بالثائرة وهو ينزل خطاباً ، ثم

دخل يقول : « لقد توفي خالنا جون . » فبادر القهول على كنه الشقيقتين .  
 وإن لم تر وعهما المفاجأة أو تنزعهما . إذ خيل إليهما أن الشئ خطير أكثر  
 منه عزلاً . وكررت ديانا : « توفي ؟ » فقال أخوها : « نعم . » وإذا  
 بالمارمسة بنظرة متسلطة . وقالت بصوت خافت : « وماذا بعد ؟ »  
 فأجابها وقد اتخذت أسارى صورة جامدة أشبه بالرخام : « وماذا  
 بعد ؟ .. لاشي .. أقرئي . »

والتي بالخطاب في حجرها ، فأثقت عليه نظره . ثم سلمته إلى ماري  
 التي راحت تطلعه في حمت ، ثم أعادته إلى أخيها . وراح الثلاثة  
 يتبادلون النظرات ويتخسون انبساطاً موحشة كئيدة . وأخيراً قالت  
 ديانا : « الأمر قد .. في وسعنا مع ذلك أن نمشي . » فقالت ماري :  
 « إن حالنا - على أية حال - لم يزد سوءاً على ما كانت عليه . » وقال  
 مستر ريفرز : « كل ما هنالك أنها تضطربنا إلى أن نقارن ما نحن فيه  
 بما كان في الإمكان أن نكون عليه . بصورة واضحة . ثم طوى  
 الخطاب وألقى عليه درجته . وخرج مرة أخرى . »

وانقضت دقائق لم تبس واحدة منا بيتت شقة في أثناها .. وأخيراً  
 انتهت ديانا إلى وقالت لعدتي : « إنك متعجيب يا جون من أمرنا ومن  
 أمرانا ، فو قد تعجبنانا غلظة القلب . لا تنأر لموت أقرب  
 الناس إلينا . كمخالفة . ولكننا لم نره ولم نعرفه . » لقد كان شقيق  
 ثم ولكنه تنازع مع أبي مدة زمن بعيد . لأن أبي جارف يعظم مملكته  
 في المضاربات عملاً بصيغة خالي هذا ، فأطلس .. وتبادل الاثنان  
 السباب واقتربا منخاصين . دون أن يسطلحا بعد ذلك . ثم اشتغل

خال في مشروعات نأجحة أصاب من وراثتها - فيما أعتقد - عشرين ألف جنيه ، ولكنه لم يتزوج قط ولم يكن له أقارب أقرب منا ، سوى شخص آخر لا يترنأ في القرى - وقد ظل أبى يعتقد أن خال سيكفر عن غلظه بأن يترك لنا ممتلكاته ، ولكن هذا الخطاب تغيرنا بأنه وجب كل أمواله لقرينه الآخر - فبا عدداً ثلاثين جنيهاً تقسم بين سائت جيون وديانا ومارى ريفرز ليضربوا بها ثلاثة أخواتهم يلبسوها جدداً عليه ... وليس من شك في أن ته الحق في عمل ما يروق له ، ولكنه مع ذلك تلقينا بجبر موته بهرود عايرة - لقد كنت ومارى نعتبر أننا مستضيح من الأغنياء إذا ظفرت كل منا بألف جنيه - كما أن لهذا المبلغ قيمته عند أخفى سائت جيون - إذ يمكنه من الجيز الذي يسعى لعمله ... وبانتهاء هذا الشرح - أسقط الموضوع - ولم يشر إليه أحد بعد ذلك ، سواء في ذلك مسير ريفرز أو أخطاه ، وفي اليوم التالي غادرت (مارى) (الند) إلى (مورتون) - وفي اليوم الذى يليه غادرت ديانا ومارى إلى مكان بعيد - وبعد أسبوع - توجد مسير ريفرز لوحدها إلى بيته ... وأصبحت الدار القديمة مهجورة !

\*\*\*

### الفصل الحادى والثلاثون

● كانت مترو - عندما وجدت في النهاية متريلا - عبارة عن كوخ مؤلف من غرفة صغيرة طليت جدرانها بالجير الأبيض وغطيت أرضها بالرمال - واحتوت على أربعة مقاعد ومضدة وساعة وصوفان به طيات أو ثلاثة وطابق شأى خزانة - وفوق هذه الغرفة حجرة مائة في

المساحة ناعطيج - وبها فراش من خشب الموسكى وصوفان ذو أذراج - كان صغيراً ولكنه كان يتسع للأبسى القليلة - التي رادت يعطف أصدافى اللطاف الكرام بعض أشياء متواضعة ولكنها ضرورية - وجاء المساء فصرقت البتمة الصغيرة التي تتولى خدمتى ، بعد أن منحتها برتقالة كأنجر لها ، ثم جلست وحدى عند حافة المدفأة - وكانت مدسة القرية قد فتحت في هذا الضياع - فجاءت عشرين فتاة لم تكن تعرف القراءة منهن سوى ثلاث ، ولا يعرفن جميعاً الكتابة أو الحساب - بينما كان أكثرهن على المسام بأشغال الإبرة - وقليلا من جدد من عرفن الحياكة ... وكمن جميعاً يتحدثن بلهجة المقاطعة على أوسع صورة ، فوجدت عناء في فهم لهن - وكانت بعضهن بلا خلق وعششات جوجات حاضلات - ولكن الأخريات كن دمطات سلمات القياد - بين رغبة في التعلم وتدين ميل لإرضائى .. ولا يقوئنى أن أذكر أن هؤلاء الفلاحات الصغيرات الخشعات الشياب كن من لحم ودم كينات قبل الأسرات ... وإن بنور النطق والرقعة والدكاء والرجة يمكن أن تكن في قلوبهن عقل ما يمكن في قلوب خير الفتيات نشئة وتربية .. ومن ثم فقد كان واجبى أن أتعهد هذه البذور - ولم أشك في أننى سأتق سعادة في القيام بهذه المهمة - وأن أتوقع متعة كبيرة في الحياة المظنعة أنامى ، وما كان هذا ليصدق بلا ريب ، إلا إذا نظمت خواطرى وعلت ما وسعنى على أن أفتح بالحياة من يوم إلى آخر . ترى هل كنت غاية في الانبهاج والاستقرار والرضى في أثناء الساعات التي قضيتها في حجرة القراءة العارية المتواضعة أثناء الصباح

وبعد الظاهر ٥. ولكن لا أجد نفسي ، وأنت أن أحبيب بصراحة :  
 كلا .. كنت أشعر بالاشتياق إلى حد ما ، وكنت أحس - لغفائي -  
 أنني قد تجاوزت . وأنتى خطوط خطرة عبطت في ، بدل أن ترتفع  
 في إلى مستوى الوجود الاجتماعي . كما ابتاهت لغفائي للجليل والتفسير  
 وعشوة ما سمعته ورأيتته حول . ولكن لا أريد أن أحقر نفسي كثيراً  
 من أجل هذه الإحساسات ، فإنني أدرك أنها عارضة ، وأنتى إنما خطوط  
 خطرة عظيمة وساحات الغلب على هذه الإحساسات . وأنا والله من  
 أنني سأتمكن في الغد من تغليب خبر ما فيها على أسوأها . علمي أن  
 استطع بعد بضعة أسابيع أن أقضى عليها . ومن الغد أن أرى في  
 تقدم بعض تلميذاتي - بعد شهر قليل - ما يحيل تقزى سروراً وهذا  
 وفي الوقت نفسه ، دعني أني على نفسي سؤالاً واحداً : أيهما  
 أفضل ٦. أن أضع للإغراء وأصغى للهوى ، فلا أبذل أي مجهود  
 مضن ، ألا أناضل وأكافح ، وإنما أتردى في الشرك المحرري ،  
 وأغرق في النوم فوق الزهور التي تغطي ، لأستيقظ في ملقس الجنوب  
 الجليل بين ترف إحدى القبائل ، وأن أعيش في فرنسا خيلة لسم  
 روثستر متشبة بوجه نصف عمرى .. فما كنت لأشك في أنه سيخفي  
 زمناً .. بل إنه أخفى فعلاً . ولن يوليى غيره كل هذا الحب مسرة  
 أخرى ، بل إنني لن أعرف - ثانية - الإكرام الذي يمنح للجال  
 واللباب والبهاء . لأن سواه لن يرى في هذه المئات ١. لقد كان  
 مغرماً ومغوراً في إلى حد لا يشبه فيه أحد . ولكن .. أين مروح في  
 الخاطر ، وما هذا الذي أقول .. بل ما هذا الذي أشعر به ٢. لقد

كنت أسمع : أيها الأفضل : أن أكون نجارية وأمة في خينة عسومة ،  
 أعيش في مدينا سكران بالقوم ساعة ، ثم أختق يدومع الدم والخزى  
 في الساعة التالية : أو أن أكون معلمة حرة شريفة ، بدوسة في ركن  
 جبل محي هضاهه بقلب أجملاً ٣  
 نعم .. لقد بدأت أشعر بأنني أصبت في تمسكي بالمبادئ والقوانين ،  
 وفي احتجاري ومعنى الفورات الملائمة التي أبحث في لحظة حوس وجنون .  
 لقد هدأتني إلى الصواب : فجلداً للعباية الإلهية على أن هدأتني ٤  
 وعلمنا بلقت في تأملات المساء هذا الحد ، قمت ففضيت إلى باب  
 كورني ورحلت أطلع إلى غروب الشمس في ذلك اليوم من أيام الحصاد  
 وإلى الحقول الممتدة أمام كورني الذي كان يبعد - والمدرسة - عن  
 القرية بنصف ميل . وكانت الأظفار تغرد أحياناً الأخيرة .. وكذا قال  
 الشاعر : « كان الهواء عيلاً والتدى بلسماً » !



● وفيما كنت أشرح البصر وأحسبني سعيدة : فوجدت بأن وجدتي  
 بعد قليل أبكي ( غلاد ٢ ) . ثم صير التي قضيت به على ميدي - التي  
 لن يقتدرى أن أراه - إذ انتزعت نفسي بعيداً عنه . للأحزان والحق  
 القائل الذين يبعثان بنفسه - نتيجة زحيل - وربما حدا به عن  
 جادة الحق وطريق الرشاد ، إذا ما استبه به القنوط بحيث لا يدع سيلاً  
 لأمل يعود ١ !

وعند هذه الفكرة ، حوات وجهي عن السماء الجميلة في المساء  
 وعن وادي ( مورتون ) المتعزل .. وأقول المتعزل لأن الجزء الذي



كان يبدو لعيني : لم تظهر فيه من المبادئ سوى الكتيسة وبيت الراعي .  
بكادان يعينان وسط الأشجار .. وفي المؤخرة تماماً بدا سقف قصر  
(فيل هول) حيث كان يقم مستر (أوليفر) الغني وابنته . فاعتصت  
عيني . واعتمدت برأسي على حافة الباب الحجرية . ولكن سرعان  
ما اتيت بالقرب من الباب الذي يفصل بين حديقتي الصغيرة والراعي  
صوت جملتي أرفع رأسي وأرى على التو (الشيخ كارلو) - كلب  
مستر ريفر - وهو يدفع البوابة بألفه ، بينما استند على حافتها سانت  
جون ، وقد عقد ذراعيه . وتطلع إلى تبين عابس ونظرة توحى  
بالامعاض . فطلبت إليه أن يدخل ، ولكنه قال : « كلا . لا أستطيع  
الذهاب . فقط جئتك بعقد صغير تركته لك شيفتاي . وأخذه نحو حلبة  
التوابع والأعلاماً وورقاً » .

واقربت لأتناول الطرد - القدية السارة - فأمل وجهي متفحصاً  
بنظرات يده بل كاحلة عندما دوت ، وكانت آثار الدعوى بلا شك  
جده ظاهرة على عياني ، فسألني : « هل وجدت عملك في اليوم الأول  
أشي مما توقعت ؟ » فأجبته : « آه ، لا .. على العكس ، سأسير مع  
تلميذاتي على ما يرام مع مرور الوقت » .

ولكن ربما وجدت في الوازم العيش والكوخ والأثاث ما يجب  
أعماك ؟ إنها في الواقع قليلة قليلة ولكن ..

فألمحته قائلة : « إن كوخني نظيف لا يثر فيه الطقس » وأثنائي  
كاثف ومزيج : « وكل ما أراه يعملي على الشكر » لا على الاستياء .  
ولست من الخافة وحب الراحة الجسدية بحيث أستف لعدم وجود



صوت جملتي أرفع رأسي وأرى على التو (الشيخ كارلو) - كلب مستر  
ريفر - وهو يدفع البوابة بألفه ، بينما استند على حافتها سانت جون

بساط أو أريكة أو طين من الفضة . هذا إلى أننى منذ خسة أسابيع لم  
أكن أملك شيئاً ، بل كنت مبهوذة مقسومة شاردة . أما الآن في معارف  
ومترل وعمل ، حتى أننى لأعجب لنفسى وكرم أصدقائى ووفرة  
نصيبى . إننى لا أثيرم ولا أتلهم .

— ولكنك تجلس في العزلة ما يضايقتك . إن المترل الصغير القام  
خلفك مظلم وخام .

— إننى لم أقض بعد زمناً بكوني لأن أتم بإقتبوسه ، حتى يشهد  
صبرى بسبب العزلة .

— حسن جداً .. أرجو أن تحبى بالرضى الذى تعربى عنه .  
وعلى أية حال ، صوف بعدك وأنتك السعيد بأنه لم يكن الوقت بعد  
للإذعان لخلاف امرأة لوط . حين مر عليها أن تبعه وتخلط ورواها  
ما كانت تعيش فيه .. إننى لا أعرف شيئاً عما خلفته ورواك قبل أن  
تقع عليك صباى . ولكنى أفسحك بأن تسبلى في مقاسمة كل  
ما يترك بالنظر إلى الزوام ، بل صبرى في طريقك الزامن بقدم ثابتة  
لبضعة شهور على الأقل !

قلت : « هذا ما اضطر عليه عزى » . فعاد يقول : « إن السيلة  
على إقرارة النزوات ، وكبح اندفاع الطبيعة ، مهمة شاقة .. ولكنها  
ممكنة . على ما عرفت من تجاربى . فقلت متحداً الله القوة — إلى حد ما —  
على صنع مصائرنا والتحكم في أقدارنا . وعندما تتطلب طائفتنا العبادة  
عونا تعجز عن الحصول عليه ، وعندما تحاول الإرادة جهادة أن تلتقط  
طريقاً لم لا نملك السير فيه ، فلا حاجة بنا إلى أن نعانى جوع العقل

أو يستبد بنا اليأس ، بل علينا أن نبحث للعقل عن غذاء آخر ، لا يقل  
قوة عن الثرة المحرمة التى طالما انتهى لتلوها . إن لم يكن أظهور منها  
وأبقى .. كما يجب أن نشق القدم الجروح طريقاً لى استقامة والصباح  
تلك التى حببها علينا الحظ . إن لم تكن أبقى وأوفر ! .. إننى شخصياً  
كنت غاية في العس والشقاء .. منذ عام . لأننى فطنت أنى أخطأت  
بالتفرط في سلك الكهنوت . وكانت التبعات الزجية تزعجنى كل  
الإرهاق فتحرقت نفسي إلى الحياة الدينية الأكثر حركة ونشاطاً .

وإلى الأخماس الأدبية المثيرة ، وإلى أن أكون طائفاً أو مؤلفاً أو خطيباً  
أو أى شيء غير أن أكون قسيساً .. نعم كانت قلب السامى ، والجندى  
ومطالب الخلد . وعجب الشهرة ، والمتحرق إلى القوة .. هذا القلب كان  
ينبض تحت الزى الكهنوتى الذى أرتديه . واعتبرت جباناً شقيعاً بعب  
تغيرها وإلا وجب أن أموت . ولكن موسم الغلام والنضال انتهى ،  
فأشرق القباء وحان الخلاص واتسع أفق وجودى الضيق إلى غير  
ما حدود . وصحمت روحى تده من السماء أن انبض واستجده قوتك  
واتشرى بحتاجك واصعدى إلى ما فوق مدى البصر ، فقد اختارك الله

لهمة يحتاج أدلها إلى مهارة وقوة وشجاعة وفصاحة وسائر خصير  
الخصال والمواهب لدى الجنائى والسياسى والخطيب .. فإن أكل هذه  
المواهب يجب أن تتركز في الميثر الصانع . إذ عولت على أن أكون  
مبشراً . تغيرت حالى العقيدة منذ تلك اللحظة ، وتطلمت القيود عن  
مواهبى فلم يبق سوى آثار مريرة لا يشفيها غير الزمن . والواقع أن أبى  
عارض فيما عولت عليه . أما وهو قد مات ، فلم يعد في طريق ذى من

العقبات التي يستدعي التغلب عليها فضلاً . فقد سويت بعض المشكلات وعبرت على من خلفني في (مورتون) ، وقطعت خطاً أو خطين تبييناً من تسبيح المشاعر .. وبقي الصراع الأخير مع الضعف الإنساني ، وإلى نواتي من أن الغلبة ستكون في . لكنني أقسمت أن أنصر .. ثم أغماضت أوزي إلى الشرق .

قال ذلك بصوت بادي الإعياء ، ولكنه كان حازماً حاجاً ، ثم أخذ إلى الصمت . وتطلع - لا إلى - ولكن إلى الشمس الغاربة التي كنت أؤمن إليها بدوري . وكان كلاتا بولي ظهره شطر الطريق المظني إلى كوة الباب . فلم تسمع صوتاً غير خرير المياه الجارية في الرادى ، ولذلك أجفنا عندما فوجئنا بصوت مرح غذب كرتين جرمين قضى بهتاً : « سعلت مناء يا مستر ويفرز ، وطاب مسألك يا كازولو (العجوز) . إن كلبك أسرع منك في التعرف على الأصطفاء يا سيدى فقد رفع أذنيه ويصيح بلبته عندما توسطت الحفل ، أما أنت فأزالت تولي ظهرك إلى الآن ! »

\*\*\*

● وكان ذلك صحيحاً .. وعلى الرغم من أن مستر ويفرز قد أجفل لدى سماع هذه الكلمات الموسيقية وكأنها هبطت على رأسه مصاعقة . إلا أنه ظل واقفاً حتى نهاية الحديث في نفس الوضع معتسداً بلواحيه على البوابة ومتجنباً نحو الغرب . ثم امتداد أخيراً .. بعد أن قدح فكره بعبارة . وإذا بي أرى إلى جنبه شكل إنسان تصغر قامته عن مستر ويفرز بثلاثة أقدام ، وقد اتشح بثوب ناصع البياض .. وكانت

شابة بديعة القد ، مليئة في رشاقة . وبعد أن ألحقت تداعيب (كارلو) . رقت وأدباً فأزاحت خماراً طويلاً كشف عن وجه كامل .. و (الجمال الكامل) تعبير قوى ، ولكني لن أراجع عنه ولن أحوك وصفه . لأن حلالة الأسارير وهذه القوام كانتا يبران هذا التعبير . أجل : لم يكن بنفس الفتاة سر . ولم يكن بها أى عيب أو نقص على الإطلاق ، بل كانت قسايتها منتظمة رقيقة ، وكانت عينها تجلاوين أشبه بالعيون التي تشاهدها في الصور : واسعتين سوداوين داكنتين تحيط بهما أحداًب طويلة وارقة ، وحاجبان كقوسين رسماً بالقلم لوضفيا الصفاء على تلكما العينين . وكان جبينها ناعماً ، ووجنتها يضاوين بضئين ، وشفتاها جليكتن تضيضان بالصحة والحياة .. حتى أسناتها كانت متسوية ناصعة خالية من كل هناة ، وكان ذقنها صغيراً توسطه نقطة خائرة (لونة) فاتنة ، وجدائل شعرها غزيرة .. وقصارى القول : كان ذلك كله مجتمعا ، يمثل المثل الأعلى للجمال .. الجمال الكامل ! .. ولقد عجبت عندما رأيت هذه المخلوقة الجمساء : وأعجبت بها من كل قلبى . ولا شك في أن الطبيعة قد حابها عندما خلقتها فأغدقت الحسن عليها بيذا البذخ والإسراف .

ترى ماذا كان رأى سانت جون ويفرز في هذا الملاك النبوي ؟ كان من الطبيعي أن أطرح على نفسي هذا السؤال ، ففكرت أن أقرأ الجواب على أساور الشباب عندما التفت ونظر إلى الملاك . ولكنه سرعان ما حول عنها بصره وتطلع إلى مجموعة من الأقحوان المتواضع ، كانت تنمو على مقربة من البوابة . وقال وهو يستحق يقدمه وهو



الأحرار الشوية غير المنفحة : « أسيدي بديعة ، ولكن الوقت متأخر  
فما كان لك أن تخرجي وحده ! » فنهضت الفتاة : « أوه ! .. إنيا  
وصلت من ( ... ) - وذكرت اسم مدينة كبيرة تبعد عشرين ميلا -  
بعد ظهر اليوم . فأخبرني ( بابا ) بأنك فتحت مدرستك وأن الناظرة  
الجديدة قد حضرت . لذلك ما أن انتهيت من تناول الشاي حتى وضعت  
فلسوفتي على رأسي . وجريت إلى الوادي لأراها . أليس هي هذه ؟ »  
وأشارت إلى فقال سانت جون : « أجل ، هي ! » فسألني في  
ساذاجة وبصوت طروب : « أعتقد أنك سوف تحبين مورتون ! »  
قلت : « هذا ما أرجوه ، فأكثر المغرببات التي تدعوني ذلك ! »  
فعادت تسألني : « وهل أحببت متروك ؟ » فأجبت : « كثيرا  
جدا ! .. فتساءلت في لطيف : « هل ترفقي أحسن فائتيه ؟ »  
وكان جوابي : « جيدا ! .. ولكنني سألتني مرة أخرى : « وهل  
أحسنت الخيار تابعك إليي وود ؟ » فأجبت فائلة : « فعلا ، فهي  
قابلة للتعليم ، طيبة » .

وأدركت عندئذ أن الزائرة هي من أوليفر الزائرة التي وهبت من  
الزواج قدر ما وهبت من الجهال فتساءلت في نفسي : « أي نعمين سعيدين  
اجتمعوا يوم مولدها ؟ » واسترسلت الفتاة تقول : « سوف آتي وأساعدك  
في التعليم أحببنا ، وسأجد دفعة في زيارتك من حين إلى آخر . لقد  
قضيت وقتا طويلا في زيارتي الأخيرة ( مدينة ) من ) وقضيت ليلة الأمس  
في الرقص حتى الثانية صباحا . إذ انقضت بضاعة الكتبية ( ... ) ، وهم  
أظرف رجال في العالم ! »

وعيل إلى أن ستر سانت جون لوى شفته لسفل وزوى العليا  
لحظة ، فبدأ فيه مضطربا متجهما إلى حد كبير . وظهر الجزء الأسفل  
من وجهه عابسا على غير عادته ، عندما غطقت تلك الفتاة الضاحكة  
بأنك الحديث . ثم رفع عينيه عن زهرات الأقحوان ، واستدار إليها  
وعلى أساريره نظرة جامدة متفحصة ذات معنى ، فأجابت الفتاة بضحكة  
ثانية تلاطم شباها وثورده بحشيتها ونحازتها وعينها المزلزلتين .

وفيما كان في وقفته غلدة إلى الصمت ولو فارق - عادت هي تداعب  
تقالو قائلة : « مسكين كارلو - تكلم بحسني ! .. إنه ليس فظا ينظر من  
أصدفاته ولو استطاع أن يتكلم ما لزم النصمت » .. وأخذت تربت  
على رأس الكلب وهي متحبة بجلالها الطبيعي أمام السيد الشاب الصارم  
وإذا ذلك رأيت وجه السيد يتوهج كالكليب . وشاهدت عينيه الغاديتين  
تتحولان فجأة إلى نار وتطفلان بانفعال جارف . فكان بهذا الحياء  
والاشتعال لا يقل جمالا بين الرجال عن الفتاة بين النساء . ولو رفع صدره  
مرة كاتفا ضاق قلبه الكبير بقيود الاستبداد . فتضخم برحمه ووثب وثبة  
قوية لتمتدح بالحرية والانطلاق . ولكنه كبح جماحه كما يكبح الزاكب  
جراح جواده ، ولم يرد على كلمات الفتاة وهي تحاول استدراجه .

فرغمت الفتاة رأسها واستطردت تقول : « إن بابا يقول : إنك  
لم تعد تأتي لزيارتنا الآن . إنك غريب عن ( فيل هون ) وأبي اليلة  
وحيد » متوعدك .. فهل تعود معي وتزوره ؟ » فأجابت سانت جون :  
« إن الساعة ليست ملائمة للتطفل على مستر أوليفر » .

— ليست ساعة ملائمة ! إنها كذلك لأنها الساعة التي يكون فيها

(بابا) أشد حاجة إلى من يحلّيه بعد فراغه من عمله . تعال الآن يا مستر ريفرز . لماذا كل هذا الجفاء وكل هذا الاكتئاب ؟

وبحث فلادت الفجوة التي خلفها صفته ، بأن صاحبت وهي تهر رأسها : آه ، لقد نسيت ! كم أنا خفاء ! .. معذرة إذا كنت قد نسيت أن لك الحق في عدم الميل إلى ترثقي بعد أن غادرتك ديانا وماري : وألغيت (مورهاوس) ، وبقيت هكذا وحيداً - إنني أرتق لك فعلاً وزير بابا ! . ولكنه قال في إصرار : ليس البيلة يا حسن روزاموند . ليس البيلة .

كان سيات جون يشكم كما لو كان آله . لم يكن في وسع أحد غير أن يدرك مدى ما يكلفه ذلك الرقص من فن غام . وقالت الفتاة : « خالبي بي أن أغادرك الآن ما دمت عتيداً بهذا الشكل . فليست أجرو على ابقاء أكثر من هذا . إذ هذا الذي يأسف . طاب مساؤك ! » - طاب مساؤك .

وتحولات الفتاة ولكنها عادت بعد لحظة لتسأله : « أترأى تجوز ؟ » وكانت غضة في سؤاها لأن وجهه كان في شحوب رعاها الناصع ولكنه أحاب : « إنني في خير حال » . ثم حتى رأسه وأتصرف خلفها ، فسارت في سبيلها وسار هو في سبيل آخر .

والفتى الفتاة مرتين لتلقي عليه نظرة : وهي تغفل في الجحش : كأنها حورية جميلة . أما هو : فسار في طريقه بخطوات ثابتة دون أن يلتفت خلفه على الإطلاق .

كان منظر آخر للعذاب والتضحية شغل أفكارى وأقصاها عن

التفكير في حالتي .. وأيقنت بأن ديانا وريفر لم تبلغ حين لقيت أخاها بأنه ككلمات لا تأثر له قنانه !



## الفصل الثاني والثلاثون

● مضيت في أعمال في مدرسة القرية بكل ما وسعني من نشاط وأمانة . وكانت مهمتي شاقة في البداية . فقد انقضت فترة طويلة .. مع كل ما كنت أبذل من جهود - قبل أن أستطيع فهم تلميذاتي وطابعهن .. كن غاية في الجهل ، هامدات المواهب ، غيبات لأبرجني منهن أمل . ولكن يظهرن - لأول وهلة - مساويات في الغباء ، ولكنني سرعان ما أدركت بطلعتي : إذ لمست بينهن فروقاً كذلك التي بين المتعلات . وما أن فهمتني وفهمني حتى تبددت تلك الفروق . وما أن هدأت دهشتي مني ومن لغتي ونظامي وطريقي ، حتى وجدت بعض التماثلات الباديات الغباء قد تحوئي إلى قيات مبتدات الذكاء . وأبدت الكثيرات شكراً وامتناناً .. وظرفاً كذلك ! واكتشفت بينهن نماذج غير قليلة للأدب الطبيعي والاعتزاز الأصل بالنفس . كما اكتشفت بينهن مقدرة فائقة نالت تقديرى وإعجابي . وسرعان ما شعرن بلذة في أداء واجباتهن على الوجه الأكمل ، وفي الاحتفاظ بنظافتهن الشخصية ، وفي استذكار دروسهن بانتظام ، وفي التحلي بالعادات القادرة المنظمة . وكثيراً ما دهشت لهذه السرعة في تقدمهن ، واستشعرت لذلك زهواً صادقاً سعيداً ، كما بدأت بدورى أحب بعض المتفوقات ويعبئني . وكان بين تلميذاتي

عدد كبير من نبات الفلاحين الناضجات .. القلاي بلغن سن الرشاد  
نصرية .. فاستطعن القراءة والكتابة ، وتعلمن الحياطة وشغل الإبرة ،  
ووجدت فوهن أخلاقاً تستحق التقدير . ورغبة قوية في التعلم والترقى .  
وكثيراً ما كنت أقضى ساعات طيبة في المساء ببيت هؤلاء التلميذات ،  
أحظى خلالها من أهلن - الآباء المزارعين والأمهات الفلاحات -  
بالرعاية . وكنت أجد متعة في تقبل هذا العطف الساذج ، وأقدم لهم  
في مقابلته تقديراً كان يفتن الفتيات ويغريهن ، لأنه كان يرفعهن في  
أبصار أنفسهن ، ويعلمهن على الجهد ليصبحن أملاً لخدمة الكريمة التي  
كن يلقينها مني ١

وشعرت بأنني غدت محبوبة في تلك المنطقة ، فأينما ذهبت كنت  
أسمع تحيات قلبية من كل ناحية ، وألقى إهداءات المودة والإخلاص .  
إن الحياة بين الاعتبار العام - ولو كان هذا الاعتبار من الطبقة العاملة -  
أشبه بالجلوس في ضياء الشمس : يقدم بالهدوء والصفاء . وكثيراً ما كانت  
قلبي - في تلك الفترة من حياتي - يفيض بالشكر ، وقل أن أفضله  
الاكتساب . ومع ذلك فلمست أكتسبك أيها القارئ أنني في غمرة هذه  
الحياة الوادعة النافعة ، كنت - بعد أن أقضى حماية النهار في الجهد  
والغناء مع تلميذاتي ، وأقضى الأمسيات في الرسم أو القراءة وحيدة ،  
راضية النفس - لا ألبث بالتأمل أن أندفع في أحلام عجيبة .. أحلام  
متعددة الألوان ، مضطربة ، مليئة بالمثل الأعلى والمثيرات العاصفة ..  
أحلام كانت تتجلى وسط مناظر غير عادية مشحونة بالمغامرات  
والخفاطات والمصادفات الخيالية ، فإذا في أتصوري أقبال مستر

روستمر - بين وقت وآخر - فأراه دائماً في ضيق شديد ، فتجدد  
ذكرتي وجودي بين أحضانها ، وصاح صوته ، ولفاء نظراته ، وليس  
بأنه ووجنته ، وحتى له وحيه لي . وأعلى في قضاء الحياة إلى جانبته ...  
كل هذه كانت تتجدد بكل قوتها وحرارتها الأولى ! .. وكنت  
أستيقظ بعد ذلك قائداً كز أبن أنا وحقيقه مركزى ، فأجلس في فراشي  
- الخليل من السائر - وأنا أهر وأرتجف . وعند ذلك ، كان الليل  
النداجي يشهد التفاضل يأتي ، ويسمع انفجار وحشي . ومع ذلك ،  
فما كانت تون الساعة التاسعة من الصباح التالي : حتى أبادر إلى فتح  
أبواب المدرسة وقد امتلئت عذوتي ورواني ، وتاهبت لأعياقي  
المدرسية اليومية !

وحافظت (روزاموند) علي بوعدها أن تأتي لزيارتي ، فكانت  
تجيء عادة أثناء زكوتي في الصباح ، فتركضي بفرسها الصغيرة إلى  
الباب ، ومن خلفها خادم يمتطي جواداً ويرتدي بزة خاصة .. كانت  
الفتاة تبدو رائعة المظهر في زي الركوب القرمزي وقبعها الخشبية السوداء  
التي كانت استوى برشاقة فوق جدائل طويلة تألم خديها وتندل على  
كتفها بصورة فائقة تجل عن الوصف .. وهكذا كانت تدخل البنيان  
الربيعي وتسير وسط التلميذات القرويات المبهورات بمنظرها ! .. وكانت  
مقدمها يصادف عادة الساعة التي يلتقي فيها مستر زيفرز دوسه التلميذ  
اليومي . ولأحظت أن عين الزائرة كانت تنحرف قلب الكاهن الشاب . وإن  
ويبدو أنه كان يشعر بقوة غريزية تنفره بدخولها غرفة الدرس . وإن  
لمرها . فإذا ما ظهرت في مدخل الباب ، تألفت عيناه وتوردت وجنتاه



وتبدلت أسارىه الجمامدة كالأرحام : والتي كانت برغم جودها تعبر  
إذ ذلك - يسكونها ونياها - عن عاطفته المكبوتة بأقوى مما تعبر العضلات  
التافرة والنظرات المارقة .

وكانت - بطبيعة الحال - تعرف مبلغ قوتها . أما هو فلم يكن يدري .  
والألسنة أمتنى عليها معرفته . وعن الرغم من « روايته » الدينية  
- أي عدم ميالاته بالمؤثرات الجسدية - فإنه لم يكن يملك نفسه إذا  
ما تضمنت إليه وخاطبته مباشرة في وجهه مشجعة في مرح - يكاد يكون  
تغزلا - فكانت يده تضطربان ، وعيناه تشفدان ، ويبلوح وكان نظراته  
الساجية المروعة تقول دون أن تتحرك شفاهه : « أجلك ، وأعرف أنك  
تؤثرني » . وليس اليأس من التوفيق هو الذي بحث لسانه ، لأنني اعتقد  
أنك مستظلين قلبي لو أنني قدمته لك . ولكن هذا القلب قد وضع على  
مذبح مقدس ، وأعدت حوله النار ، ولن يلبث أن يصبح مجرد قربان  
فان ! :

وكانت إذ ذلك تتجههم كطفلة غاب وجأها : وتتخذ في سماء  
مرحها الجمامدة في قضاير يسحب يدها من يده بسرعة ، وتتحول عن  
وجهه غاضبة على الفور في بطولة الشهاد . ولاشك في أن مستر  
سانت جون ما كان ليحجم عن تضحية كل شيء في العالم ليحبها  
وبنادها وبسابقها معه - عندما كانت تتركه هكذا - لولا أنه لم يكن  
يقوى على أن يتزل - في سبيل فردوس حبيب - عن مجرد أمل واحد في  
جنة الخلد . أخذت إلى ذلك أنه ما كان في وسعه أن يربط كل ما فطر  
عليه من حب للحجوال والطموح والشعر والكهنوت ، إلى عاطفته

واحدة محدودة .. أجل ، لم يكن يستطيع - ولا كان راغياً - في التخلي  
عن ميدان رسالته الواسع مقابل ما كان يرجوه من رقاد وسلام في  
( قبل هوال ) ، فقد عرفت منه الكثير عن نفسه يرثم تحطته ، وذلك في  
أثناء ( غارة ) تجارات ذات مرة على القيام بها لاقصاح منزه .



• ولقد شرحتني مس أوليغر بزيارات عديدة لكوني ، فاستطعت أن  
أفهم على كل أخلاقها سافرة في غير تحفظ أو تنكر : كانت غداورة  
ولكنها لم تكن بلا قلب ، دقيقة في غير أنانية ، مدالة منذ مولدها ولكنها  
لم تكن فاسدة بمعنى الكلمة ، متبورة ولكنها كانت طيبة القلب ، معتزة  
مزعومة - دون أن تكون لها حيلة في ذلك وهي ترى في كل نظرة تلقيا  
على المرأة مبلغ ملاحظتها - ولكنها لم تكن متعجرفة . وكانت مسوطة  
الكف في غير غرور ، صريحة ، ذكية ، مزحة ، طروباً ، لا تطيل  
التفكير في شيء . وقصارى القول : كانت فائقة حتى في عين فتاة من  
جنسها باردة الطبع مثلي ، ولكنها لم تبلغ الكمال من حيث التأثير في النفس  
أو كانت - على سبيل المثال - تختلف في عقليتها عن شقيقتي سانت  
جون .. على أنني - مع ذلك - أحببتها كما أحببت نعيماني ( أميل ) ،  
فيا عدا أننا كن في العادة للطفلة التي ربيتها وعلمناها حباً بفوق الطبع  
ما يمكن أن نكنه لو احدة من المعارف بالغة الرشاد ، وإن تساوت معها  
في الجاذبية .. ولقد دالت هي الأخرى إلى : وقالت إنني أشبه مستر بيرغز  
فيا عدا أنني لا أبلغ عشر جماله . فع أنني كنت ظريفة نقية الروح .  
إلا أنه كان ملكاً كريماً .. ومع ذلك فإني كنت - في رأيها - طيبة

ماهرة مائدة النفس وزينة .. مثله ! وكانت تقول إن تاريخ حياتي السابقة - إذا ما تكشف لنا - فإنه سيكون ولا بد قصة رائعة ممتعة !

وحدث ذات مساء أن كانت بتزقها وعفتها بنفسي - دون قصد - مستجيب - في أرجاء القصور ودورج المائدة في مقلخي الصغير ، عندما اكتشفت وجود كتابين قرنيين ومجده عن شيلر وكتاب في النحو الألفاني وقاموس . كما عثرت على أدوات الرسم وبعض الصور التخطيطية ، بينها صورة فتاة صغيرة - هي إحدى تلميذاتي - وبعض المناظر الطبيعية المتنوعة التي التفتلها في وادي (مورتون) والأجسام الخيطية به - فجمدت في لون الأمر دهشة وعجبا . ثم جئت سرورا وإثياجا : وقالت تسألني هل أنا التي رسمت هذه الصور ؟ وهل أعرف النسبة الألمانية ؟ ما أجهلني وما أروعني ! إنني أفسح خيرا من استاذها في المدرسة الأولى في (س) ، فبلا أن تطمع أن أرسم لها صورة تريبا لأبيها ؟ فاجبتها : بكل سرور .

وتلمكتني رجفة الفنان المخطيط الفكرة رسم مثل هذا التوديع الكامل المشرف . وكانت ترتدي إذ ذاك ثوبا كحليا من الحرير يكشف عن ذراعيها وأخرها ، ولا تترين بغير جدائل شعرها الكثيفة وقد توجت على كتفيها بكل روعة الجداول الطبيعية ، فتناوت قطعة من الورق القوي ورسمت صورة تخطيطية لها بعناية وإتمام ، إلى أن أخذت الظلمة ترين ، فخلبت إليها أن تأتي وتجلس لمامي في يوم آخر .. وكان أن حدثت أباها عن ذلك ، فاصطحبها مستر أوليفر بنفسه في المساء التالي . ووجدته طويل القامة ضخم النطاق ، متوسط العمر ، أشيب الرأس ، وقد بدت

ابنته الحسناء بجانبه أشبه بزهرة مشرقة إلى جوار مرج مغير عتيق .. وكان - في لاج لي - رجلا عجا لافسست متعجرفا ولكنه عاملي يرفق ، وسر سرورا عظيما بالرسم التخطيطي روزاموند فطلب مني أن أتم اللوحة كما أصر أن أذهب إلى (ليل هول) في اليوم التالي لأقضي معهما المساء .

فلما ذهبت ، وجدته قصرا كبيرا يدل على ما ينعم به صاحبه من ثراء . وكانت (روزاموند) شديدة الفرح والابتهاج طوال مكثي هناك . ولما خافض والدها معي في الحديث بعد تناولنا الشاي ، أعرب لي عن تقدير لأعمالي والتقدم الذي نالته المدرسة على يدي ، ثم قال إنه أصبح لا يفتش - بعد الذي سمعه ورآه - إلا أن أعاد المدرسة إلى أخرى أتيق في . وصاحت روزاموند : « الواقع أنها من الخلق بحيث يصبح أن تكون مربية في أسرة كبيرة يا يابا » . بيد أنني كنت أؤر البقاء حيث كنت ، على العمل لدى أية أسرة من الطبقة الراقية . وتحدث مستر أوليفر عن مستر ديفرز وعائلة ويفرز باحترام بالغ ، قائلا إنها أسرة عريقة في تلك الأصفاق ، وإن أجداده كانوا الأرياء يتلكون قرية (مورتون) كلها وأنه يعتقد أن سليل الأسرة يملك إذا شاء أن يصاهر أحسن عائلة ، ولكنه أعرب عن أسفه على أن يكون هذا الشاب الجليل واعظا ، وأن يبدد في ذلك حياته الغالية . وتخل من ذلك أن والد (روزاموند) لم يكن يقيم أية حفلة في سبيل اقتران بنته بمستر ميان جون ، وأن الرجل يعتبر حراقة الكاهن الشاب واسم أسرته ومهنته المقلصة نوعيا كافيًا لحاجته إلى المال ..

• وكان اليوم الخامس من نوفمبر عطلة مدرسية ، فبعد أن حاولتني خادمتي الصغيرة في تنظيف بئرتي ، انصرفت وهي راضية النفس بالنفس التي أعطتها إياه أجر معاونتها في . وكان كل ما حولي نظيفاً لامعاً : من أرضية دلتك ، ومذابة حطفت ، ومقاعد جلبيت جيداً . وكنت قد نظفت نفسي كذلك ، فوجدت أمامي طوال بعد الظهر قضيه كيف أشاء .. فخلعت بخرجة بضع صفحات من الألمانية ساعة ، ثم جئت بلوحة الرسم والأفلام وشرعت أتم صورة زوراموند أوليفر . وكنت قد فرغت من رسم الرأس ، ولم يبق إلا أن أثون الأرضية ، وأظلي الثياب ، وأضئ لسة من اللون الأرجواني على الشفتين الناصبتين . وأسبغ بعضي توجبات على خصلات الشعر ، والمزيد في ظلال الأهداب تحت الجفون اللازوردية ! .. وفيما كنت متمسكة في هذه التفاصيل الدقيقة سمعت طرقةً سريعاً على الباب غير المغلق ، ثم شاهدت سانت جون يقفز يدخل قاتلاً .

— لقد جئت لأرى كيف تقضين يوم غفلتك ، فارجو ألا تكوني قد قضيت في التفكير . كلا هذا حسن ، فذلك لي شعري بالوحدة مائة ترجمين . هاشتدي ثرين أنني ما زلت غير مطمئن ، برغم أنك أظهرت جلدًا وصبراً يدعو إلى الإعجاب ، لقد جئت بكاتب تيسلين به في المساء !

ووضع على المصطبة كتاباً جديداً في الشعر ، من تلك المطبوعات الدسمة القبيحة التي كان الجمهور يغطي بها في ذلك العهد .. العهد الذهبي للأدب الحديث . ومن أسف أن قراءنا لا يعمون بهذه الميزة ولكن

صبراً ! لست أتوقف لأنهم أو أندور . فإني أعرف أن الشعر لم يمت ، وأن العبقريّة لم تضع ، وأن حب الملك يسيطر على كليهما ، بل إنهما سوف يؤكدان وجودهما وحريةهما وقوتهما مرة أخرى في يوم من الأيام . أينما الملائكة الجبارة الآتية في السماء ! إنك تخبئين عندما تظهر الأرواح الشريرة بالفضة ، وتبكي الأرواح الضعيفة على أطلالها . فهل دمر الشعر تدميراً ونقبت العبقريّة نقياً ؟ كلا .. فهل هما إذن في ركود ؟ كلا ، إنهما لا يعيشان فحسب ، بل هما يحكان ويسيطران ، ولو لم ينشر نفوذهما الروحي في كل مكان لأصبحت في جميع .. جميع طبعك ومهانتك !



• وفيما كنت أناملي في لحظة صدائف من ديوان ( مارميون ) — فقد كان الكتاب يضم أشعار مارميون — انجني مائتة جون وجعل يتأمل الصورة التي رتبها . ولكنه سرعان ما نصب قامته الطويلة مرة أخرى دون أن ينبس بحرف ، فرفعت عيني إليه ولكنه تجنب نظري . ولكنني عرفت أفكاره جيداً .. برغم ذلك — واستطعت أن أسبر غوره ، لأنني كنت أوقه رزاقها وهدوماً وشعرت برغبة في نفعه إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً . فقلت في نفسي : إنه يدع بفسه بعيداً بما يشبه من الخزم وضبط النفس . فهو يكظم عواطفه في صديرة فلا ينجح ولا يعترف بشيء . ولا يجب علينا أن نمن مصلحته أن أجدته قليلاً عن ( زوراموند ) الفنانة ، التي يعتقد أنه لا يندبر به أن يتزوجها . ولكن لأجله على الكلام !



قلت أولا : « ألا اجلس يا ميسر وبغرة ! » ولكنه أجاب كعادته أنه لا يستطيع المكتب فأجبت :

« حسنا جداً ، قط لو شئت ، ولكنك لن تذهب ، فقد حرمت رأيي ! إن العزلة تشيقك كما تشقني على الأقل ، وفي أتركك حتى أجد منفذاً إلى صديق المثلث لأضرب فيه نقطة من باسم عطفي .

وسأنت في بروك : « هل هذه الصورة تشبه ؟ »

« تشبه : تشبه من ؟ أتني لم أتم فيها النظر .

« بل إنك فعلت يا ميسر وبغرة .

وروع يا قضايا العجيب ، « ونظر مشدوها إلى : « فقلت لنفسي :

« أه ، إنك لم تسمع شيئاً بعداً .. لن نخضعي صلابتك : لأنني مستعدة

للخضوع معك إلى أبعد الحدود .. » ثم استرسلت قائلة : « إنك أمعت

النظر فيها وعن كسب ، ولكن لا أعترض في أن تنطلق إليها مرة أخرى .

ونفست فوضعتني في يده ، وإذا ذاك قال : « إنها صورة بدیعة الصنع !

هادئة واضحة الألوان ، جميلة ، ومعتقة الرسم ! »

« نعم ، نعم ، أعرف كل هذا ، ولكن التشبه لا .. من تشبه هذه

الصورة لا فيعطر على ترددده وقال : « جس أوليفر .. على ما أفطن ! »

« بالطبع .. والآن يا سيدي ، لكي أضافتك على حذسك الدقيق

أعذك بأن أوسم لك نسخة أخرى دقيقة أمينة من هذا الرسم ، على شريطة

أن تعترف بأنك ستقبل الهدية ، ولأنني لا أحب أن أبعثر وقتي وجهدي

في هبة لا تقدرها !

فقل يفرس في الصورة . وكانت كالم أظنك إليها النظر ، تشبث بها



فقل يفرس في الصورة ، وكان كلما انظر إليها تشبث بها واشتهاها

وأشبهها ، ثم نغم قائلًا : إنها تشبهها !.. إن العين مرسومة جيدًا ..  
والأنوف والفتية والعيور .. كلها متقنة .. إنها تبهيم أ ..

— هل يرعبك أو يؤلمك أن تكون لديك صورة مماثلة لها . قل لي !  
هل تجد عزاء في هذا التذكار إذا كان يجوز ذلك في مذهبك أو رأي  
الرجاء الصالح أو الهند . أو أن رؤيته تثير أشجانك وأحزائك ؟

فرقع عينيه تلمسه ليرقق في قلبي . ثم عاد يتأمل الصورة وقال :  
« أما أنني أود الحصول على نسخة منها فهذا ما لا ريب فيه . وأما أن  
حصولي عليها من العبد أو الحكمة فهذا موضوع آخر ! .. ولما كنت  
والقة من أن روزاموند تفقد حقيقته ، وأن والدها لن يعترض في الأرجح  
على قرانها ، فقد شعرت في سويدائي بميل شديد إلى أن أحمل على تحقيق  
هذه الرابطة . وميل إلى أنه لو غدا الملك لثروة مستر أوليفر الضخمة  
لاستغلها خير استغلال بدل أن يترك عبقرية نادوي وقواه تلبده تحت  
الشمس الاستوائية الحارقة . وبهذا الإغراء أجيبت : وأرى من العادة  
والحكمة أن تأخذ لنفسك الصورة الأصلية في الحال ! »



● وكان في تلك الأثناء جالساً ، وقد وضع الصورة أمامه على المنضدة ،  
واعتمد بحيرته على كتفيه يديه ، وراح يتأملها في وجد وإعزاز ، فلم أر على  
أساوره أنه غاضب أو مذهول بقرائي . بل لمي رأيت أنه بدأ يشعر  
بازدياد جديد وراحة — فوق ما كان يرجو — إذ وجد من يصاوحه  
بموضوع كان يشق عليه أن يسه ، وأن يعالجه بهذا الإصراف . فالواقع  
أن الكتومين المتحفظين كثيراً ما يكونون أشد من سواهم حاجة إلى

حديث صريح يتناول حاسرهم وشجونهم . ومهما يكن فإنا الذين  
يبدون تزمناً في الكتمان بشر رغم كل شيء . « فإذا نحن اقتصدنا عليهم  
غور أرواحهم الساكنة — في جرأة مستبعدة من حسن النية — أمدينا  
إليهم معروفاً . لذلك قلت وأنا أقف خلف الصورة : « إني واثقة من  
أنها تميل إليك وأن والدها يحترمك ، وهي فوق ذلك حلوة مع شيء  
من الخفة والترف ، ولكن لديك ما يكتلها ويكبتك من الإدراك والتعقل ،  
فيجب أن تتزوجها » .

فسألت : « وهل هي تميل إلي ؟ » .. « وإذا ذلك قلت : « بكل تأكيد .  
وأكثر مما تميل إلى أي شخص آخر . فهي تتحدث عنك دائماً وباستمرار .  
والحديث عنك من قريب أو بعيد هو أشبه الموضوعات لديها » .

— يعبرني أن أسمع ذلك . امتمري في حديثك ربع ساعة أكثر !  
وقهلا أخرج ساعده ووضعها على المنضدة ليحصى الزمن . فسألت :  
« ولكن ما الفائدة من الاسترسال في الحديث إذا كنت تعد مطرفة  
حادية من الاعتراض ، وتسير سلسلة جديدة تفيد بها قليل ؟ »

— لا تنهني مثل هذه الأشياء القاسية . تصوريني خاضعاً مستسلماً :  
إن أحب البشرى أحب بناغورة أو بلوغ تفجر في رأي وأخذت سبيله  
تفيض على الحقل الذي أمدته بعناية وبذات فيه مجهوداً كبيراً وزرعته  
يخمر الثبات الطيبة والمنشروعات المتطورة على إنكار الذات . فإذا به  
الآن .. وأخيراً — يفرق في قبض من الرحيق .. ذلك العم اللذيق ! ..  
الآن أتصورني مضطجعا على مشكل في غرفة الاستقبال في ( فيل هوك )  
عند قدمي غروسي ( روزاموند أوليفر ) وهي تحدثني بصوتها العذب

وتطلع إلى بهاتين العينين اللتين أبدعت في تصويرهما ، وتنبس إلى شفتين كالعقيق ، إنها لي وأنا لها ، ولأفقع بجاني الدنياوية .. الحياة الثانية .. مه ! لا تفوهي بئني .. فإن قلبي زاهر بالفرح والسرور وجواحي مملوءة .. دعي الوقت الذي جددته يتر في سلام !

وأطعته .. غشياً معه .. وراحت النافذة تدق .. وكأنها يلهث ببنا وقت صامعة إلى أن انقضى ربع الساعة بسرعة وسط ذلك الصمت .. فأعاد ساعته إلى جيبه ووضع الصورة في موضعها ، ثم نهض من مكانه ووقف بجانب المدفأة ، وما لبث أن قال : لقد خصصت هذه الفترة الوجيزة للترهات والأوهام ، فاضمدت برأسي على وسادة الإغراء ، ووضعت عنق عشاراً تحت نير من الزهور ، وذهبت كأس الإغراء فوجدت الوسادة تحترق ، والبيت في الإكليل حية سامة ، وفي الشيد مزارة .. كما وجدت عود الأوهام جوفاء كاذبة ، وعطايها زائلة ، لقد رأيت وعرفت كل هذا !

وتقرست فيه مشدوحة ، بينما استرسل يقول : من عجب أن أحب روزاموند أوليفر حماً طاعياً بكل ما في الحب الأول من حرارة وقوة ، وأن أجد فيها جلالاً وهاوفاً مدمجة ، ومع ذلك فأنا أحس في الوقت نفسه أنها لن تكون الزوجة الصالحة أو الشريكة التي نحتاجني . وأني لن ألبث أن أكتشف هذه الحقيقة قبل انقضاء عام على زواجنا . فأجدي بعد اثني عشر شهراً من المتاهة والسرور ، مسوقة إلى أن أقضي العمر في بلم ! .. فلم أقال أن حضت : « إن هذا العجيب في الواقع ! »

.. بينما يفتن شيء في كياشي بسحرها ، يوجد شيء آخر في دغليتي

يقنعني بعبورها التي لا يمكن أن تلائم شيئاً من آمالي ، أو تعاوني على شيء مما آخذته على عاتقي ، هل تصحح روزاموند لأن تقامني وتعمل وتكون زوجة مبشر ؟ .. كلا !

.. ولكن لا حاجة تدعوك إلى أن تكون مبشراً .. في وسعك أن تتخلي عن المشروع .

.. أغلقت عني ؟ عن رساتي ؟ عن علي العظيم ؟ عن الأساس الذي أرسيه على الأرض ليكفل لي قصر آتي الساء ؟ .. عن آمالي في أن أكون في عداد من انغمسوا واندمجوا في أول واحد هو السور ينسهم وحل مشعل العلم إلى دنيا الجهل وإحلال السلام على الحرب ، والحرية على العبودية ، والدين على الخرافة ، والأمل في الجنة على الخوف من الجحيم ! .. أتريد أن أغلقت عني ذلك ؟ إنه أغلقت لي من الدم الذي يجري في عروفي .. إنه محل الذي أنطلق إليه وأرجو أن أعيش من أجله !



● قلت بعد فترة طويلة من السكوت : « ومن أوليفر ؟ » ألا تبهلك خيبة رجائنا وأحزاننا لا ؟

.. إنه من أوليفر معالجة على الدوام بالخطاب والمغازلة ، فلن ينقضي شهر واحد حتى تحس صوري من رأسي فنياني .. وربما تزوج رجل آخر يجعلنا أبعداً مما أستطيع أنا .

.. إنك تتكلم ببرد عجيب ، وإنك تتعذب بهذا التفصال ... إنك تدبل وتلوى ...

.. كلا ، إذا كان قد أصابني شيء من الغزال فيسبب انشغال البال



على مشروعي التي لم تستقر بعد - وأسأري التي أسوف فيها وأما على ..  
وفي هذا الصباح فقط - ظفيت من عني - الذي كنت أظنك على  
مقنعه وأنظره بفرغ الصبر - أنه لن يكون متعباً شغل مكاني قبل  
ثلاثة أشهر أخرى - وقد نمت هذه الأشهر إلى ستة .

- ولكنك ترثفت وتورد وجنتاك كلاً دخلت من أوليفر غرفة  
التدريس .

ومرة أخرى تجلت على أسأريه آيات البرعشة لأنه لم يكن يتصور  
أن تتجرأ امرأة على أن تتحدث إلى رجل بهذه التهجئة ! - أما أنا - فإني  
لم أشعر بأية كلفة في هذا النوع من الحديث - لأنني لم أكن أستطيع أن  
أستريح مع أصحاب العقول القوية الفعلة المكلفة - من الجنون - ما لم  
أفرد من استحكامات التحفظ التقليدي - واجترأ أعصاب اللغة - وأظن  
يتكاثرت آيات الأركان في القلوب - وأخيراً قال : « إنك تتحداهن بعض تلك  
دون أن تهبي - لأن في روحك ضرباً من الشجاعة وثق عيناك قوة  
نافذة - ولكن اسمحي لي أن أؤكد لك أنك أسأت إلى حد ما فهم عواطف  
وأفك تشوهمها أعني وأقوى مما هي في حقيقتها - وتعلمين على قدر ما من  
الوجدانيات أكثر مما أدعي ! - إني لا أرى في نفسي غلبة تنورد وجنتاي  
أو أرتجف أمام من أوليفر - ولكنني أحقر هذا الضعف - وأراه شيئاً  
لا يشرف ويجرد حتى تصيب الجسد - وليس وليدة توقد الروح الثابتة  
كالصخرة وسط بحر عجاج ! - فأعزني على حقيقتي : رجلاً يارداً  
صلياً ! »

فأبست غير متفادقة - ولذلك استغفرت بقول : « لقد انتزعت

ثقتي عنوة وهي الآن طوع خدمتك - إني في حقيقتي - وبكل بساطة -  
مجرد من الذوب القاني القدر تغطي به المسيحية العيوب البشرية - إني  
رجل بارذ فاس ضومح - لا يسيطر عليّ دائماً سوى الحب الطبيعي - من  
دون العواطف الأخرى جميعاً - ويقودني العقل لا الشعور - أما طموحي  
فلا حدود له - وأما رغبتني في أن أحو على الآخرين فهي جشعة لا تنزع -  
وإني أجد الاحتمال والمثابرة والجد والمواهب لأنها وسيلة الإنسان إلى  
تحسين القامات الكبرى والارتفاع إلى القدوة الشاطئة - ومن ثم فأنا أقرب  
عملك بشدة واهتمام لأنني أعتبرك نموذجاً للمرأة الكدود - المنظمة -  
النشطة - لا لأنني أشفق على ما أصابك وما زلت تتألم به ! »

قلت : كإني بك نصف نفسك بأنك مجرد فيلسوف ولبي !

- كلا - هنالك هذا الفارق بيني وبين الفلاسفة الذين يتكلمون  
الوحي - إني أؤمن - وأؤمن بالإله ! ولقد خافك التعبير فأنا لست  
وثيقاً وإنما أنا فيلسوف مسيحي من أتباع شريعة المسيح - وأنا كواحد من  
تلاميذه - أعنت عتائده الصافية الرجعية الجديدة وأدافع عنها وأقدم أن  
أروج لها - ولما كنت قد كرمت حياتي الشابة للدين - فقد نفقت وهنيت  
مناقبي كما يلي : من البذرة الدقيقة حب الطبيعي - تحت شجرة حب  
الإنسانية الورقة الظلال - ومن جنود الاستقامة البشرية المايعة الكثيفة -  
ترعرع الإحساس بالعلاقة الإلهية - ومن الطموح إلى اكتساب القدوة  
والقدرة تفسى الشقية الهائلة - تكون الطموح إلى بسط مملكة الحق  
وإخراة الانتصارات لواء المسيحية - لقد فعلت في الدين الكثير - إذ سما  
بمناصري الأصيلة وشذب طبعي - ولكنه لم يقو على هم الطبيعة نصب

— سوان بقى — لأن الطبيعة منفل وتبقى إلى أن يقدر للإنسان الثانى أن يكتب الخلود ١

وما أن قال ذلك حتى تناول قبعته — التى كانت على المنضدة بجانب لوحة الألوآن — ثم التى نظرة أخرى على الصورة وهمم قائلا : إنها جميلة جديدة فعلا بأن تسمى روزاوند .. أى وردة العالم !  
— أريد أن أضع لك صورة مثليا ؟  
— وما الفائدة ؟ .. كلا !

ثم غطى الصورة بغلاف من الورق الخفيف اعتدت أن تضع عليه بدى أثناء الرسم لأحول دون تلوث الورق الخفى . ولكن شيئا فى هذه الورقة البيضاء — لم أعرفه — قلت بصره فجأة ، فشدتها بقوة وتأمل طرفها ، ثم رمقتى بنظرة سريعة ، غريبة ، لم أدرك معناها ، ولكن خيل لى أنها قد هيئت على كل جزء من جسمى ووجهى وثوبى . واخترقها جميعا فى سرعة الوميض ، ثم فتر غاد وكأنه يرم بالكلام . ولكنه جوس العبارة التى أوشك أن ينطق بها . فسأله : « ما الذى جرى ؟ » فقال : « لا شئ » . ثم أعاد الورقة ورأته يمزق شريطا ضيقا فى طرفها بهارة وعناية ثم أعطاها فى قفاز ، وحشى لى رأسه على عجل قائلا : « طاب مساءك » .. وانحنى !

فصاحت بلغة المقاطعة : « إن هذا يغرق كل شئ » ١ .

ودرجت بدورى أنفوس فى تلك الورقة دون أن أرى شيئا غير آثار الألوآن التى كنت أجريها بقلمى . ومضيت أفكر فى السر لضع دقائق ،

فما استعص على « ولم أجده حلا وأبشيت أنه ليس بالغ الأهمية » أقصيته عن خاطرى ، وسرعان ما نسيت ١

\*\*\*

### الفصل الثالث والتلاتون

• وعندما خرج مسرعا صالت جون ، كانت النلوج قد بدأت تنساق وظلت الزويدة الطويلا تعصفت طوال الليل . وفى اليوم التالى هبت رياح قارسة تحمل أمطارا جديدة غزيرة . وفى الفسق كسحت النلوج الرادى ومدت منافذة ، فأغلقت نافلتى . ووضعيت حصيرة عند الباب أمام النلوج من الشرب إلى الداخل . ثم سويت النار فى موقدى . وبعد أن قضيت ما يقرب من الساعة أصغى إلى غضب العاصفة المكثومة الأنفاس ، أنصأت شجعة وتناولت ديوان ( مارمبون ) ..

وسرعان ما نسيت العاصفة .. غل أننى ما لبثت أن سمعت جلبة ، ففكرت أن الرياح تهر الباب . ولكن ، كلا .. كان ذلك سائمت جون ويفرز الذى رفع مزلاج الباب ثم دخل حاديا من العاصفة الثلجية والظلام العاوى . ووقف أمامى وقد بدت العبادة التى تغطى قوامه الضويل أشبه فى بياضه بصفاحة من الزجاج . وكاد أصر أن يتولا فى لأننى لم أكن أتوقع أى زائر — فى تلك الليلة — من الرادى الذى سيدت النلوج منافذ . فسأله : « هل هناك أبناء سيدة ؟ هل حدث شئ ؟ » ١ .

« آجاب وهو يخلع عباءته ويعلقها بالباب : « كلا .. ما أميل أن ترافعى ! » .. ثم أعاد الحضور إلى مكانه عند الباب ، وضرب الأرض

بخدمته ليزيل الفلوج عن حياته وقال : « أعني أن أطلع أرضي حبرك ، ولكنني أطلع في صفحك على الفور ! » .

واقترب بعد ذلك من الموقد وقال : « لقد عانيت مشقة كبيرة في الوصول » .

وراح يذوق يديه على اللهب . ثم قال : « لقد أفرقتني المحة من العاصفة إلى وسطى في الجليد ، ولكن الجليد كان بعد طرياً لحسن الخط » . ولم أمك سوى أن أسأله : « ولكن لماذا أتيت ؟ » .

— هذا سؤال لا يفتق مع كرم وفادة الزائر ، ولكن ما حدث قصد وجهته إلى قاتني أجيبك ببساطة بأنني أردت أن أحدث معك قليلاً ، فقد كانت كتي الصداقة ومسكني الخاوي . هذا إلى أنني ... هذه الأوس ... تمكنتي قلن الشخص الذي سمع من القصة تصفها ، فهو ينهل على سماح البقية المكللة ! .

ثم جلس . وقد كثرت سلوكه الشاذ في اليوم السابق ، فخلت أن به مساً من الجنون ، وأنه ... إذا صح أنه ملقات العقل حقيقة ... فإن حيله هادئاً رزين ، والواقع أنني لم أر ذلك الوجه المالح القسبات أكثر شياً بالرخام المنحوت مما رأيته إذ ذاك ، حين رفع شعره المبلل بالفلوج بجانباً وترك ضياء المدفأة يملأ جيده المنقطع ووجنيه الشاحبتين حيث اكتشف للأصنف والألمني آثار العناء والحزن غائرة في وضح . وترقت في انتظار أن يقول شيئاً أستطيع على الأهل أن أفهمه ، ولكن يده كانت مرفوعة إلى ذقنه ، وإصبعه على شفته ، وهو غارق في التفكير ! ... وأذعني أن أرى يده مغمضة كوجهه ، ولعل موجة من الرثاء طغت آنذاك على قلبي

قلت : « ليت تيانا وماري تانيان وتعيشان معك ، فليس أسوأ من أن تعيش وحيدك ولا تيانا معك ! » .

— كلا بطلاً .. إني أعني بنفسى عند الزوم . وأنا الآن بخير ، أي نقص تربت في ؟

وعاد يحدق بعينه في الموقد . وإذا رأيته ضرورة التعجيل بقول شيء ما ، سألفه فجأة عما إذا كان يشعر ببرء يبعث من ناحية الباب القاتم خلفه ، ولكنه أجابني في الغضب وعناد : « كلا .. كلا ! » . قلت في نفسي : « حسناً ! » ما دمت تأتي أن تتكلم فلا تتركك لتستك ووحدة وأعود إلى ديواني ! .

\*\*\*

● ونظفت قبيلة الشعة ، ثم عدت أتصفح ديوان (مارمبون) ، ومرعان ما تحرك فأنذيت عيناى إلى حركته ، فوجدته يخرج حافظة من الجلد الرقيق ، وأخذ منها خطأ جعل يقرؤه في صمت وسكون ، ثم طواه وأعاد ، ليغرق في بحور التفكير من جديد . ورأيت من العث أن أقرأ أمام هذا المنسخر في مكانه هكذا ، ولم أقو على أن أظل خرماء وقد نفذ صبري لطول ذلك الصمت ، فم أبال بخصائه وقلت : « هل تلقيت أنباء من ديانا وماري أخيراً ؟ » .

— لا شيء بعد الخطاب الذى أطلعتك عليه منذ أسبوع . — هل حدث أى تغيير في مشروحاتك ؟ هل مستدعى إلى مغادرة الجبلنا بأمر من ؟

— لا أظن ذلك في الحقيقة ، فإن مثل هذا الخط لا يواتني !



وحزت في أمره فأريت أن أعير مجرى الحديث ، وفكرت في أن أحدثه عن المدرسة والتعليمات فقلت : « لقد تحسنت صحة أم ماري جاريات عن ذي قبل ، ومن ثم عادت ماري إلى المدرسة في هذا الصباح . وسوف تقدم لنا أربع تلميذات جديدات من ميبك (كلوز) ولولا العلاج لخضرن اليوم » .

— أصبح ؟

— ويثوى مستر أوليفر الإنفاق على التين منها .

— كذا ؟

— إنه يعزم إقامة ولادة للمدرسة كلها في عيد رأس السنة .

— أعرف ذلك .

— أكان هذا اقتراحك ؟

— كلا .

— اقتراح من إذن ؟

— اقتراح ابنه فيما أعتقد .

— ليس هذا بمنعرب منها ، فهي طيبة القلب جدا .

ثم رانا الصمت مرة أخرى ودقت الساعة الثامنة ، فصحا من تأملاته واعتدك في جلسته يقول : « عني كتابك لحظة وأقرب من أهدافه قليلا » . فعجبت ، ولكن عجبى لم يجد ما ينظم غلظه فرسخت ، واسترسل يقول :

— حدثتك منذ نصف ساعة عن فني لماع تكتنه القصة ، ولكنني وجدت بعد التأمل والتفكير أنه من الأفضل الآن أن أقوم بدور النقصان

وأن تتحول أنت إلى دور المستمعة . ويحسن أن أتحدثك — قبل أن أبدأ — إلى أن النصبة ستقع في أفديك موقع الابتلال . لكن التفاصيل المتدلة تستعيد في الغالب شيئا من الجدة إذا نظقت بها شغاف جديدة : فقد عشرين عاماً ، وقع فيس صغير — لا تلبث اسمه الآن — في غرام ابنة ترى ، ووقعت هي الأخرى في غرامه ، فتزوجا برغم نصيحة جميع أهل القنطرة الذين تهرأوا منها على أثر زفافهما .. ولم يتنقض غمان ، حتى توفي العاشقان ودفنا في سكون جنيا إلى جنب ، وقد رأيت قبرهما ، فهو يؤلف جزءاً من حافة الساحة الخائلة الضيقة بكتاتدرائية عتيقة ، سود الدخان جدرانها ، في مدينة صناعية مترامية الأطراف ، في مقاطعة (....) ، ولقد خلفا ابنة تلتقيها الإحسان في حجره البارد ، التي يشبه القفحة الجليدية التي دحضني القيلة . وحمل الإحسان القفحة العديدة التصغير إلى بيت خالها الغني ، حيث ربها زوجة الغزال ، وكانت تدعى — وهنا أذكر الأسماء — مسز ريد من (جيبسبوك) .. لماذا ارتعت ؟ .. هل سمعت جلبة ١٢ .. إنما هي قفحة ترحف بين أنواح سقف المدرسة المجاورة ، فقد كان الحين يوماً غزيراً للتلألؤ ، وهذه الحفاظ تتراندها القفران عادة .. وأعود لقصتي فأقول إن مسز ريد تولت تربية اليتيمة عشر سنوات ، أما هل كانت الفتاة سعيدة أو كانت شقية ، فلا أستطيع الجزم ، ولم يغيرني أحد . ولكنها نقلت في نهاية تلك السنوات إلى مكان تعرفته أنت ، وهو مدرسة (لو وود) حيث قضيت فترة طويلة . ويبدو أن سيرتها هناك كانت ناصعة ، لأنها لم تلبث أن أصبحت معلمة ذلك ، حقاً ، يدعشني أن ثمة تشابهاً بين تاريخها وتاريخك ؟ .. ثم عادت

الفتاة المدعوة واشتغلت مربية - مثلك - الفتاة قاصدة تحت وصاية رجل يدعى مستر روشستر.

وهنا قاطعة حادثة : (مستر ريفرز : ١) .. فقال : « يوسفى أن أحسن متعارف ، ولكن عليك أن تكبحيا قليلا ، إذ كنت أنتهى ، فاصبرى إلى النهاية . لئنى لا أعرف شيئا عن أخلاق مستر روشستر اللهم إلا أنه أراد الزواج بتلك الفتاة الشابة ، فاكشفت وهى أمام المذبح تخافاً أنه متزوج بأخرى على قيد الحياة - وإن كانت ميتة - ولا أدري ماذا عرض عليها بعد ذلك . ولكن عندما وقع حادث السرجب البحث عن الفتاة بعد ذلك - تبين أنها فرت - دون أن يدرى أحد متى وأين وكيف فرت - وأنها غادرت (تورنكلند هول) ليلا . وذهب سدى كل بحث عنها . ومع ذلك كان زاماً أن يسألتوا البحث ، فقبوا فى طول الريف وعرضه دون الانتهاء إلى آخرها ، ونشرت الإعلانات فى جميع الصحف . وأنا شخصياً تلقيت خطاباً من مخم يدعى مستر ريجو ذكر فيه البيانات التى زويتها لك الآن . أليست قصة عجيبة ؟ »

قلت : « ما كنت تعرف كل هذا ، فلابد أنك تستطيع أن تخبرنى بشئ ما عن مستر روشستر ، كيف وأين هو الآن ؟ »

- لئنى أجهل كل شئ عن مستر روشستر - فإن الخطاب لم يذكر عنه إلا المخالفة غير الشرعية التى أئمت إليها - ولكن حسن أنه سألنى عن اسم المربية وعن ماهية الحوادث التى يطلب ظهورها !

- ألم يذهب أحد إذن إلى تورنكلند هول ؟ - ألم ير أحد مستر روشستر ؟

- لا أظن :

- ولكنهم كتبوا إليه ؟

- يشير مستر بيرنيس فى خطابه إلى أن الجواب الذى تلقاه لم يكن من مستر روشستر وإنما من سيدة تدعى أليس فيرفاكس :

فتمرت بيرودة قارسة - وبأكتاب - وخشيت أن تكون غافوق قد تخلفت ، إذ يحتمل جداً أن يكون مستر روشستر قد غادر إنجلترا ، ودفعه شوره إلى أن يجمع على وجهه فى أوروبا . أى مسكن لألامه المضيئة وأمة غاية ليعاظمه المشوبة بالنسب هناك ؟ .. ولكننى لم أجزأ على الرد عن هذا السؤال .. أواد ياسيدى الشكين ، الذى كتبت أن يصبح زوجى يوماً ، والذى طالما ناديت « عزيزى إدوارد » :

وقال مستر ريفرز : « لابد أنه كان شريراً » : فتهفت بحرارة : « تلك لا تعرفه فلا تدر رأياً فيه ! » ولكنه أجابنى فى هدوء : « حسناً جداً . الواقع أن رأيى مشغول بأفكار أخرى غيره . ولدى قصتي أريد الانتهاء منها . وما كنت لا تريدون سؤالى عن اسم المربية فبجب أن أذكره من تلقاء نفسى .. انظروا ! لئنى أحفظ به هنا .. من دواعى الارتياح أن يكون الإنسان النقط العامة بانداد . تم أخرج مرة أخرى حافظته فى أناة ، وفتحتها وقشيتها ثم أخرج من بعض عيونها قصاصة مقشقة قطعت على عجل - فأدركت من نسجها ومن الألوان التى كانت تلطخها ، أنها القصاصة التى قطعها بالأتمس من غلاف الصورة ! .. ثم قام ووضع الورقة أمام عيني . فقرأت كلمتى (جين إير) مكتوبتين بالحبر المبلدى ، وخط يدى ، ولابد أننى كتبتهما فى لحظة شرود .

• وقال القس الشاب : « لقد كتب إلى مستر بريجز عن جون إير ،  
وظليت الإعلانات البحث عن ( جون إير ) ، وإذا كنت أعرف من  
تسمى جون البيوت ، فقد سأورتني الشك الذي لم تأكله ، ويحظر إلا عصر  
أعس ، فهل تعتز فين يا حبيب الحقيقى ؟ »

— نعم . نعم . ولكن أين مستر بريجز ؟ إنه قد يكون أكثر منك  
معرفة بأبناء مستر روشستر !

— إن بريجز في لندن ، وأشك في أنه يعرف شيئاً عن مستر روشستر .  
لأن اهتمامه ليس موجهاً إليه . ولكنك تدين الطفل الطامة ولا تبغين  
سوى الأمور النافذة ! لماذا لا تسأليني عن السبب الذى يبحث مستر  
بريجز عنك من أجله وفيه يريدك ؟

— حسناً ، ماذا يريد ؟

— لا يريد سوى أن يخبرك بأن عملك مستر إير من ( مايفيرا )  
قد تولى ، وأنه ترك لك كل روثه ، وأنت الآن غنية !.. هذا كل  
شئ . ، ولا أكثر من ذلك !

— أنا .. غنية ؟

— نعم : أنت غنية .. ووارثة !

وساد السكون إلى أن قطعه سانت جون فجأة بقوله : « إن عليك  
بطبيعة الحال أن تثني شخصيتك ، وهى عطوفة أن تجدى فيها صعوبات ،  
وتستطيعين بعدها أن تستولى على إرثك فى الحال . إن ثروتك مودعة فى  
المصارف الإنجليزية ، ولدى بريجز الوصية والمستندات اللازمة ! »  
وهكذا قلت ضغطة جديدة فى سقر حياتي . إنه شئ جميل — أنها

القارئ : سأن ترفع فى لحظة من النقر المدقع إلى التراء .. شئ جميل .  
ولكنه أمر لا يمكن أن نفهمه وتستوعبه مباشرة وعلى الفور !.. ثم إن  
فى الحياة مصادفات أكثر إثارة وأبهج من هذه التى بدت جامدة .. مجرد  
حدث من أحداث الدنيا ، ليس فيه — أو حوله — شئ من المثل العليا ،  
كما أن كل ملائحته جامدة وقوية ، وكذلك كانت مظاهره . فليس فيه  
مفاجأة تجعل الإنسان يشب أو يفقر أو يتهلل من الفرح ! بل إنه ما يكاد  
يظفر بالثروة حتى يبدأ التفكير فى المسئوليات والتبعات والعمل ، وما أن  
يستتب الشعور بالرفق حتى تنفأ .. على أسامه — الشواغل والمهموم —  
فتعطى على أنفستنا وتطيل التفكير فى النعمة التى حلت بنا . فحين  
مكتفراً !

هذا إلى أن كلمتي « ميراث ووصية » تشيران جنباً إلى جنب مع  
كلمتي « موت وجنازة » . لقد كان عمي الذى سمعت بموته هو قريبي  
الوحيد ، وقد عشت .. منذ فطنت إلى وجوده — بأمل أن أراه فى يوم  
من الأيام ، أما الآن فقد انقطع هذا الأمل ، ثم جاءتني أموالي بدلاً منه ،  
لاى .. وأنا ربة أسرة تنعم بالمفاجأة .. ولعمالي ، وأنا وحيدة ، منعزلة !..  
ومع ذلك فقد كانت المفاجأة نعمة عظيمة .. وسوف يكون تحرورى من  
الفاقة أمراً جيداً .. أجل : لقد شعرت بذلك .. ولقد امتلأ قاي سعادة .  
وقال مستر روبرتز : إذ بلغت هذا الحد من التفكير : « ها قد  
رفعت جيبك أخيراً ، وكنت أحسبك قد انحوت إلى حجر !.. ولعلك  
تسألينى الآن كم تساوين ؟ »  
— نعم كم أساوى الآن ؟



— أوه... شيئاً فاقها! شيئاً لا يستحق الذكر! أنظروا! أنظروا! عشرون ألف جنيه!

— عشرون ألف جنيه؟

وكانت هذه مفاجأة جديدة، إذ كنت أتوقع ألا تعدوا الثروة أربعة أو خمسة آلاف، فاحتبست أنفاسي لحظة، فما جعل سانت جون — الذي لم أسمع بضحك من قبل — يضحك ويقول: «عجباً!... لو أنك افترقت جريمة قتل ثم أخبرتك بأن جريمتك قد اكتشفت ما أديت كل هذه الدهشة!»

— إنه مبلغ كبير، ألا تعتقد أن هناك غلطة ما؟

— لا غلطة هناك على الإطلاق.

— لعلك أخطأت في قراءة الأرقام... ربما كانت ألفي جنيه!

— إنها مكتوبة بالحروف لا بالأرقام... عشرون ألفاً!

ومرة أخرى، شعرت كأنني مخلوقة ذات شبهة معتدلة للأكل، جلست وحيدة إلى مائدة خلقت بما يمكن مائة شخص!... وهنا تعرض مستر بريزر، فالتفت بهامته قائلاً: «لو لم تكن الأيلة عاصفة لأرسلت حبة لنتي في رفقك، لأنك أنت نفس نفساً من أن تظلي وحيدك، ولكن حبة المسكبة لا تستطيع أن تعرض مثل الفلوج، ولنتك يجب أن أتركك».

وفيما كان يرفع المزلاج عظميت برأسي فكرة مفاجئة، فصحت: — إن ما يخبرني هو: لماذا كتب لك مستر بريزر عني، وكيف عرفك أو خطر بباله أنك... وأنت تعيش في مكان لا علاقة له بأمرى —

تستطيع أن تعاون في العثور على؟

— آه!... (ثني قميصي، والقلموسة يلجأ إليهم في المرات:

\*\*\*

• ومرة أخرى جليل المزلاج فصحت: لا... هذا جواب لا يقتضي!... والواقع أن شيئاً في رده العاجل، المقيم، أذكر فضولي بدلاً من أن يهني جأشي، فاسترسلت أقول: «إنه لأمر عجيب، ولا بد لي من أن أعرف المزيد عنه». فنهف: «كلا... ليس الأيلة!... وإذا استدار إلى الباب، وقفت بهيماً، فجل على الارتباك ولكني قلت:

— إن تذهب من هنا حتى تخبرني بكل شيء».

— أوتر ألا أقول ذلك الآن.

— بل لسوف تخبرني!... يجب!

— من الخير أن تخبرك ديانا أو ماري.

وأثارت هذه الاعتراضات — بطبيعة الحال — لفتني، وبلغت بها اللحوة، فكان لا بد من أن أشبعها دون إبطاء، وأخبرته بذلك فقال:

— ولكني قلت لك إنني رجل قاسم يصعب إغراؤه.

— وأنا امرأة قاسية ضلعة يصعب إوجاؤها.

— أنا رجل بارد لا تؤثر فيه حرارة أو حاسة.

— وأنا حارة، تار تليب الثلج، كهذا الوهج الذي أذاب الجليد عن عباتك فانهمر على أرض حجري وجعلها كشوارع تطرقه الأقدام: إنك تريد أن أعطيك، فهلا أخبرني بما أريد؟

— حسناً إذن! لقد استسلمت، إن لم يكن لقصصك، فلمنارتك •

فإن الخير يليه توالى سقوط القطرات . هذا إلى أنك متعلمين بالأمم  
بزوايا ، عاجلاً أو آجلاً . هل اسلك جون آير ؟

— بالطبع . لقد فرغنا من هذا الأمر من قبل .

— لعنك لا تعلمين أنني أحل لنفك ، وأن أمي سأنت جون آير

يرقر ؟

— كلا في الحقيقة . لقد رأيت حرف ( أ ) على كل كتاب استعرت  
منك . ولكني لم أسألك قط عن بقية الاسم . وماذا بعد ذلك ؟ لا شك  
أن ...

ثم توقفت لأنني لم أجده من نفسي قدرة على التسليم بالنكرة التي  
خامتني فجأة ، ولا على التعبير عنها بعد أن تجسست . وبدأت في في  
الحال قريبة الاحتمال . لقد تعقدت الأمور ثم انتظمت . ثم تحولت  
المسألة المكنسة إلى عقد منظوم متصل كل حبة فيه بالأخرى . وقد  
عرفت بغيري ما هي الأمر قبل أن ينطق سانت جون بكلمة واحدة ،  
ولكني لا يمكن أن أتوقع للمقارئ نفس هذه البصيرة البديية ، ولذلك  
يجب أن أعيد عليه ما أوضحه سانت جون ، إذ قال :

— كان ( آير ) اسم والدتي . وكان لها شقيقان . أحدهما تيس  
تزوج من جون ريد من ( جيتسبيد ) . والثاني جون آير التاجر بحرية  
ماديرا . ولما كان مستر ريد يحايي مستر جون آير ، فقد كتب إلينا  
في أغسطس يخبرنا بوفاة خالنا . ويقول إنه ترك ثروته لابنة تيس  
التيبة ، وأنه لم يوص لنا بشيء . لأنه لم يستطع أن ينسى الضعاف القديمة  
التي خلفها ما قام بينه وبين أبي من نزاع . ثم كتب مرة أخرى بنزل

أسابيع يقول إن الوراثة مفقودة ، وسأني عما إذا كنت أعرف عنها  
شيئاً . وقد وقعت عينا مصادفة على اسم مكتوب على ورقة . فإذا  
في أمتي إليها . وأنت تعرفين الياق ؟

وهم بالذهاب مرة أخرى ، ولكنني دفعت الساب بظهرى  
وقلت : « أرجو أن تدعي أنك لم تترك لي دقيقة أستردها فيها نفسي  
وأفكر » .. وتوقفت ، فوقف أمامي وتبعته في يده . وكان يادى  
الارتباك ، فاستطردت أقول :

— هل كانت والدتك شقيقة أبي ؟

— نعم .

— إذن ، فهي كانت عمتي !

فجئني رأسه موافقاً .

— وإذا فقد كان خالك جون هو عمي جون . وأنت وديانا وماري

أبناء شقيقته كما أنني ابنة أخيه ؟

— بلا مرأه !

— إذن فأنت الثلاثة أبناء عمتي ، ويتبع نصف دمنا من معين واحد ؟

ونظرت إليه ، ففعل لي أنني وجدت شقيقاً استطاع أن أفخر  
به وأخيه . وشقيقتين تمت أخلاقيتهما — عندما عرقتهما وكانا مجرد  
غريبتين عني — بحيث أثارنا في نفسي الحب والإعجاب . وإذا  
فالفتاتان اللتان ركعت على الأرض المبللة لأنظر إليهما خلال النافذة  
المغطاة بالبلاتلا ، بمطبخ ( مورهاوس ) نظرات تفيض بالاهتمام واليأس  
كانتا من اقرب أهلي ، وإذا فالسيد الشاب الذي وجدني مشرفة على

الموت على عتبة داره ، كان من قوى رحي . . . ياله من اكتشاف رائع  
لبائسة وحيدة ! . . لقد كانت هذه ثروة في الحقيقة ، وأى ثروة ! . .  
ثروة للقلب ، ومنجماً للحب الصالح الأصيل ، ونبعة مشرقة زاهية  
مبهجة ، ليست كمية الذهب الثقيل ! . . وحفشت يدي في فرحة مفاجئة ،  
وقد وثب قلبي في صدرى ، وثارت عروقي ونبضت !

— أواه . . إني مسرورة . . إني مسرورة !

فاقدم سانت جون وسألتني : ألم أقل إنك أملت النقط الهامة  
لتعقب الثروة ؟ . . لقد كنت رزينة عندما أخبرتك بأنك أصبت ثروة ،  
وهأنذا الآن منفعة أشد الانفعال ؟ . .

— ماذا تعنى لا قد لا يهلك الأمر ، لأنك شقيقتين ، أنا أنا فلم  
يكن لي أحد . فوجدت الآن ثلاثة أقرباء أو اثنين إذا كنت لا ترضى  
أن أعذك معيها . إني أكرر أنني مسرورة !

\*\*\*

• ورحت أخطو في الغرفة بخطوات مسرعة ، ثم وقفت وقد أوشكت  
أن أختنق بالأفكار التي تداعبت في رأسي متراحة حتى عز علي إدراكها  
أو تسيقها . . وكانت أفكاراً تدور حول ما قد يكون ، وما يمكن أن  
يكون ، وما يجب أن يكون ! . . وتطاعت إلى الجدار الأملس الأبيض ،  
فخيل لي أنه ساء رائتي بالنجوم . وفاضت نفسي بالفرح إذ أدركت أنه  
قد أصبح لي وسعي أن أنفع أولئك الذين أنقذوا حياتي . والذين أحبتهم  
حتى هذه الساعة حباً خالصاً ، متزهاً عن الغرض . . لقد كانوا يرسفون  
تحت نير الحياة القاسية ، وفي وسعي أن أخرجهم . . لقد كانوا مفترقين ،



وهم باللهاب مرة أخرى . . ولكنني دفعت الباب بظهرى وقلت :  
« أرجو أن تدعني أتكلم . المرة في دقيقة استرد فيها نفسي وأفكر »

مشكور ، فأصبح في مقدوري أن أجمع شأني .. لماذا لا يصون هم الآخرون بما أنعم به من استقلال ؟ .. ألم تكن أربعة ؟ .. إذن ظلو قسست الجنيات العشرون ألفاً بالتساوي بيننا ، لأصاحب الواحد منا خمسة آلاف تكفيه ، بل تزيد عن حاجته ! .. (إذن فلا بد للعائلة من أن تأخذ جراحها ، فنتخلصنا السعادة جميعاً) .. (وإذ ذلك لم أجد أشعر بالثروة عبثاً بقل كاهلي ، لأنها لم تعد في نظري مجرد ميراث نفسي ، وإنما غدت وثيقة الحياة والأمل والتعيم) !

ولست أدري ما الذي لوتهم على وجهي إذ طافت هذه الخواطر برأسي ، وذاو تحمسي بها ، ولكنني أبصرت بمستّر ريفرز يعمل متعدياً فيضده على ، ويروح يفرق بالجلوس ، وينصحن بضبط خواطري . غير أنني صغرت بما خاله غوراً أصابني ، فادفعت يده ، وجعلت أذرع الحجر من جديد ، ثم قلت له : « اكتب لي ديانا وماري غداً لتعودا في الحافلة ، فقد سمعت ديانا تقول إنها تعد نفسها غداً إذا هي ظفرت بألف جنيه ، فما بالك بيما لو أن كلا منهما ظفرت بخمسة آلاف ؟ » فقال سانت جون : « لا بدني » من أين أتيت بكوب ماء ؟ .. ٢ .

— هراء ! .. ترى كيف كان بمنحلي أن يكون تأثير الوصية عليك ، لو أنها كتبت لصالحك ؟ .. أفكأنت تستيقظ في الجحش ؟ .. وتغريك بالزواج من مس أوليفر ، وبالأصغر كجيفرك من بني البشر ؟

— إنك تهين .. لقد احتجيت ! .. لقد كنت مندفعاً في إزجاء اتبأ إليك ، فقد أثار انفعالك أكثر مما تحبب قواك !

— إنك تفندني صبري بامستر ريفرز ! .. إنني مكتملة العقل ، ولكنك أنت الذي تسوء الفهم ، أو تتعمد إساءة الفهم !  
— قد أخذت أكثر إحراكاً ، لو أنك زدتني إيضاحاً بعض الشيء .  
— إيضاح ! .. ما الذي هناك للإيضاح ؟ .. ما أظنه بعينك أن ترى أن العشرين ألف جنيه — وهو المبلغ الذي نحن بصدده — إذا قسست بالتساوي على أبناء الخفولة الأربعة ، فلهذا تنجح لكل منهم خمسة آلاف ! .. والذي أبقه هو أن تكتب لشقيقتك وتبشها بالثروة التي أصابتهما .

— تعين .. أصابك .

— لقد انتهيت إلى رأي في الأمر ، وليس بوسعي أن أخذ رأياً سواه ، إنني لا أأنصف بأنانية هوجاه ، ولا بظلم أعني ، ولا بخوف مزر . ثم إنني عقدت العزم على أن يكون لي بيت وأقارب . ولما كنت أحب (مورهاوس) ، لذلك فسوف أعيش في (مورهاوس) .. ولما أنني أحب ديانا وماري ، لذلك فسأربط حياتي بحياة ديانا وماري .. ولسوف يرضيني وبقيدتي أن أملاك خمسة آلاف من الجنيات ، ولكن .. سعديني ويرجيني أن أملاك عشرين ألفاً ، هي — فوق ذلك — ليست من حق شرعاً ، وإن أمكن أن تكون حقاً في بحكم القانون . ومن ثم فسأقول لكم عما هو أكثر مما أستحق فعلاً .. فدع كل معارضة وكل مناقشة في ذلك ، ولنطق فيما بيننا !

— هذا تصرف من وحي انفعالاتك الأولى ، فلا بد من أن تثري أيماناً لشرعني مثل هذا الأمر ، حتى تكون كلمتك ضائية !



— آه !.. إذا كان صدق عزى هو كل ما ترقاب فيه ، فاعلمين ..  
ألا تؤمن بعدالة المسألة ؟

— الحق أننى أرى فيها قسماً من العدل ، ولكنها مخالفة لكل عرف ..  
ثم إن الثروة يأكلها من حلقك .. وقد اكتسبها خالى بجهوده ، ومن ثم  
كانت له الحرية فى أن يتركها لمن يشاء ، وقد تركها لك .. والعدالة تبيع  
لك .. ورغم كل شئ .. أن تستأثرى بها ، فلك أن تعتبرها ملكك المطلق ،  
وأنت .. رباحة الضمير !

— إن المسألة لدى مسألة مشاعر كما هى مسألة ضمير ، إذ لا بدنى  
من أن أقبح مشاعرى هنا ، فنادراً ما سمحت فى الفرصة لهذا .. ولو أنك  
حاججتى .. وعارضتنى ، وضايقتنى عاماً بأكمله ، لما أثبتتني عن المنعة  
العذبة التى لأح فى قبس منها .. منعة ود جميل هائل يعرفان بسبب ،  
واكتساب أصدقاء يحيطون فى مدى الحياة !

قال : « إنك إنما ترين الآن ذلك ، لأنك لم تعرفي بعد منعة أملاك ..  
ولا لذة الثراء .. ليس بوسعك أن تكوني فكرة عن قيمة العشرين ألف  
جنيه لديك .. ولا عن المكائنة التى تستطيع أن ترفعك إليها فى اجتماع ..  
ولا عن الفرص التى ستفتحها أمامك .. ليس بوسعك .. » فقاطعتها  
قائلة : « وليس بوسعك أنت أن تتصور الخبير الذى يتملكنى نحو  
حب الأخ وحب الأخت .. إننى لم أحظ يوماً ببيت ، ولا مكان فى  
إخوة ولا أخوات ، فلا بدنى الآن من كل ما حرمت منه .. أتفهم عن  
أن تضللى أختاً ؟ »

— بل سأكون أختك يا جين ، وستكون شقيقتائى شقيقتك ،  
دون ما دأع لأن تضحي بقررتك ..

— آخ ؟ .. أجل ، على آلاف الفراسخ منى .. وشقيقتان ؟ ..  
نعم ، شقيقتان فى خدمة الأعراب .. فأكون غنية ، متخمة بذهب لم  
أكتسبه ولا أمتصه ، وأنت معدون ؟ .. بالها من مساواة ومن إخاء ..  
ألا قرب البعيد ، ووثق الرابطة !

— ولكن آمالك فى الروابط العائلية والسعادة المترتبة يمكن أن  
تتحقق يا جين بطريقة غير التى تفكرين فيها .. بوسعك أن تتزوجى ..

— هراء !.. أأنعز مرة أخرى إلى فكرة الزواج ؟!.. لست أريد  
زواجاً ، ولن أتزوج ..

— هذا إسراف فى القول ، وما هذه التأكيدات الملقاة جزافاً ،  
إلا دليل على الانفعال الذى تغاينته ..

— ليس هذا إسرافاً فى القول ، فإني أدرك ما يتخلج فى صدرى ،  
وأعرف مدى تصور نفسى من مجرد التفكير فى الزواج .. إن أحداً لن  
يقبلنى زوجة من أجل الحب وحده ، بل سأكون مجرد صفقة مالية ..  
ثم إننى لا أريد معايشرة غريب ، أجنبي عنى ، لا تربطه بى عاطفة ، وإنما  
أنا أئشد الأقارب الذين أشعر بأننى منهم وهم منى .. قل مرة أخرى إنك  
ستكون أختى .. لشدة ما شعرت باغتياب وسعادة حين نطقت بهذه  
الكلمات .. كررها ، إذا استطعت أن ترددها صادقاً !

— أعتقد أن هذا بوسعى .. إننى لأوقن من أننى كنت دائماً أحب  
شقيقتى ، وأدرك الأساس الذى قام عليه حبى لها : احترامهما ،

والإعجاب بتواهيهما .. وأنت الآخرى لك مبدأ وعقل راجح ، كما أن  
أذواقك وعاداتك تشبه أذواق وعادات ديانا ومارى ، ولقد ارتجت  
دوماً بل وجودك ، ووجدت في حديثك سارى وتسرية ، ومن ثم فإني  
أشعر أن من السهل على أن أقبح لك مكاناً في قلبي ، دون ما تكلف ،  
فتصبحي أحباً ثلاثة :

١- شكراً .. إن هذا يسعدني في أميقي ، والآن ، يحسن بك أن  
تصرف لأهلك ترح شجوني ببعض الحانات التي نتم عن تردد ، إذا أنت  
أعطت المقام .

فأقسم في تقدير ، وتصافحتنا ، ثم انصرف .. ولست بحاجة إلى أن  
أروي ألوان الصراع التي دارت ولا الجدل الذي جرى بعد ذلك ، حتى  
استطعت أن أفض ما شئت بعدد المرات .. كانت مهمتي شاقة ،  
ولكني كنت قد عقدت العزم ، وقد لست أبدأ عنى مدى ثباتي بتقييم  
المرات بيننا ، كما أحسوا في قرارات قلوبهم بمدى لما كان مخلص في  
سويداني .. ولا بد أنهم شعروا بأنهم ما كانوا يفعلون غير ما فعلت لو أنهم  
كانوا في مكانى ، ومن ثم فقد انتبوا ، في آخر الأمر ، إلى أن بشيروا  
بني وبنيهم من يحكم في المسألة .. واختير مستر أوليفر ، أحد الشاعرين  
الاكتفاء لفصل ، فأقرا رأيي ، ومن ثم انتصرت وعقبى ، وسرعان  
ما اتخذت الإجراءات الرسمية للنسبة ، وأصبح كل من سانت جون ،  
وديانا ، ومارى ، وأنا بلك نصيباً مساوياً لتدبير كل من الآخرين !

\*\*\*

## الفصل الرابع والثلاثون

• كان عيد الميلاد قد اقترب ، عندما تمت التسوية ، وأشرف موسم  
العطلات فأغلقت مدرسة (مورتون) ، وقد حرصت على ألا يكون  
فراق لما جافاً ، محبداً ، فإن الحظ الطيب يفتح اليد كما يفتح القلب  
بمهاراة عجيبة ، والمرء حين يمنح فسطاً ما من العواطف ، في مقابل  
الكثير الذي تلقاه ، إنما يخفى من جيشان الأحاسيس المضطربة في  
فؤاده . فإذ لما شعرت باعتباط أن كثيراً من تلميذاتي الرقيات كن  
جيبني ، وقد تأكد هذا الشعور حين آن لنا أن نفرق ، وما كان آمن  
تقديري وعرفاني حين تبين أن لي مكانة صادقة في قلوبهن الماذجة غير  
المراية . وقد وعدتني بأنني لن أزع أسبوعاً بمر في المستقبل دون أن  
أروهن ، وأن ألق عليهن درساً في المدرسة !

وأقبل مستر ريفرز في اللحظة التي صرفت فيها الفتيات البشيت ،  
وأغلقت الباب ، ووقفت ممسكة بالمفتاح في يدي ، أبادل كلمات الوداع  
مع نفر من خيرة التلميذات ، كنت أراهن من أكثر شايات الريف  
البريطاني حشمة ، واحتراماً ، ونواضعاً ، ومعرفة . وقال لي مستر  
ريفرز بعد انصرافهن : « أترين أنك لنت جزء طياً عن الموسم الذي  
قضىته في التعليم ؟ ألا تجدن متعة حفاً في الشعور بأنك قد فعلت خيراً  
حقيقياً ليومك وجيالك ؟ .. فهتفت : « يا لاربي » . قال : « ومع  
ذلك ، فأنت لم تجاهدي في هذا السبيل سوى بضعة أشهر .. أفلا تترين  
أن حياة تكرس ثانوى بالجنس البشرى هي غير أنواع الحياة ؟ »

قلت : بل ، ولكني لا أستطيع أن أمضي أبعد الدهر على هذا الموال . بل أحب أن أستمتع بما لدى من ميزات وخصال . مثل ما أمضى في الغير بحسب الميزات والخصال . لا بد لي من أن أستمتع بما أوتيت . فلا تذكرني بالمدرسة . فأنا الآن خارج جدرانها وأبعد عن أن أحظى بأجازة كاملة . .. ففكرتني في قلق وقال : ماذا هناك . .. ما هذا التلهف المالح الذي يتولاك . .. ماذا تتوهم أن تفعل ؟

— أن أنشط . .. وأنشط بقدر ما في ملاقتي . على أنني أرجو أولاً أن تشرح حنة ، وأن تبحث عن سواها لتقوم بخدمتك .

— هل تريدني ؟

— أجل . .. أود أن أتعلمها معي إلى (مورهاوس) . .. ثلثين بنقضي أسبوع حتى نكون ديانا وماري قد وصلنا . وأحب أن يكون كل شيء معداً في انتظارها .

— فهمت . .. إنما خيل لي أنك تريد أن تفرى في رحلة خلال العجلة . الخبير فيها اخترت . .. فلتذهب حنة معك !

قلت : « إذن فأثبتها بأن تشأب في غدا . وهناك مفتاح المدرسة ، وسأعطيك مفتاح كركي في الصباح » . فتناول المفتاح وقال : « إنك تسلمتني في بساطة وانسب . .. الحق أنني لا أفهم من ابتهاجك . لأنني لا أدري أي عمل تعترمين أن تشغلي به نفسك عوضاً عن هذا العمل الذي تتفادين منه بشاك . أي هدف ، وأي غرض . وأي مفتح لحياتك الآن ؟ »

— إن أصدق الأول هو : التنظيف التام . .. هل تعني المعنى الذي أحسده في هذا التعبير . .. سأنتظف (مورهاوس) من أعلى حجراته إلى أسفلها . وهذا الثاني أن أدلك أرفقه بالشمع والزيت وعدد لا يحصى له من الخلق البالية . حتى تستعيد لمعانها . .. أما هذا الثالث ، فهو أن أعطي لكل شيء من مفاتيح ، ومناشد ، وأسرة ، وأبسطه ، فأنتسحق في دقة جنسية . وسأعند بعد ذلك إلى استنفاد كل مائتيكم من لحم ووفود . لأشعل في مذاق الخجرات جميعاً ناراً طيبة . وأخيراً : سأكرس وحدة اليومين السابقين على وصول شقيقاتي في غفلة البيض . وفرد الزبيب ، وفتح التوابل . وإعداد كعك عيد الميلاد وتبينة المواد اللازمة لقطاثر وأداء الطقوس المطبخية . وإن أثار أمثالك هذا التعبير . .. فما غرضي فوجئ : هو أن أؤتي كل شيء في أكل حال . استعداداً لاستقبال ديانا وماري في يوم الخميس المقبل . .. وأما مطلقاً فهو أن أحبه . فما استقبالا مثلاً .

وارتسمت على شفطي سالت جون ابتسامة خفيفة ولكنه لم يفتح بها فلت فقال : « لا بأس بهذا لفترة الراحة ولكني أعطت جداً أنك إذا ما تخطت نوبة المرح العارمة هذه . ستفعلين لي شيء يسوء على ماني الأعمال العائلية والتعبير المأزلي من مياهيح » . فقاطعت قائلة : « إن هذه هي خير الأعمال في الدنيا » . ولكنه استأنف الحديث قائلاً : « لا يا جين . لا ، إن هذه الدنيا ليست مفرح وراحة وتعيم مقبح . فلا تحاولي أن تجعلها كذلك ! » . فقلت : « إنما أعزم العكس . .. أن أعمل جاهداً . »

— إنني ألتبس لك العنبر يا جين في الوقت الحاضر ، وسأصبح لك

يشبهين كاملين فستمران فيما الاستماع الكامل بمركزك الجديد .  
وتجهين نفسك بمفاتيح القوي التي لم تخطي بها إلا أخيراً . ولكنني أتمنى  
— بعد ذلك — أن تشرعي في أن تتجاوزي بعصرك لطاق (مورهاوس)  
(مورتون) وعشرة الشقيقتين ، والطماطنة الألمانية ، والراحة القائمة  
على إغواء شهوات النفس ..

تطلعت إليه مأخوذة ، وهنئت : « سانت جون .. أعتقد أنك  
خبرت إذ تتكلم بهذا الشكل . إنني أحاول أن أقتع نفسي بأن تكون  
مغيبية ، فإذا بك تخرجني إلى القلق وعدم الاستقرار .. فالعاقبة .. »  
فقال : « أن تنجني إلى النهاية التي تستغلين عندها المواهب التي أضاعها  
الله على كيانك . والتي ميسلك عنها يوماً ما حساباً عسيراً ولا ريب :  
لسوف أراقبك يا جين من كتب ، وبعين واعية ، فأخبرني ! .. حاول  
أن تكبحي جماح الاندفاع إلى المتع المخرقة والاقتصار عليها .. ولا تشبعي  
بالروابط المبنوية بهذه القوة . افكري حاسك ودأبك اقضية صالحاً ..  
أستغني يا جين » ٤٩ ..



● وما كان أسعدني في (مورهاوس) ١ .. وكما كان إقبالاً على  
العمل ! .. وكذلك كانت حنة . فقد قننت بحاراً من جدوى وإبهاجي  
وسط الصخب الذي ساد بيتنا الذي ظنناه رماً على عيب ، وأخذت  
ترقبني ترى كيف أتلك الأرض بالفرجون : وكيف أنقض الغبار .  
وكيف أنظف ، وكيف ألهيم ١ .. وأخفى أننا شعرنا بهامة إذ استطعنا بعد  
يومين من حكم القوضي والمرج ، أن نترج أولى معالم النظام . وكنت قد

قمت قبل ذلك برحلة إلى المدينة (س) ، فابست بعض الأثاث الجديد .  
إذ أطلق أثناء عني يدني في المستحدثات مارافق لي من تبديلات ، ولمررتنا  
معاً فخصيص صيغ معين لهذا الغرض . ولقد تركت قاعة الجلوس العادية  
وعرفت النوم كما كانت قديماً ، إذ كنت أدرك أن ذبا لوماري تستعير أن  
هبطت لم أي المناضد والمقاعد والأسرة القتيقة ، تنوق تلك التي تداخلها  
عند رؤية أكثر المستحدثات الباقية .. على أنه كان لابد من تجديدات  
نشيء لونا من التبديل والحياة في المناظر القديمة : فمن أبسطه وستائر  
قائمة جديدة جميلة المنظر ، إلى تحفة من التحف البيزنطية والخزفية  
الفريفة انضيت بعناية للزينة ، إلى مقارشي ومرابا ، وضوئات ومناضد  
الزينة مجلدة .. وضح ما توقعت ، فأضفت هذه الأشياء قيساً من  
الجدد وإن لم تشع في المكان بهرجة الجديد ١ .. وأحدثت تأليث قاعة  
للإستقبال وعقدت بأكلها . مختارة لها الأثاث من الخشب المورجني القديم ،  
وأقشة قمرزية ، وكسوت أرض الردهة بالمشع ، كما قرشت الفرج  
بالأبسطة . خلاص كل هذا . يدالي (مورهاوس) مثالا لتأليث المحتشم !

وأخيراً جاء يوم التعميس المرتقب ، وكان من المتوقع أن تصل  
الفتاتان حولي الغروب . ومن ثم أوقدت القبرانة في مداخل الطابقين منذ  
الأصيل ، وكان المطبخ في أكمل مظهر ، وأنا وحده في أبيس لثباتي . وكان  
شيء في أتم عدة .. وكان سانت جون أول المأفدين . وكنت قد رجوت  
أن يبقى بعيداً عن البيت حتى يتم تجهيز كل شيء . والواقع أن مجرد فكرة  
طلب نظام البيت . على بساطته واعتداله ، كانت كافية لأن ترجعه .  
والقائي في المطبخ عند وصوله ، أوقب إعداد بعض الكعك بالشاي :



ثم خيرة ، فتسأل وهو يقترب من المدفأة عما إذا كنت راضية عن ممارسة التدبير المنزلي . وكان جوابي أن دعوتني إلى أن يراخني في جولة يثقدها أعمالي .

وحالته بعد عشاء على أن يجوس خلال البيت : فكان يكتفي بإلقاء نظرة خلال الأبواب التي كنت أفتحها - وبعد أن طاف بأرجاء البيت في الطابق العلوي والطابق الأسفل ، قال إنني ولابد تجمعت قديراً كبيراً من العناية والتعب في تحقيق كل هذه التغييرات الكبيرة في مثل تلك الفترة القصيرة . ولكنه لم يفتني بحرف واحد يتم عن اغتياط لما أصاب غرفته بالذات من تحسين ، فذهبت حدة الحماس : إذ خطر لي أن التعديلات ربما كانت قد أصابت بعض معالم يعثر بها . وسأله في ذلك . ولابد أن لمحتي كانت موجبة ، مضطربة ، إذ يادر قائلاً إن الأمر على الشفط ، وأنه لاحظ أنني راعيت كل المعالم في حرمي . بل إنه خشى أن أكون قد أوليت المسألة أكثر مما كان ينبغي من اهتمام . وكنا قد بلشنا قاعدة الجلوس : فاستطرد قائلاً : « فكيف من دقيقة - مثلاً - قضيتها في دراسة نظام هذه الغرفة بالذات ؟ » وبهذه المناسبة : هل لك أن تخبريني أين الكتاب الذي كان هنا ؟ .. وأرشدته الكتاب على رف في الحجرة ، فتناولته من مكانه ، وحمله إلى مجلسه المجهود عند حافة النافذة ، وشرح بتوضعه :

والواقع أنني لم أكن أحب هذا . أيها القارئ .. لقد كان مانت جون رجلاً طلياً ، ولكنني بدأت أشعر بأنه كان صادقاً يوم قال عن نفسه إنه جاف بارد . لم يكن لهجرات الحياة ولا لباسها الإنسانية أي تأثير

عليه . ولا كان التمتع القادحة أي صبر لديه . والحق أنه لم يكن يعيش إلا الطلوح .. وصحيح أن طموحه كان يشد كل طيب وعظيم : إلا أنه مع ذلك جعله لا يستقر ولا يرضى عن استقرار من كانوا يعيشون حوله ! .. وبينما كنت أتأمل جيبته العالية - وقد بدت كحجر أبيض يجمدها وشحوبها - وللي قصاته البهية ، التي تركزت على الكتاب الذي كان يده ، أدركت فجأة أنه لا يكاد يصلح لأن يكون زوجاً طلياً ، وإن معاشرته ستكون مهمة مضنية على من تغدو زوجة له .. وكنت أفهم بغيري كنه حبه لمن أوليفر . وأقره على أنه كان حياً سامياً .. حب حواس وليس حب جسد . ولكنني إذ ذاك أدركت أنه خليف بأن يحضر نفسه لما يفرضه هذا الحب عليه من انفعال عديم . وحدثت مدى الرغبة الخليفة بأن تساوره لفقداء على هذا الحب ، ومدى عدم اعلمتانه إلى ما يستطيع هذا الحب أن يحققه من سعادة له أو لفتاة !

ورأيت أنه إذا خلق من المعدن الذي اعتادت الطبيعة أن تصنع منه أبطالاً - مسيحين كانوا أو وثنيين - ومشرعياً - وسانياً - وفادياً ، الظفرين .. غلوقات كالكلكل المتينة تعد لكي ترتكز عليها المهام الجسام . ولكن الرجل من هذا الصنف يكون في الحياة المنزلية مجرد مخلوق عايس ، كتيب ، لا يتناسق مع الجو المحيط به ! .. وجمال بخاطري : « أن قاعة الجلوس هذه ليست بحاله . بل إن جبال الجملانيا - أو أدغال (كافر) ، أو حتى ساحل غيليا التي - بالمستنفحات والأوبئة - قد يكون أكثر ملاءمة له من هذا المكان » .

ودفعت حنة إذ ذاك باب حجرة الجلوس صائحة : « ها هما ذانك

أثبات ١.. لقد أقبلتنا ١.. ونجح كارلو العجوز ، إذ ذاك في التماسح ،  
فهرعت إلى الخارج . وكان الظلام قد هبط ، ولكنني سمعت جلبة  
عجلات . وسرعان ما أوقدت حدة مصباحاً . بينما أقبلت عربة وفقت  
لدى الباب الخارجي ، وبرز علينا شكل جد مألوف . ثم تبعه شكل آخر  
مثله .. وإن هي إلا لحظة حتى كان وجهي تحت حواف فيعنيهما ، وقد  
انصل بحد ماري الناعم أولاً ، ثم بعد ذلك ديانا المناسبة .. وأخذنا نضحك  
ونقياح .. ثم احتضنا حدة . وريتا كارلو الذي كان يعن فرحاً ،  
وسألنا فيلطة عما إذا كنت بخير . فلما أطمأنا ، أسرعنا إلى داخل الدار .  
وكانت أطرافهما قد تبينت أطول جلوسهما وارتجاجات العربة  
التي أقبلتها من ( هوثكروس ) ، كما اختفت برودة الليل الجديدة  
عظامهما . ولكن أسرارهما القليلة سرعان ما انصرفت إذ حلف بها  
الدفء المبعث من المدفأة . وسألنا عن سافيت جون بينما كانت حدة  
والخردى يقلان متاعهما . وأقبل القس الشاب من قاعة الجلوس في تلك  
اللحظة ، فالتفتا بنفسيهما على صدره في آن واحد . وجاد على كل منهما  
بقيلة هادئة ، ونغم يضيع كلمات ترحيب بصوت خفيض ، ووقف  
هنية يتحدث إليهما . ثم قال إنه يرجو أن تلحقا به في قاعة الجلوس .  
وانسحب عائداً إلى مجلسه . وكأنه بلوذة يتلوى بمصم به ١.. وكنت قد  
أوقدت شعوعاً ، تاهياً للعودة إلى الطابق العلوي . فسرعان ما صعدنا  
وقد اغبطنا المتجددات والترتبات التي أدخلت على غرفتيهما . إذ اكتسنا  
بساتن وأبسة جديدة ، وأوعية تزهو من الخزف الخاف بالتقوس  
والألوان . وأعريتنا عن شكرهما في إخلاص : وسرني أن تدبراني

صاغت هوى من نفسيهما . وأن ما فعله صاعف من تألق ابتاهجها  
بالعودة إلى دارهما :



• وما كان أحلاهما من ليلة ١.. فإن ابنتي عمتي أقامتني في الحديث  
والعطين وقد استخفيهما الطربيد ، حتى أن ثروتهما العذبة طغت على  
هود سافيت جون .. وكان صادق الابتهاج برؤية شقيقته ، ولكنه لم يكن  
يستطيع أن يجارهما في تألق روحهما ، وتدفق فرجهما ١.. ولقد سره  
حادث اليوم ، وأعني عودة ديانا وماري . ولكنه كان يقضي بملاحظات  
هذا الحادث ، أعني الصخب والمزح ، والترثرة الطروب .. وتبينت  
أنه كان يتوق إلى القد . لأن القد ولابد أهدأ من اليوم .. وفي غمرة  
استماعنا بالمساء .. بعد تناول الشاي بساعة .. إذا بطرفات على الباب .  
ثم أقبلت حدة تقول إن صدياً مسكيناً جاء . في هذه الساعة غير الملائمة .  
بشده مسر ويزفر لأن أمه كانت تحتضر . فسألها القس : « وأين تسكن  
يا حدة ؟ » فقالت : « على مقربة من هضبة هوثكروس » ، على أربعة  
أميال تقريبا ، في طريق مليئة بالمستنقعات والطحالب ١..  
.. أخبر به أنني قادم .

.. بل أعطف ياسيدي أن من الخير ألا تذهب ، فهذه أسوأ طريق  
تسير فيها بعد الغروب . إذ أنك لا يمكن أن تهدي إلى اتجاه خلال  
المستنقعات . ثم إن الليل فر ، والربيع زهري . فيحسن بك أن تقول  
له إنك متذهب في الصباح .

ولكنه كان قد بلغ الرعدة ، وهو يتدثر بعبائه .. ثم رحل دون

ما احتراض أو كلمة . وكانت الساعة قد بلغت التاسعة إذ ذاك : فلم يعد إلا حين انقضاء الليل . وقد أقبل جماعة متعباً . ولكنه بدا أسعد مما كان قيل عن زوجه ! . لقد أدى عملاً من واجباته : وقام بخدمة ذبيبة ، وأحسن بقدومه على العمل وعلى إنكار الذات : فرضى عن نفسه !  
وتعيل إلى أن الأسبوع الذي تلا ذلك كان بأمره عبثاً استنفد صبره ! . كان أسبوع عيد الميلاد ، ولم تكن أمانتا مهمة معينة : بل غرضها في هو منزى مرح . وكان لهواه الأجسام . ولتحرره ، ولتجبر الثراء أثر على نفسه دياناً ومارى كآثر الإسكندر المحدد لليلة . فكان الضرب يتسلطهما من الصباح إلى الظهر . ومن الظهر حتى المساء . وكانا لا تكفان عن الكلام ، فكانا تناقشاها ، وحضور بدويتهما ، وذكائهما فعل السحر في نفسه . حتى أنني كنت أوتر الإنصات إليهما ومشاهدتهما الحديث على أي شيء آخر ! . ولم يكن سانت جون يزجرنا هذا الصخب ، ولكنه كان يضر بنفسه منه : فنادراً ما كان يملك بالدور ، إذ كانت أيرشيه واسعة . وأهلها متناثرين ، فكان يجد في زيارة الموضع والفقراء في مختلف المناطق ما يشغله يوماً !

وفي ذات صباح ، استغرقت ديانا في التفكير بضع دقائق — أثناء الإفطار — ثم سأله عما إذا كانت قد بدل مشروعاته ، فإذا جوابه : لم تبدل ، وليس قابلة للتبدل ! . ثم أنبأنا بأنه قد تقرر — بصفة نهائية — أن يرحل عن إنجلترا خلال العام التالي . فتساءلت ماري : وروذا موند أوليفر ! . والظاهر أن الكلمات أفلتت من شفقتها على الرغم منها . إذ لم تكده تنطق بها ، حتى بدت منها إشارة . وكانتا تهم

بأن تستردّها . وكان سانت جون يمسكاً بكتابه — إذ كان من عادته المستهجنة أن يقرأ أثناء الطعام — فأغلق كتابه ، وتطلع إليه ، قائلاً : إن روذا موند أوليفر عرشك أن تزوج من مستر جراني . وهو من أحسن أبناء (حس) وسطاً ومكانة . كما أنه حفيد ووريث سير فريدريك جراني . لقد سمعت النيا من أبيها أميس .

ونظرت كل من أختيه إلى الأخرى ، ثم إلى ، ثم نظرنا ثلاثاً إليه . فإذا به جامد الأجوار كالزجاج ! .

ووجدتني مسوقة — في أول مرة وجدت فيها سانت جون وحيداً بعد هذا التبا — إلى أن أسأل عما إذا كان الحديث قد أكرهه . ولكنه بدا أقل ما يكون حاجة إلى التعطف . حتى أنني شعرت بشيء من التخلخل لما أبدت من إشفاق ، لاسيما وأني لم أعتد الحديث معه في الفترة الأخيرة ، إذ عاد تحفظه وكثافته يحيطانه بغلاف جليدي . علم صراحتي تحت طيقاته . ولم يف بوعده أن يعاملني كما يعامل شقيقته ، بل كان يقيم باستمرار فوارق بسيطة بيننا تشيع البرودة في علاقتنا ولا تساعد على نمو المودة . وفصاري القول أنني وقد تكشفت فرايتنا وأصبحنا نعيش تحت سقف واحد ، بدأت أشعر بالتباعد يتسع بيننا أكثر مما كان عندما كنت مجرد معلمة القرية ! . وكنت كلما تذكرت المدى الذي أياح في مرة أن أتعادى إليه في مصارحته ، أعجز عن إدراك سر جموده البارد الرهين . ومن ثم لم تكن دهشتي بالبساطة عندما رفع رأسه وقال :  
أترين يا جرين ! . لقد خضت المعركة ، وفزت بالنصر ! .

ولجفت لهذه البشارة ، فلم أجب لفوري ، بل ترددت لحظة قبل

أنا أقول : « ولكن ، هل تراك منكماً من أنك لست كأولئك المظفرين الذين تكبدهم انتصاراتهم ثمناً غالياً .. ألا يقضى عليك انتصار آخر من هذا القبيل ؟ » فقال : « ما أظن .. وحتى أو كان الأمر كذلك ، فهو لا يعينني في كثير ، لأنني لن أضطر إلى أن أكافح من أجل انتصار آخر من هذا القبيل . لقد كانت معرفتي حاضرة ، وأصبحت الطريق أمامي مهددة خالية من العقبات .. وأحمد الله على ذلك ! » . وما أن قال هذا حتى أعاد إلى أوراقه وصحفه .

وإذا بدأت السعادة المشتركة - التي كانت سودني وديانا وماري - تستقر وتتخذ طابعاً أكثر هدوءاً ، وعندنا إلى مألوف عاداتنا ودوايانا المنتظمة ، أخذت جون يقبل مكنه في البيت ، ويجلس معنا في غرفة واحدة لعدة ساعات أحياناً .. وبينما كانت ماري تهمل في الرسم - وديانا تنصرف إلى القراءة في دائرة المعارف - في النظام ومطابقة أذهاني وأتارا إعجابي - وأنا أشتق طريق في ميدان اللغة الألمانية ، كان سانت جون يعكف على درس خاص لإحدى اللغات الشرقية التي كان يرى تخصيصها ضرورياً لشروحاته .. وكان يبدو مستغرقاً ، وهو في مجلسه المنزلي الهادئ . بيد أن عبقه الزرقاوين أعادنا أن توارحاً كتاب قواعد هذه اللغة الأجنبية ، كالحوم في فضاء الغرفة : أو تستقر أحياناً علينا .. - معشر زميلاته في الدراسة - في البقاء غريبه ، فإذا فوجئ في هذه الحال ، ارتدت نظراته في الحال ، ولكنها كانت لا تثبت دائماً أن تعود إلينا مضحكة ! .. وكنت أتناول في نفسي عن معنى هذه النظرات ، كما أخذت أعجب لحربه ومطابقته على إبداء ارتجاعه المناسبة كانت

تبدو لي قضية الأهمية .. ذلك هي زيارتي الأسبوعية لمدرسة ( مورتون ) . وكان عجبني يستحيل إلى نوع من الدهشة الحائرة عندما نيب في شقيقنا في الأيام غير المناسبة - حين تهر الخلع ، أو يهطل المطر - أو تشد الرياح - ألا أذهب ، فإذا به في كل مرة يستخف منها هذا القلق ، ويشجعني على أن أؤدي مهنتي دون أن أحفل بعوامل الطبيعة . فكان يقول : « إن حين ليست بضعيفة الإرادة إلى الدرجة التي تظهر أنها عليها . في طاعتها أن تعمل ربح الجاني ، أو رذاذ المطر ، أو يضع الكسوف المتأقطة من الجليد كأي واحد منا .. إن بيانها متين وموثق . أعد بحيث يعمل تقديرات العنق إلى درجة تفوق احتمال كثير ممن يفوقها بدانة » .



● ولم أكن أجري على الشكوى ، إذا ما عدت مكابدة ، وقد أرهقني العنق . لأنني كنت أعرف أن أفعه يدمر كليل بأن يكتبه .. فقد كانت قوة الاحتمال تسرد في كل الأحوال ، وكان العنف يسوده بوجه خاص . على أنني - في أصيل ذات يوم - صحبت لضي بالبقاء في المنزل ، لأنني كنت مصابة ببرد شديد ، ومن ثم ذهبت شقيقنا إلى ( مورتون ) بدلاً عني ، فجلست أقرأ أشعار شيلر ، بينما كان منهمكاً في حل طلابه لغته الشرقية . وإذا تحولت إلى الترجمة ، كوسيلة للترويح ، بدت مني نظرة في الجامعة . فإذا بي أجد نفسي تحت سيطرة العينين الزرقاوين اللتين لم تكونا تكتبان عن الصمت ! .. وليس بومعني أن أعرف كم ظلت تأملاني ونشأ لاني بتفكرتهما ، ولكن الذي أعرفه هو أنها



كانتا حادثتين ، وباردين في آن واحد . وداعلتني وهم موجس لحظة .  
وكأنني كنت أجلس في غرفة واحدة مع خطر عني !

وسألني : « ماذا تفعلين يا جين ؟ » قلت : « أدرس الألمانية » .

— أريد منك أن تتحول عن الألمانية ، فدرسي الهندوسانية .

— ما أظنك جاداً في هذا الاقتراح ؟

— بل إنني جاد إلى درجة نجماتي ألح في ذلك ، وسأثبت بالسبب .

ومعنى يذكر لي أن الهندوسانية هي اللغة التي كان ينسبها إذ

ذلك ، وأنه كان مضطراً إلى أن يظل مستذكراً المبادئ كلها أوغلي في

اللغة . ومن ثم فقد كان من أكبر العون له ، أن يجد تلميذاً يسترجع

مع المبادئ مراراً وتكراراً ، ومن ثم يتمكن من تثبيتها في ذهنه .

وقال إن ذهنه تارجح زماناً بيني وبين أخيه ، ثم استقر على ، لأنه رأى

أنني أقدر الثلاث على أن أجلس طويلاً للدرس . وسألني : ألسدي إليه

هذا الصنيع ؟ ثم طعنتني إلى أنني قد لا أخطر إلى الخلق في التضحية

بطويلا ، إذ لم يبق علي رحيله أكثر من ثلاثة أشهر !

والفقه صبوراً ، طويل الأناة ، ولكنه كان — في الوقت ذاته —

مدرساً حازماً ، فكان يطالبني بجهود كبير ، فإذا وجدني قد أبيت

مما طلب ، شهد — بطريقته الخاصة — بحسن اختياره — وبالترجيع ،

اكتسب لنفسه نفوذاً على ، حد من حرية فكري ، فإذا إطرأه وهامه

لا يغلان تأثيراً على الأعصاب من عدم اكتماله . ولم أعد أنكم

أو أضحت متحررة أثناء وجوده ، لأن حاسة نظية ، ملحاجة ، كانت

لا نفاً تذكرني بأن عفة الروح — من ناحيتي على الأقل — كانت

مكروهة لديه . كنت أذكر دائماً — وإلى درجة مزعجة — أنه لا يرضي

إلا عن الطباع والأعمال الجادة الرزينة . وما لبثت إرادتي أن بدأت تتجسد

وتتبد ، فأصبحت أذهب إذا قال : « اذهبي ! » ، وأجيء إذا قال :

« تعالي ! » ، وأفعل الشيء إذا قال : « افعل هذا » . على أنني لم أحب

هذه العبودية . وكمن مرة تجنبت لو أنه واصل إهماله شأني !

وحدث ذات مساء : عندما التفت وأخطاه حوله — في موعد التوم —

لتحييه ونلتني له ليلة طيبة : أن قبل أخيه كعادته ، ثم بسط لي يده .

كعادته أيضاً ! .. وكانت ديانا في تلك الليلة في عثوان مرحها ، إذ كان

من الشاق عليه أن يفرض عليها إرادته ، فقد كانت شخصيتها لا تفل

عن شخصيته قوة . فهفت : « لقد اعتدت بإسبات جون أن تدعو

جين شقيقك الثالثة ، ولكنك لاتعاملها معاملة الشقيقة ، فإذا لاتقبلها

هي الأخرى ؟ » . ودفعني نحوه فشرعت بأنها كانت غابة في المضايقة :

وشعرت باستياء أمضى . وفيما كنت في هذا الشعور ، جني سألت

جون رأسه . وقرب وجهه ذا الجلال اليوناني من وجهي ، وأعلنت عتاه

لسمائلان عني بظفراً ثاقبة . ثم قبلني . وما أدري بوجود قبيلات

رخامية ، أو قبيلات جليدية ، وإلا أقلت إن قبلة ابن عمي القدس كانت

من هذا الطراز . ولكن هناك قبيلات تجريدية ، اعتبارية . وقد كانت

قبلت من هذا الصنف ؟ . فقد تأملتني بعدها ليعرف النتيجة . ولكنها لم

تكن راتمة ، وإلى لواقعة من أن وجهي لم يتسرح حياء ، ولكنني ربما

اضطعت قبليلا ، لأنني أحسست كأنما كانت هذه القبلة عائناً يثبت

أغلاقي . ولم يتخل بعد ذلك عن هذه العادة ، وكأنا مكان التوقار والريانة  
التي اعتدت أن أتلقى بها القبلة مبعث فتنة بخاصة له !

أما من ناحيتي ، فقد كنت أزداد رغبة - يوماً بعد يوم - في أن  
أرضيه ، ولكنني كنت أزداد شعوراً - يوماً بعد يوم أيضاً - بأنني  
مضطرة في سبيل ذلك إلى أن أتخلل من نصف طبعتي ، وأن أخضع نصف  
خصائي ، وأن أتدخل أفواقي لأخوضها عن اتجاهاتها الأصلية ، وأقصر نفسي  
على إنتاج أشياء لم يكن لدى ميل طبيعي نحوها ؟ .. كان يحاول أن  
يشدني على أن أرق إلى مستوى لا أملك بعد أن أبلغه . وكان يتطلع  
إلى المستوى الذي يريده برحمتي . كان الأمر ضرباً من المستحيل . كلما  
كنا لو أردت أن أصوغ فنيات وجهي غير المنظمة وأحبها في قالب  
الجمال اليوناني العريق كوجهه .. لو كنا لو أردت أن أحول حفرة عيني ،  
إلى الزوكة المتألمة ، العبيقة ، التي كانت تضيق عيني !

على أن السمو إلى المستوى الذي كان يريه لم يكن الفل الوحيد الذي  
فيه حريتي إذ ذاك . فإذ أصبح من السهل علي في الفترة الأخيرة ،  
أن أمسك بمن ، إذ جئ على قلبي شراً بهم راح يمتص سعادي من  
جفورها .. وكان ذلك الشر هو : الشك . فقلبك أيها القارئ قد  
ظننت أنني سميت مستر روشستر وسط التطورات التي أدت بمركزي  
وحظي . ولكنني لم أكنه لحظة واحدة .. كانت ذكراه ما تزال تلازمي :  
لأنها لم تكن مجرد شعاع تنس لاناث أن تأفل ، ولا كانت أترأ على  
رمل لا تلبث العاصفة أن تهبه . وإنما كانت سحابة خضر في قلبي تهبني

مايق ذلك القلب ! .. وكان الشوق لمعرفة ما صار إليه أمره بالإحتق في  
كل مكان :

ولقد سألت مستر بريجز - أثناء مراسلتي لإياه يصدد الوصية -  
عما إذا كان يعلم شيئاً عن مشر مستر روشستر أو صته ، ولكنه - كإحدى  
سانت جون - كان يتعطل كل شيء عنه .. فكتبت إلى مشر فيرفاكس  
استجديها بطلبات عن الموضوع ، وأنا موقفة من أنني سألتني منها جواباً  
في أقرب فرصة . وكما ذهبت حين انقضى أسبوعان دون أن أتلقى رداً ..  
فأنا انصرم شهران والبريد يصل - يوماً بعد يوم - دون أن يجعل لي  
رداً ، وقعت قريبة لأقضي أنواع القلق .. فكتبت مرة أخرى ، معلية  
النفس بأنني أن يكون خطابي الأول قد فقد .. وتجدد الأمل في نفسي  
مرة بعد مرة ، وظل مشرقاً لبضعة أسابيع ، ثم أعيد غيبي .. إذ لم يصل  
إلى سطر بولا كلمة ! .. وعندما انقضى نصف عام في الانتظار دون  
مائل ، مات أدني ، فعذبت أخطي في ظلام حقيقي !

وأقبل الربيع جليلاً ، ولكنني لم أستمع به .. واقترب الصيف ..  
وكانت ديانا تحاول أن تدخل المرور إلى قلبي ، فقامت إلى أبلو معتقة  
الصحة ووعيت في أن تصطحبني إلى شاطئ البحر . وعارض سانت  
جون قائلاً أنني لم أكن في حاجة إلى راحة وكامل . وإنما كنت في حاجة إلى  
ما يشغلي . لأن حياتي الراهنة كانت بلا غرض ، فأنا محتاجة إلى هدف .  
وأحسبه - لكي يقيم العرافيل - قد أمال أمد التروس الهندوستانية التي  
كنت أنظفها ، وزاد من الواجبات التي كان يتعينني أداءها ، وأنا  
كالبهاه لا أفكر قط في مقاومته : بل ما كنت أملك أن أقاومه ! ..

إلى أن أقبلت على الدرس ذات يوم ، بنفس مثقلة أكثر من المعتاد ، إذ زاد من أساي استياء بالغ . فقد أنبأني حنة في الصباح أن ثمة خطاباً وصل باسمي ، فلما جهلت لأسلمه وكلت لغة في أنه يحمل الأنباء التي حلال ارتقاي إليها ، وجدت أنه مجرد مذكرة نافذة من مستر بريجز بشأن بعض الأعمال ، وانتزعت الصلصة المبردة بعض الدعوى من عيني ، فلما جلست أعمل في الحروف الهندية - في وقت الدرس - عادت الدعوى تبثني !! ودعاني سانت جون إلى جواره لأقرأ ، فلما حاولت القراءة عصاني صوتي ، واختشت الكلمات في قبض من الثعيرات ، ولم يكن في حجرة الجلوس سوانا ، إذ كانت ديانا تغرب على الموسيقى ، بينما كانت ماري تفلح الحديقة ، فقد كان اليوم من أيام شهر مايو البديعة ، الضحوة : ذات الشمس المشرقة والنسيم العليل .

ولم يبد زميلي دهشة لجيشان عواظي ، ولا سألني شيئاً ، وإنما قال : « سننظر بضع دقائق يا جين ، ربما تكلمين جأشك ! » .. وبينما رحت أهدئ الانفعال في عجلة ، جلس هادئاً ، صابراً ، محتسماً على مكتبه ، كطبيب يرقب بعين العلم أزمة متوقعة في داء مريضه ومعرفة الدواصي . وإذا كنت عبراني ، وحفظت عيني ، تمتت بوضع كلمات متعللة بأنني لم أكن مكتملة الصحة في ذلك الصباح ، ثم استأنفت الدرس ، وأفلحت في إتمامه .

وماليت سانت جون أن يخفي كتيبي وكتبي ، وأعلن درجه ، وقال :  
- الآن يا جين ، ستخرجين للزفة .. ومعنى أنا !  
- سادعو ديانا وماري لمرافقتنا .

.. لا ، لست أريد سوى زميلة واحدة في هذا الصباح ، ولابد من أن تكوني أنت هذه الزميلة ، فارتدى ثياب الخروج ، وانصرفت من باب المطبخ ، واسلكي الطريق المشجعة إلى ( مارش جيلز ) وسألني بك فوراً .

ولم أعتد إلى مسلكت وسط - بل إنني في حياتي لم أعتد أن أجد مسلكتاً وسطاً لإزاء الشخصيات الإيجابية القوية التي تناقض شخصيتي .. أجل لست أعرف مسلكتاً وسطاً بين الخضوع المطلق ، وبين التمرد العتيد . ولقد طالما ظلمت أفرج باستمرار أحد المسلكين إلى غاية .. إلى أن يبلغ صفوانه ثم يتغير ويتحول إلى المسلك الثاني ، في قوة تشبه انفجار البركان أحياناً . ولما كانت ظروف الرأفة لا تقبل إلى البودة ، ولا كان مزاجي الحال يتجه إلى التمرد ، فقد تابرت في عناية على التوضوح للتوجيهات سانت جون . ومن ثم فلم تنقض عشر دقائق حتى كنت أسير في درب مهجور نحو واد صغير .. وسانت جون بجانبتي !

\*\*\*

● وكان النسيم يهب من الغرب ماراً على التلال حيث يتروود بشلي الزهور البرية ، والسماء صافية الزرقاء ، والجبلون ينحدر على السفح مترعاً بنباه الريح المنصرم ، فيفيض وفيراً وقد امتكست على مياهه الصافية أشعة الشمس الذهبية .. وإذا تحولنا في سيرنا عن الدرب ، رحنا على أرضاً معشوشية ، ذات خضرة زمردية . توشبها زهور يرقضاء دقيقة الأحجام ، وتوصعها ورود صفراء كالكاجوم .. وقد أحاطت بنا التلال في الوقت ذاته - فصحبونا عن العالم ، داخل الوادي الصغير .. وبلغنا

ملائكة منور قامت كبحر من النور من غور صغبر وسط الجبال ، فقال  
سانت جون : « لتشرح هنا » .

وجلسنا ، فكلنا نصف ساعة لا نكلم ، حتى إذا انقضت هذه  
الفترة ، شرع يقول : « سأرحل بعد ستة أسابيع باجبر ، وقد حجزت  
مكاناً على الباخرة ( البست اندامان ) التي تغلق في العشرين من يونيو » .  
قلت : « ليحكم الله مادمت قد آثرت أن تضطلع برسالة » .  
قال : « أجل ، فني هذا مجلى واضعالي » . إني في خدمة مولى مقوم  
عن الخطأ ، فلست منطلقاً تحت قيادة إنسان ، ولكي أكون عرضة للقوانين  
الناقصة ، ولا أسيطر على حياة من آدميين مثلي .. حشرات ضعاف  
إن ملكي ، ومشرعي ، وقائدي ، هو الكمال المطلق ، ولكم يبدو غريباً  
لي أن كل من حولي لا يشعرون شوقاً إلى أن ينضووا تحت نفس اللواء ،  
وأن يعملوا في نفس الميدان ! » .

— ليس بغير ما أوتيت أنت من قوة . ومن الغباء أن يهفو الضعاف  
إلى السير مع الأقوياء .

— لست أتحدث إلى الضعاف أو أفكر فيهم .. إنما أناخاطب الشخص  
الذي أعرفه جيداً بالعمل ، وقادراً على أدائه .

— هؤلاء قلة في العدد ، حتى ليعتبروا اكتشافهم .

— الحق ماثل ، ولكن من الصواب إيقاظهم إذا ما وجدناهم  
من الصواب ختمهم واستلثة جهودهم وإرشادهم إلى ما أوتوا من مواهب  
وهم .. من الصواب أن تلقى على أجمعهم رسالة السباه ، وأن تدعوهم  
— باسم الله — لكي ينالوا مكاناً بين المقربين إليه .

— إذا كانوا أهلاً لرسالة حقاً ، ألما كانت قلوبهم تدعوهم قبل  
أن يدعواهم البشر ؟

وشعرت كأن نورا رهيماً يتجمع حولي ، ويتخذ فوق ، وروح  
أرتجف متوقفة أن أسمع كلمات غريبة تتضمن تعويذة السحر الغامض ..  
وسألني سانت جون : « ربما لاحظت قلبك » ، فأجبت وأنا مشدودة  
مذهولة : « إن قلبي أخرس .. قلبي أخرس ! » .. ولكنه قال في لحظة  
عريضة : « بحاجة » . « إذن فلا بد من أن أتكم باسمه .. تعالى معي إلى الهند  
باجبر ، تعالى كزمنيلة ومساعدة .. ودارت السماء والوادي في نظري ،  
واهترت الفلال .. وكأنما سمعت نداء من السباه : وكأنما نزل في رسول  
كريم يهيب بي : « تعالى وساعدتنا ! » .. ولكنني لم أكن من طليقة  
الرسول ، فلم أشأ أن أرى الرسول ولا أن ألتقي نداه ، بل صمت :  
« أواه ياسانت جون ! .. أرجحي ! » .. ولكنني كنت أقومل إلى  
شخص ما كان يعرفه راحة أو إشفاقاً في حبيلى أواه ما كان يعتقد  
واجباً ، فاستأنف حديثه قائلاً : « لقد أعذك الله والطبيعة لكي تكوني  
زوجة مبشر ، ومن ثم فيها لم يعلما عليك ميزات جسدية ، وإنما آثارك  
بميزات عقلية .. فأنت إنما خلقت للعمل ، لا لعب .. ولابد لك من أن  
تكوني زوجة مبشر .. ستكونين زوجتي .. إني أدعوك ، لا لمعني ،  
وإنما لخدمة المولى ! » .. فقلت : « لست أصلح لذلك » .

ولكنه كان قد حسب حساب هذه الاعتراضات الأولية ، فلم  
يشغرب لها ، وإنما أمدد قلبه إلى حضرة خلفه ، وعقد ذراعيه على  
صدره ، وخلع على أنباريه جوداً ثانياً .. ورأيت أنه قد أعد نفسه



لمعارضة قوية ، طويلة ، وتروك من الصبر بدخيرة ، ووجد العزم على أن يكون النصر له في النهاية ، وراح يقول : « إن التواضع ياجين هو أساس كل الفضائل المسبحة ، وإنك اعلى حق إذ تقولين إنك لاتصلحين للعلم ، ولكن .. متذا الذي يصلح له ؟ .. أو متذا الذي كان يؤمن بتدارته للرئاسة . عندما دعي لأدائها ؟ فأنا — مثلا — لست سوى رماد وحشيم ، وعندما قارنت نفسي بالقدوس يولس ، اعترفت بأنني أكبر مذنب ، بيد أنني لا أتعذب بهذا الشعور إلى الدرجة التي تقع في عن العمل . إنني أعرف زعمي وفالدي : فهو عادل كما هو جبار ، وإذا كان قد اختار أداة ضعيفة — مثل — لأداء مهمة جليلة : فإنه ولاشك سيبد نقصى الأداة من خزائن حكته التي لاحدودها .. ففكرى كما أفكر ياجين ١٠ » .

— إنني لا أفقه حياة العاملين في التشير ، وما درست يوماً مهامهم . فقال : « ها أتذا — على ضالة قدرى — أقدم لك ما تبغين من عون : إنني أستطيع أن أبعثك بالمهمة من ساعة إلى أخرى ، وأن أفض إلى جوارك دائماً ، فأساعدك في كل لحظة .. أجل . أستطيع أن أفعل هذا في البداية ، وسرعان ما مستبحبين مثل قوة وكفاءة ، ولا تحتاجين إلى معونة متى .. فأنا أعرف مدى مقدرتك ١١ » .

— مقدرتي ١٢ : أين هي مثل هذه المهمة ؟ .. إنني لا أحسن بها . لآني مهتف أو يشررك في أعماقي عندما تتكلم أنت .. لست أحسن بضموم يبتقى في نفسي .. ولا أشعر بالحياة تتدافع ، أو بيهائف يرشلق ويسري عني .. فإله ١٣ : لكم أثنى أن أوفى القدرة على أن أرىك في هذه اللحظة

أن فكري أشبه بوهلة مقلنة ، لا يصير جوفها سوى لون واحد من الخوف ، برقد مكبلاً . مرتعياً .. إنه الخوف من أن يؤثر في إغراؤك فأحاول ما لا أمالك تحقيقه ١٤

— لدى جواب أرد به : فاجبه .. لقد راقبتك منذ لقيتك أول مرة ، وجعلتك موضوع دراستي لعشرة أشهر ، واستطعت أن أختبر استعداداتك بعدة اختبارات ، قا الذي انتهت إليه ؟ .. لقد وجدت في مدرسة القرية أن يوسعك أن تؤدي — بمهارة واستقامة ودأب — عملاً لا يتلام مع عادتك وميرك .. رأيت أن يوسعك أن تؤدي بمقدرة وبراعة ، وأن تكسي القلوب بينا تسيطرين على أصحابها وتحكمتهم وتخضعينهم للنظام .. وفي الملبوس الذي تلقيت به نأ البروة التي آلت إليك ، رأيت ذهنًا بريئاً من رذيلة حب الذهب .. فليس لتاع الدنيا سلطان عليك .. وفي ميادرك الخاصة إلى تقسيم رؤوك إلى أربعة أقسام : لتحفظي بواحد منها ، وتدفعي بالثلاثة إلى من رأيت أنهم أصحابها شرعاً . رأيت نفساً تتعش وتعب في تيران التضحية .. وفي انصياعك في وتحورك عن دراسة كنت معنية بها ، إلى أخرى غرد أنها كانت تهجنى : رأيت ما أتشد من خصال .. إنك ياجين وادعة ، مثابرة ، لانساقين بمصلحة دنيرة ، وإنك قلصة ، وفية ، شجاعة ، جديفة ، وأهل البطولة . فكنت عن فقدان الثقة في نفسك ، إذ أنني أثق بك على طول الخط ودون تحفظ . ولسوف تكون معونتك لي — المرشدة في المدار من الهندية ومساعدة في نشر رسالتى بين الهندبات — فوق كل تقدير ١٥

• وانكشيت معارضتي : وأوغل الإغراء متغللا في نفسي بخطي  
بطيئة ولكنها أكيدة ، فإذا كثرته الأخيرة هذه تلقى طريقها .. وأنا مغمضة  
العينين - ونفتح ما كان هناك من سلود ومنايرس .. وراح يرقب  
الجواب ، فاستسهله ربع ساعة لأفكر . وقال : عن طيب خاطر ،  
ثم نهض فصار قليلا نحو الغور ، ثم ارتحى على الأرض المشوشة ، وظل  
واقفاً هناك . بقيا رحت أقول لنفسني : « بوسني أن أقوم بما يشفي »  
إذا أنا استغيت عن الحياة . ولكني لا أشعر بأن كياني يحصل العيش  
طويلا تحت شمس الحقد . فإذا في ذلك .. إنه لا يتقبل بالأمر . كثير آ  
وإذا حانت ميني فسوف يسلمني في هدوء ، ووقار إلى الله الذي ساقني  
إليه .. إن الأمر واضح أمامي . فإني إذا غادرت أجتزأ ، فلما أعود  
يلدأ أحبه ولكنه خاو من كل ما يشدني إليه .. إذن مسرروشت لا يقيم  
فيه . بل مقيمة وجوده لو أنه كان يقيم فيه ؟ فقد أصبح حتماً على أن  
أعيش بدونه . وليس هناك ما هو أخف وأشد لي للضعف من أن أجور  
أكيال العمر يوماً بعد يوم ، في انتظار تغير مستحيل في ظروفي ، يضميني  
ثابتة إلى الرجل الذي أحببت .. إن عليّ فعلاً أن أبحث عن شيء آخر في  
الحياة أصب عليه احتياجي . بدلا من ذلك الذي فقدت .. فألبست المهمة  
التي يعرضها عليّ سانت جون ، هي أجل ما يقوم به إنسان ، أو يفرضه  
إليه .. فألبست .. بأعمالها النبيلة ونشاطها السامية - هي خير مهمة فعلاً  
للنفساء الذي خلفه حب مزق . وآمال مقنوضة ؟ .. أعطد أن لا بد لي من  
أن أجيوب بألمة الحق .. ولكني مع ذلك أرتجف ! فوالله ! إني إذا  
استجيبت لسانت جون ، فسأفعل عن نصف نفسي . وإذا أنا ذهبت إلى

الحقد ، فسأسعى إلى موت سابق الأوان .. ثم ، كيف أملا الفترة بين  
مبارحة أجتزأ إلى الحقد ، ومبارحة الحقد إلى التبريد .. ثم إني أعرف  
سانت جون ، وأعرف ما يرضيه وما يتوقعه ، فبالذهب معه لأبد لي  
من أن أضحي بكل شيء ، فأثني على المسيح بقلي . ومشاعري الحبيوية ،  
وكل شيء .. ! وهو لن يجني إطلاقاً ، ولكنه سيرضى عن علي .. سأريه  
ألواناً من التشاؤم لم يرها أبداً وموارد للقوة لم يتوقعها قط .. إذن فلا قبل  
ما يعرضه .. بيد أن هناك نقطة واحدة مقبلة لدى .. تلك هي أن أقدر  
زوجته ، مع أنه لم يؤت قلباً يتحرك لي بأكثر مما يتحرك الصخرة الثابتة  
الراضية .. ! إنه إنما يقدرني كما لو كنت جدياً .. لا ، إن مثل هذا  
الاستشهاد أقطع من أن يحتمل .. إذا كان لابد من أن أصعب ، ففأصعب  
كأخت ، وليس كزوجة .

وتطلعت إلى حيث كان مستقيماً ، فإذا عيناه ترقبان في اهتمام ودقة  
وإمعان . ونهض مستوياً على قدميه ، ثم اقترب مني . فقلت :  
- إني على استعداد لأن أذهب إلى الحقد ، إذا جاز لي أن أبقى حرة .  
- إن جوابك في حاجة إلى إيضاح ، لأنه غير جلي .  
- لقد كنت حتى الآن أعالي ، كما كنت أنا أختك ، فاستمر  
على هذا الوضع ، ومن الخبير لنا ألا نتزوج .

فهز رأسه قائلاً : « إن الأخيرة التي بيننا لا تصلح في هذه الحالة .  
ولو أنك كنت أنتى الشقيقة حقاً ، لاختلعت الوضع ، ولأصلح طبعك  
دون أن أبحث عن زوجة . أما وهذا وضعنا فلا بد لعملنا من أن تكسب

صبة شرعية بالزواج ، وإلا فلن يكون لها وجود .. ففكرى قليلا يا جون ، وسوف يرشدك إخراجك القوي إلى الوضع ١ . .. ولكن إذا كنت لم يرشدني إلا إلى أن لا تتحاب كما ينبغي لأى زوجين أن يتحابا ، ومن ثم فلا ينبغي لنا أن نتزوج . ومن ثم قلت : « إننى أعتبرك أخا بأمانت جون .. وأنت تتزلى من نفسك منزلة الأخت ، فلتبق كذلك » ، فأجاب فى عبارات حاسمة ، قصيرة : « لا نستطيع .. لا نستطيع .. لقد قلت إنك متأكدين معى إلى الغد .. فذاكرنى هذا .. لقد قلته » .

.. ولكنى ربطته بشرط ..

— حسنا : فلتسلك بالبطقة الرئيسية .. الرجل معى ، وأنتما تون فى جهودى الخفية .. إنك لا تعارضين فى هذين . فقد وضعت يدك على أخرا ت . فلم يعد أمامك إلا أن تدبرى خبير الطرق لأداء العمل .. حاول أن تسطى ما هو معقد من مصالحك ، وأنكارك ورغباتك وأهدافك ، وامرعى كل الاعتبارات فى غرض واحد .. هو أن تؤدى المهمة على خير وجه .. ولكى تفعل ، لا بد لك من قرين ، وليس أخا .. إننى أنشد زوجة . فهى الشريك والمعين الأوحده ، الذى أستطيع أن أوجهه فى الحياة ، وأن أظل محفوظا بدعته المات ؟

وأخذت أرتجف وهو يتكلم .. كنت أحس بسلطانه يتفقد إلى عظامى ، وبقرضته تشد على أطرافى . وهضت : « بحث عن سبورى باسانت جون .. بحث عن واحدة تصلح لك » . فقال : « نعمين واحدة تصلح لهما .. فخرمى ! .. أكرر لك أننى لا أنشد الشخص الذى



أنه إنما يقدرنى كما لو كنت جنديا .. لا ، أن مثل هذا الاستشهاد أقطع من أن يشتمل .. إذا كان لابد من أن أصحبه فلاسحبه لأختى وليس بزوجة

لاخيه له .. لا أشد إنساناً ، بما للإنسان من إدراك أناني : وإنما أنا أشد  
وسوفاً مباشرة :

— أواه ! .. سأهب الله قلبي .. ولكنك لست بحاجة إليه .

\*\*\*

● ولئن أقسم أبها القارئ على أن هذه العبارة ، والإحساس الذي  
صاحبه ، كانا خالين من شيء من السخرية المكيوتة . كنت حتى تلك  
اللحظة أشفقت سانت جون في صمته ، لأنني لم أفهمه ، وما فرض علي سلطانه  
إلا لأنه كان يسبقيني في غمرة الشك . ولم يكن يوسعي — حتى ذلك  
الوقت — أن أدرك مدى ما كان في شخصيته من نفوى ، ومدى  
ما كان فيها من مطامع دينوية ، ولكن الحجب بدأت — إذ ذاك — تتكشف  
أمام عيني عن طبيعته .. فتبينت أنه غير معصوم من الخطأ ، ولمست  
عيوبه .. أدركت أنني أمام إنسان ، يخطئ كما أخطئ .. انجذب الانتاع  
عن جموده وصرامته .. وإذا ذاك ، شعرت ببعده عن الكمال ، فشجعت  
إذ أدركت أنني أمام تد استطاع أن أجادله وأحاججه .. وأقاومه !

وكان قد أخذ إلى الصمت ، فخرجت على أن أقدم ملامحه ..  
كانت عيناه تحدجاني بظفرة جمعت بين الدهشة المباشرة ، والتساؤل  
المرتاب ، وكأنما كان يسأل نفسه : « أتراها تسخر .. وتسخر مني  
بالذات ؟ » .. وما لبث أن قال أخيراً : « لا ينبغي أن ننسى أن هذه مسألة  
قدسية ، لا يجب أن نفكر فيها أو نتحدث عنها باستخفاف وإلا زلنا  
وأذنبنا ، إنني أعتقد بأجرئك صدقة عندما تقول إنك ستدين الله  
قلبك ، وهذا غاية ما ينبغي . فإهو إلا أن تنزع عن قلبك من بشرتك .

وأن ترفقه على مخالفتك ، حتى يقوم السلطان الروماني لله على الأرض  
قائمتك ومبعث غيبتك .. وسوف تصبحين على استعداد في الفور لأن  
تلوي بكل ما يصل بك إلى هذه الغاية . وكان تدركي الحائر الذي سيدفع  
جهودك وجهودي قدماً ، باتحادك معي فكراً وجسداً . فهذا هو الاتحاد  
الوحيد الذي يرضى على أقذار ونوايا البشر صفة الدوام المؤكد : فأنعت  
النظر في أماريره التي كانت حيلة في تناسفها . ولكنها غريبة في  
صرامتها وقسوتها .. وتصورتني زوجة له .. أواه ! .. إن هذا لن يكون !  
إن قلبي وفكري يجب أن يبقيا حزينين .. وأن تظل أحاسيسي غير  
مستعبدة .. إن في ذهني نواحٍ هي عالمي الخاص . الذي يجب ألا يفتد  
إليه أحد سواي .. وهتفت إذ بلغت هذا المدى من تأملاتي : « سأبت  
جون ! » .. فأجاب في برودة : « نعم » .

— أكرر استعادي طائفة ويحضض لإرادتي لأن أذهب معك  
كزميلة مباشرة ، ولكن .. ليس كزوجة ! .. ليس يوسعي أن أغترب  
زوجتك وجزءاً منك !

فأجاب في إصرار : « بل لابد من أن تصبحي جزءاً مني ، وإلا  
فلصقته بأسرها جاء ! .. كيف أصحب — وأنا رجل لم أبلغ الثلاثين —  
خفاة في التاسعة عشرة من عمرها إلى الهند ، دون أن تكون زوجة لي ؟ :  
كيف يباح لنا أن نغلق معاً إلى الأبد .. وأن نضينا أحياناً علوة ؟ ..  
ليس يوسعي أن أقول إنك أختي . إذ من المعروف أنك كنت شقيقتي ..  
ولو أنني فعلت لأرت الشكوك حول كل منا .. ثم إنك أوتيت قلب  
امرأة ، وإن كان عقلك عقل رجل ! .. لا ، لن يجتدي هذا » . فقلت



في شيء من الاستهجان : « بل عدى : إن لي قلب امرأة ، ولكنه لن يبدو في أنوثته حيث أنت ، إذ أن علاقتنا لن تكون سوى زمالة ..  
أخوة ، إن شئت ! » فقال ، وكأنه يحدث نفسه : « إنك لن تنديني  
إذا تزوجتي يا جين .. تقى من هذا .. لا بد لنا من الزواج ، فليس ثمة  
سبيل آخرى ، وسوف يل الزواج حب يكتفى لأن يجعلك ترضين عن  
هذا الزواج ، بلا شك ! » فلم أتأكد أن قلت وأنا أقف أمامه : « اتقي  
استهجان فكرة حبك .. وأزدرى العاطفة الزائفة التي تعرضها .. أبش  
يا سانت جون ، إنني أزدريك حين تعرضها ! »

وحديثي بنظرة ثابتة ، وهو بعض شفتيه البديعي الشكل ، وليس  
بوسعي أن أقطع بما إذا كان قد استاء ، أو أنه ذهل .. ولكنه ما لبث  
أن قال : « إنني لم أتوقع قط أن أسمع هذا التعبير منك ، وما أظنني فعلت  
أو قلت ما أستحق من أجله الآن ذمما ! »

ونأثرت لرفة خجسته ، التي زادها جلالاتها ما شاع في نبراته من ارتفاع  
هادئ ، فقلت : « ألا تغفر لي الكلمات التي قلتها يا سانت جون ، ولكن  
الذنب ذنبك : إذ عرضت موضوعاً ثنائياً إزاءه طبعانا .. موضوعاً  
لا يجب أن تناقشه مرة أخرى قط . إن مجرد كلمة ( الحب ) تخلق بيننا  
غلاماً .. ألا تنح يا ابن عتي عن مشروع الزواج ، واتمه ! » .. ولكنه  
قال : « لا .. إنه مشروع طالما راودني ، وهو الوحيد الذي يحقق غايتي  
العظيمة ، ولكنني لن أستحدثك في الوقت الراهن ، وسأرحل غداً إلى  
( كبر دج ) ، فإن لي بها كثيراً من الأصدقاء أريد أن أودعهم ، وسوف  
تتعب لأسبوعين ، فانتظري هذه الفترة وفكري فيما عرضت عليك ،

ولا تنسي أنك إذا رقصت فليست تتكبرين لي ، وإنما تتكبرين لله ! ..  
فهو يفتح أمامك — عن طريقي — أبواب حياة نبيلة ، ولا سبيل لك إليها  
إلا بأن تصبحي زوجتي .

وبهذا فرغ من حديثه .. وفيما كنا في طريقنا إلى البيت ، قرأت في  
صحته الخلدني كل ما كان يساوره نحوى : شعور من الاستياء انبعث  
عن طبيعة صارمة مستبدة قوبلت بالمقاومة حيث كانت تتوقع الاستكانة.  
كان — كرجل — يحنى لو فسرق على الرضوخ عنوة . وما احتمل  
رقصه يصير إلا كرجل دين يخلص في ثوبه ! .. وعندما قيل شفتيه  
— إذ كان موعداً التواء في تلك الليلة — أثر أن ينسى تقبيلي ، بل ومصافحتي  
.. وعاد الغرقة في صحت .. وتأملت هذا الجفاء ، وأنا التي كنت أكن  
له وداً كبيراً ، وإن لم أكن له حياً .. وجاشت عواظي إلى عرجة بعثت  
الدموع في عيني : « فقلت هيانا : « أرى أنك وسانت جون قد تشاورتما  
أثناء ترحكما في الوداع ، ولكن يحسن بك أن تلحنني به ، فإنه يهلكنا في  
الرد هذا .. وسوف يضلحك ! »

ومن عادة كبيرائي ألا تسيد لي في مثل هذه الظروف ، فإني  
أسعد — بدلا من أن أتحيز لكرامتي — إذا منحت فرصة التصالح ، لذلك  
هرعت في (ر سانت جون ، فإذا به يقف عنده بداية الدرج .. وقلت  
له : « عم مساء يا سانت جون ، فأجابني هدهو : « عي مساء يا جين ،  
قلت : « إذن فلنصافح ! » .. وشده ما كانت قبضته باردة ، مراعخة ! ..  
كان استيائه مما حدث عبقاً بحيث لا تقوى حرارة الود على إذابته .  
ولا الدموع على اجتفافه ! .. لم يكن ثمة من سبيل إلى وفاء هنيء :

فلا انسامة جميلة ، ولا كلمة لطيفة : ومع ذلك فإن رجل الدين ظل صامراً ، بارد الأعصاب ، وعندنا شأنه عما إذا كان قد صفع عني .  
أجاب بأنه لم يعتد أن يتحدث بذكرى ما يعرض له من استياء . وأنه لا يرى ثمة ما يستدعي الصفع ، بل إنه لا يشعر بأنه قد تلقى [هانة ما] !

وبهذا الجواب فارتقتي .. ولكنكم كنت لوثر أو أنه خريفى فصر عني ا



### الفصل الخامس والثلاثون

● ولم يرحل سانت جون إلى كيردج في اليوم التالي كما قال ، وإنما أوجأ سفره أسرعاً بأكله . وفي هذه الفترة جعلني أحس بأى عقابه قاس في وسع رجل طيب وإن يكن جاف الطبع ، حتى الضمير وإن يكن جاراً لا يرحم ، أن يوقعه بشخص أمهاته ! .. فقد حرم من علي أن يدخل في دوعى على القور - ودون أن يأتي بأي تصرف عدائى صريح أوبليس بكلمة تحمل معنى الشريع - بأنني لم أعد أحظى بعطفه ! .. وليس معنى هذا أنه كان يغمض في أمهاته روحاً خبيثة تتنافى مع المبادئ المسيحية ، أو أنه كان يود إيلاء شعرة واحدة في رأسي . فقد كان - سواء بطبعه أو بعكم مبادئه - أسعى من أن يناسق لآلة الانتظام الوضعية .. كان قد غفر لي أنني ازهرت به ونبتت فيه ، ولكنه لم ينس الكلمات التي قلتها ، وما كان لينساها مثلاً ظل وإلا على قيد الحياة . وكنت أرى في نظرتي - عندما كان يلخص لغوي - أن تلك الكلمات كانت مسطورة بيني وبينه في الهواء كما كان وثني صوفي يعملها إلى أنه كلما تكلمت ، وصدادها

بتردد في صوته كلما أجباني .. ولم يكف عن الحديث إلى ، بل إنه استمر يدعوني إلى مكبيه كل صباح كالمنعاد . وأكاد أسيء الفطن فأقول إن الرجل الفاسد الذي كان كامناً في أمهاته ، كان يجد متعة - لا يشاركه إياها أي متدين صادق التقوى - في أن يبدى براعته في تهويد كل عمل وكل قول مما كان يضيفه على أعماله وأقواله - من قبل - من صبر وود ، في الوقت الذي يتظاهر فيه بأنه عادي في تصرفاته وكلامه ! ..

والواقع أنه لم يعد في نظري إنساناً من لحم ، وإنما صار تمثالا من رخام .. كانت عينه باردة براءة كاللمسة الثرقاء ، ولسانه مجرد آلة ترسل الكلام .. وحسب ! .. وكان كل هذا يعذبني عذاباً رفيع الأسلوب طويل المدى . كان يوقد نارا عظيمة من الإبهام والشم ، ومن القلق الخفاق بالأمي .. مما أضلاني وهصرني هصرأ . وشعرت كيف أن هذا الرجل الطيب ، الصافي صفاء الشيع المغم - كان خليقاً بأن يقتلني - لو أنني كنت زوجة - دون أن يري من عروفي نقطة دم واحدة ، أو يتحرك ضميره الشفاف بأى شعور بالجرم ! .. وكنت أزدهاء شعوراً بهذا ، حين أبذل أية محاولة لاصطلاح معه ، فلم أكن أحظى بتودد في مقابل ودني .. لم يكن يعاقبني شيء ألم من جراء التباعد ، ولا كان يحس بأى حنين إلى الصلح ، ومع أن دعوى المبهرة كانت تناسق - في أكثر من مرة - على الصفحة التي نكف على قراءتها ، إلا أنها لم تكن تؤثر فيه ، وكان قزاده قد حقا من صوان أو معدن ! .. وفي الوقت ذاته كان يبلو أكثر ترفقا بشقيقتيه لما اعتاد ، وكانما كان يخشى أن مجرد البرود غير كاف لإقناعي بأنني مشردة مبعدة ، فأراد بإبراز الفارق في المعاملة أن يزيده

من يلائق : ولكنني وافقة من أنه لم يكن يصدر في هذا عن حيث ،  
وأنا وفقاً لمبدأ : .

وتصادفت أن رأيته - في القليلة السابقة على رجليه - يمشي عند  
الغروب في الحديقة ، فلما نظرت إليه تذكرت أن هذا الرجل - الذي كان  
يجاليني على هذا النحو - قد اقترب مني يوماً . وأنا على صلة من القري  
وليقة ، فشعرت بأنني منساقة إلى أن أبذل محاولة أخيرة كي أسترد  
وذه . ومن ثم سمعت إليه وهو متكئ على بوابة الحديقة ، وبادرتة قائلة :  
« إنني شقية ياسانت جون لأنك ما تزال غاضباً مني . فعدنا نكون  
صديقين ! » فكان الجواب الذي لم يكن يتزحزح عنه : « كنت أظن  
أنا صديقان » . فأذا في قبور وهو متصرف إلى تأمل القصر الذي بدأ  
يترشح . قلت : « لا ياسانت جون ، لسا صديقين كسابق عهدنا ،  
ولذلك لشرك هنا » .

- ألسنا صديقين ؟ . هذا خطأ . . . إنني من ناحيتي لا أزوجك  
شراً ، بل لأنني لك كل خير :

- إنني أصغفك ياسانت جون ، لأنني وافقة من أنك لا تقوى على  
أن تمنحني شراً كي أحمي ، على أنني - كقريبة لك - أجد من حق أن  
أرجو منك وداً يقوى هذا اللون العام من المعاملة الإنسانية الذي تبسطه  
لمن هم مجرد أغراب .

- إن رغبتك معقولة بالطبع . وأنا بعيد عن أن أعتبرك غريبة .  
وكانت هذه العبارة التي نطق بها في يهود وسكنية ، كقيلة بأن  
تقبطني وتحميني ، ولو أنني أضفيت إلى وصوة الكبرياء والحق ،

لتحولت عنه لقوى . ولكن شيئاً أقوى من هذين الشعورين كان يعتدل  
في نفسي ، فقد كنت أقدر مواهب ابن عني ومبادئه ، تقديرًا عميقاً .  
وكانت صداقته ذات قيمة في نظري ، ومن ثم فقد كان فقدانها عناء  
قاسياً ، لا يبعثني أتقى بسرعة عن محاولة استردادها . قلت : « أنظروا  
على هذا الشكل ياسانت جون ؟ . وهل إذا رحلت إلى الهند خلفتي  
هكذا ، دون كلمة أكثر تالفاً مما قلت الآن ؟ » . فتحوّل إذ ذاك عن  
القصر وواجهني قائلاً : « عندما أذهب إلى الهند يا جوني سأخلفك ١٩ .  
ماذا ؟ . ألسنت واحدة إلى الهند ؟ . »

- إنك قلت ألا رجلي لي إلا إذا تزوجت منك .

- وهل لن تزوجني مني ١٩ . أما زلت متشبثة بهذا القرار ؟  
أفتعرف أيتها القارئ - كما أعرف أنا - أي إرهاب يستطيع أولئك  
الذين أوتوا طباعاً باردة ، جامدة ، أن يشعروا أسلحتهم ؟ . ومدى الجليد  
الذي يدفعون تحت ركابهم غضبيهم ؟ . وما لاستيائهم من حدة قيمة بأن  
تخطئ البحار المتجمدة ؟ . على أنني أجبت قائلة : « لا ياسانت جون ؟  
لن أزوجك . . . إنني معصمة على قرارى . » واهتز جبل الجليد ومال  
قليلاً إلى الأمام ، ولكنه لم يزل يعد بالانقياد . وقال : « مرة أخرى  
أسألك لماذا الرفض ؟ . » فأجبت : « كان في البداية لأنك لم تكن  
تمنحني ، أما الآن فلأنك تذكر مني تقريباً . . . ولو أنني تزوجتك لفتنتني .  
بل إنك تفتني الآن ! » .

وشعيت شغاف ووجتاء ، حتى صارت ناصعة البياض ، ثم قال :  
« لتفتك . . . أنا الآن أفتك ؟ . » هذه كلمات ما كان يجب أن تستعملها ،

قبي عذبة ، وتنفى روح الأثره ، وغير صحيحة .. إنها تنفى بحالة ذهنية  
أخيرة ، وجديرة بأن تجلب عليك التأنيب الشديد .. إنها ليست مما يمكن  
التفكير بها ، ولكن واجب الإنسان أن يفكر لأخيه سبعا وسبعين غلطة c.e.1  
وكنت إذ ذاك قد فرغت من مهمتي ، فبينما كنت نوافة إلى أن أعود من  
ذهبه إلهائي السابقة ، إذا بي أضع على سطحه الصلب أرا آخر أشد  
غورا من سابقه .. طبعه بالكي الخرفي ! وقلت : « لسوف تذكرهني  
الآن فعلا ، فلا جدوى من محاولة الصلح » بل أرى أنني جعلت منك  
عدوا إلى الأبد ! .. وأحدثت هذه الكلمات أذى جديدا ، أنكي من  
السابقين ، لأنها مست الحفيظة ، فإذا الشفة المنقطة ترتعش في تشنج  
عابر .. وتبين مدى الحقد الحاد الذي شحذته ، فاعتصر الألم فؤادي :  
وقلت وقد أمسكت يده : « إنك تسمى قلوبيل كلياقي ، فليست أنتوى  
حقا أن أولئك أو أمي إليك ، وما اتويت من قبل ! »

وايشم في مرارة ضافية ، وحسب يده في إصرار بالغ ، وقال بعد  
صمت طويل : « والآن : أحسبك تسحبين وعدك ، وإن ذهبي إلى الهند  
إطلاقا ؟ » فأجبت : « بل سأذهب ، كمساعدة لك .. وتلا ذلك  
صمت جد طويل ، فأنى صراخ كان يدور في نفسه - خلال تلك الفترة -  
بين الطبيعة والدين .. كنت أخرى ، ولكن عييه كالنا تومضان يبريق  
عجيب ، كما ظلمت على وجهه خلال غريبة ، وتكلم في النهاية ، فقال :  
« لقد بينت لك من قبل الحرج الذي يحيط باعتزام امرأة بكر في سنك  
أن ترافقي إلى الخارج وجلا أعزب في منى .. بينه لك عبارات كانت  
كافية .. على ما ظننت - لأن تمنحك من الفادي في هذا الرأي : أما وقد

تأديت : فإني أشعر بالأسف .. من أجلك ! : « وكان أي حديث يعطى  
معنى التأنيب ، كظيل بأن يثير جرائي ، فقاطعت قائلة : « احرص على ألا  
تجانب الإدراك السليم ، فإني على شفا الهديان يامانت جون .. إني  
أكرر لك القول بأنني سأكون مجرد مساعدة لك إن شئت ، ولكني لن  
أكون أبدا زوجتك ! »

واشد شحوب وجهه مرة أخرى ، ولكنه تماك جأشه غامما ،  
وأجاب في إصرار ، ولكن دون انفعال : « لن تناسيني قط مساعدة  
لا تكون زوجة في .. ومن ثم يبدو جليا ألا رحيل لك معي ، على أنك  
إذا كنت صادقة في رغبتك في الذهاب ، فسأحدث - أثناء وجودي  
في المدينة - إلى مبشر متزوج ، تحتاج زوجته إلى مساعدة : وستمكنك  
تروئك من ألا تعيش حالة على معونة الجمعية ، وبهذا تتفادين عار  
التكث بوعذك ، والتخلف عن الركب الذي تعهدت بالانضمام إليه .. »

وكما يعلم القارئ : لم أكن قد قطعت على نفسي وعدا رسميا ،  
ولا ارتبطت بأني تعهد ، ومن ثم كان أسلوبه أنسى وأعني مما ينبغي ،  
فقلت : « لا عار هناك ، ولا تكث بوعد ، ولا تخلف ، وكنت مرقيقة  
بأنه التزام بالذهاب إلى الهند - لاسيما مع أعزب - لقد كنت مستعدة  
لأن أجازف بالسفر معك ، لأنني أعجب بك ، وأثق فيك ، وأحبك  
كأخت .. ولكني موقفة من أنني إذا ذهبت إلى هناك - متى ومع من  
يقدروني الذهاب - فتن أميش طويلا في ذاك القلبي » . فلو شفته  
أزدها ، وقال : « آه ! .. إنك تخافين علي نفسك » . فأجبت : « أجل ،  
فإن الله لم يمنحني الحياة لكي أرميها ، ولقد بدأت أرى أن إتيان ما تريد



مضى فعله ، يكاد يعادل الانتحار . فضلاً عن أنني لا بد من أن أؤكد  
قبل مبارحتي انجلترا - من أن بقاى هنالك لن يكون أكثر نفعاً من رحيلى .

فقال : « ما الذى تعين ؟ »

من العبت أن أشرح لك ، ولكن هناك نقطة ظلت أعانى مرارة  
الشك فى أمرها طويلاً ، وليس لي أن أذهب إلى أى مكان حتى يبتدد  
هذا الشك :

— إننى أعرف أين ينفو قلبك وإلام يتعلق .. وهذا الاهتمام يلقى  
القانون والشرع . وكان خليقاً بك أن تستخيه من أمد طويل ، كما يجدر  
بك الآن أن تفعل من الإشارة إليه .. أتفكرين فى مستر روشستر ؟  
وكان هذا حقاً ، وكان جيني اعترافاً به . فعاد يسأل : « هل  
تفكرين عن مستر روشستر ؟ » فأجبت : « لا بد من أن أعرف  
ما أصابه » . فقال : « لم يبق لي إذن سوى أن أذكرك فى صلواتي .  
وأدعوا الله من أجلك ! »

\*\*\*

● وإذا عدت إلى قاعة الجلوس ، وجدت ديانا واقفة لدى النافذة ،  
مستغرقة فى التفكير .. وكانت تفوقى طولاً بكثير ، فألقت يدها على  
كتفى ، ومالت فوقى نظرس وجبى ، ثم قالت : « جيني : لقد أصبحت  
دائمة الانفعال والشحوب ، وأعتقد أن فى الأمر شيئاً ، فأخبرينى بما  
يبئك وبين سائت جون .. لقد ظلت أراقبك من النافذة نصف ساعة ،  
ولتصغى عن نجسى ، ولكننى منذ زمن أوجس من أمر لا أدريه ..  
أن سائت جون غلظت عجب .. » وأمسكت عن الكلام ، فلم أنبس

بهتت شفة . وما لبثت أن استأذنت حديثها قائلة : « إننى واقفة من أن  
هذا الأخ الذى أوتيته يوم وراه آراء عجيبة عتق ، وقد آثرك من أمد  
طويل بعناية واهتمام لم يولها أحدًا سواك .. فما غاية ؟ .. ليت يهلك .. هل  
هو يهلك يا جيني ؟ »

فرفعت يدها الباردة إلى جيبى الملتهب ، وقلت : « لا ياديانا :  
إنه لا يعمى مثقال ذرة ! » . فساءلت : « إذن فلماذا يتبعك هكذا بعينيه ،  
ويحلق إليك كثيراً ، ويستيفك باستمرار إلى جوار ؟ » . لقد استنصحت  
ومارى أنه يريد الزواج منك . « قلت : « هو كذلك .. لقد سألتى أن  
أكون زوجته . فصفتك ديانا وهفت : « هذا ما تخيئناه وفكرنا  
فيه .. » . ولشرف تزوجيه يا جيني .. ألسنت كذلك ؟ .. إنه إذ ذاك سمعك  
فى انجلترا . » . وهنا قلت : « إن الأمر بعيد عن هذا ياديانا ، فإن فكرته  
الوحيدة فى عرض الزواج هى الحصول على زميل صالح بشاطره جهوده  
فى الهند . »

— ماذا ؟ .. أريد منك أن تذهبي إلى الهند ؟

ولما أجبت نعم ، هفت : « جتون ! : إنك لن تعيش هناك أكثر  
من ثلاثة أشهر .. إننى واقفة من ذلك . لن تلهي .. ما أظنك وافقت  
يا جيني ؟ » . فقلت : « بل رفضت الزواج منه . » . فحطت قائلة :  
« وبهذا أغضبته ؟ »

— إلى أين حذ : فلن يصفح عني قط .. ومع ذلك ، فقد عرضت  
عليه أن أرافقه كأخت له .

— إنها لحقيقة بالغة يا جيني : ففكرى فى المهمة التى ستضطلعون بها ..

إنها عنه متراصل ، في بلاد يقتل الحب فيها الأقوياء ، في حين أنك ضحية ! .. ولكن ، كيف رفضت الزواج منه .. إذن ، فأنت لا تحبينه يا جين ؟

— ليست أحبه كزوج ،

— ومع ذلك فهو شاب مليح :

— وأنا خالصة من الجبال كما تريد يا ( دى ) ، ومن ثم فلن يلائم أحداً الآخر .

— أنت خالصة من الجبال ؟ .. أبداً ! .. إنك من الملاحة والطينية بحيث لا يلبغي أن تشوى نحية في كلكتا .

وعادت تريب في في إخلاص أن أطرح كل فكرة في الرحيل مع أخينا ، فقلت : « لابد لي من ذلك فعلاً ، لأنني عندما فكرت افتراسي عليه بأن أخدعه كأنك ، بهت لغلة حياتي ، وبدأ أنه يراني قد ارتفعت ذنباً إذ افترحت عليه أن أرافقه دون زواج ، وكأنني لم أكن آمل من البداية أن أخدعه أخاً ، ولم أعتد أن أعتبره كذلك ! » ، فسألني : « وما الذي يجعلك على الظن بأنه لا ينجح يا جين ؟ » ، فأجبت : « بحسن بك أن تسمعي إذ يتكلم في الموضوع .. لقد عبر مراراً وتكراراً عن أنه لا يريد زوجة لشخصه ، وإنما من أجل مهنته . ولقد أخبرني بأنني خلقت للعمل وليس للحب ، وهذا حق بلا شك . ولكنني أرى أنني إذا كنت لم أخلق للحب ، فأنا بالأحرى لم أخلق للزواج . أفلا يكون من العجيب بعد ذلك يا ( دى ) أن أقيد نفسي مدى الحياة برجل لا يراني أكثر من أداة نافعة ؟ » ، فهزئت : « إنه أمر لا يطاق .. غير طبعي ..

لا يستحق الاعتبار ! » . فاستطردت قائلة : « ثم إنني وإن كنت أكن له الآن حياً أخيراً ، إلا أنني أتصور .. إذا ما اضطرت إلى الزواج منه .. أحبال قيام نوع من الحب الغريب ، المضني ، الذي لا مفر منه ، لأنه حرم المواجه ، وفي منظره وأخلاقه وحديثه قدر من وقار الأبطال ، في كثير من الأحيان . وفي هذه الحالة ، سيصبح حظي تعساً إلى درجة تجعل عن الوصف . إنه لن يريه متى أن أحبه ، فإذا أبدت عاطفتي فسيعد إلى إشعاري بأن هذا نوع من النعم الذي لا ينبغي ، والذي لا يليق بي ، إنني أوقن من أن هذا سيكون تصرفه » .

وقالت بادئاً : « ومع ذلك فإن سانت جون رجل طيب » . فقلت : « إنه طيب وعظيم ، ولكنه ينسى .. في غير إشقاق .. مشاعر ومطالب الناس البسطاء ، في اندفاعه وراء نظرياته الجلييلة .. لذلك يحسن بمن لا يضاهونه عقلية ، أن يتبعوا عن طريقته ، وإلا دامهم في سيرة ، هاهو ذا أنت ، لذلك ، فسأتركك بادئاً » . وأمرت أصدق إلى الطابق العلوي ، إذ رأيت بلح الخديفة .

ولكنني اضطريت إلى مقابلة مرة أخرى عند العشاء . وبدأ — خلال تناول الطعام — حديثاً كعادته . وكنت أظنه ان يوجه إلى حديثاً ، كما كنت موقنة من أنه قد غلخ نهائياً عن مشروع الزواج ، ولكنني أخطأت الخدش في الأمرين . فقد خاضعتي بنفس طريقة المعهودة — أو التي أصبحت معهودة في المدة الأخيرة — وهي طريقة تتسم بأدب متزمث . ولا مراد في أنه امتعان بالروح القدس ليكنظم الغضب الذي أثارته في نفسه ، فغلب إلى أنه قد صفع عني مرة أخرى . واختار لقرعة

المسائية... السابقة على الصلاة... الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الرؤيا  
وقد كان من المتعجّب عاتياً أن أنصت بينما تنطق شفاه الجسليتان بكلمات  
الإنجيل. فما كان صوت الرقيق ليبدو أكثر علوية وامتلاء. ولا كانت  
لحنه تبدو في بساطتها السامية أكثر تأثيراً في النفس. منها عندما ينفر  
كلام الله. وأما في هذه الليلة، فقد اكتسب الصوت نغمة أكثر روعة،  
واكتسبت لحنه معنى أكثر تأثيراً في النفس.. وكان يجلس وسط حلقة  
من أهل بيته، وقد بدا في شهر مايو متأثراً خلال النافذة التي انزاحت  
عنها الستار، فجعل ضوء الشعة القائمة على المضلعة يبدو غير لازم. هكذا  
كان يجلس عاكفاً على نسخة الإنجيل العتيقة الضخمة، ينقل عن صفحاتها  
رؤيا السباه الجديدة، والأرض الجديدة، ويروى كيف يسيط الرب  
ليعيش بين الناس، وكيف سيهتف الدمع عن أعينهم، ويعد بأنه  
لن يكون ثمة موت بعد ذلك، ولا أمسى، ولا عويل، ولا أى ألم،  
لأن الأشياء السابقة ستقضى وتزول!!

وهزئت الكلمات المتعاقبة بقوة عجيبة وهو ينطق بها، لاسيما حين  
شعرت... من التغير البسيط الطاف الذي انتاب صورته... أن عييه قد تحولت  
لحوى، وهو يلفظ هذه الكلمات: «من يقبل يرث كل شيء» وأصبح  
له لافاً، وهو يكون لي ابناً وأماً... وهنا تباطأت لحنه وأخذ يغدق على  
الكلمات، الخالقون، وغير المؤمنين... فتصبيهم في البحيرة المنقذة  
بنار وكبريت، الذي هو الموت الثانى... ومن هنا أدركت أى مصير  
كانت سانت جون يخشى أن أتأله!!... والسمت قراءته للقرات الأخيرة  
من هذا الإصحاح، بشعور من النصر الحادى المكبوت المترج بحماس

مشيوب. وكأنها آمن هذا القارئ بأن اسمه قد كتب فعلاً في «سفر  
الحياة». فانتقلت نفسه إلى الساعة التي يؤذن له فيها بدخول المدينة التي  
يحمل إليها ملوك الأرض أمجادهم ومناخرهم. حيث لا حاجة إلى شمس  
أو قمر لإضاءتها، لأن جلال الله يبررها..

وتجمعت كل طاقته، واستيقظ كل إيمان الروح في الصلاة التي  
أعنيته هذا الإصحاح، فكأنما كان يتأهد من أجل الله بكل إخلاص،  
وقد عند العزم على الغلبة. وراح يطلب القوة لدوى القلوب الضعيفة،  
والمداية للضالين، والتوبة... ولو في الساعة الأخيرة... لأولئك الذين  
كانت إغرامات الدنيا والجسد تحيد بهم عن الطريق الضيقة، وراح  
يطلب، ويبلغ في السؤال، يرجو نعمة النجاة من النار، وللإخلاص  
رحمة حققة، فوجدته أفكر في إخلاصه.. أولاً وأنا أصغى إلى الصلاة،  
ثم عندما بلغت ذروتها، فإذا بى أتأثر بها. ولا ألبث أن أضع كرسيها..  
كان يشعر مخلفاً بعظمته وصلاخ غرضه، ويشهد بذلك الآخرون  
الذين استمعوا إليه، لأنهم لم يملكوا سوى أن يشعروا بذلك.

وإذا انتهت الصلاة ودعنا، إذ كان زمعاً الرجيل في ساعة جد  
مبكرة من الصباح. فلما قبله ديانا ومارى، غادرتا الحجرة..  
وإخافاً فعلاً ذلك من قصد، إلى خمسة منه.. وبسطت له يدى مشنية  
له رحلة بويجة، فقال: «شكراً لك يا جين. وسوف أعود من كمبرج  
بعد أسبوعين». كما قلت لك. وهذه الفترة مهلة تفكير فيا. ولو أننى  
أنصت للكبرياء البشرية، لما كان لى أن أجد ذلك لانية عن الزواج منى،  
ولكننى أنصت لواجبى. وأضع نصب عيني دائماً هدفى الأول: وهو

أن أفعل كل الأشياء . في سبيل مجد الرب . لقد عانى معلني ( المسيح ) طويلاً ، وكذلك سأعاني ، فليست أقوى على أن أتركك للهلاك ، كسفية ضالة ! .. ألا توتي ، وأنيبي ، قبل فوات الأوان ! .. تذكرني أننا أمرنا بالعمل والوقت نهار ، وأملنا بأن « المبلل لن يلبث أن ياتي » ، فلا يتاح للإنسان أن يعمل .. ويمنحك الله القدرة على أن تخفاري التعصيب الذي لاسبيل إلى اتزاعه منك ! ..

ووضع يده على رأسي وهو ينطق بهذه الكلمات . وكان يتكلم بحماسة وورقة .. ولم تكن نظرتي في الواقع تنظره عيب بتطلع إلى محبوبته . وإنما كانت نظرة واع يجمع حملاته الشاردة ، أو بالأحرى نظرة ملاك حارس يرقب الروح التي هو عنها مسئول .. إن لكل الموحين — سواء كانوا مرجعي الحس أو لم يكونوا وسواء كانوا متحمسين أو طموحين أو طغاف — خطرات من السوء يهودون فيها ويسيطرون . على أن يكون الإخلاص والصدق رائدهم . وشعرت بتوقير نحو سانت جون . توقير بلغ من قوته أن دفعني فوراً إلى النقطة التي كنت أحاول طويلاً الابتعاد عنها . فلقد ساورتني إذ ذاك الرغبة في أن أكتف عن مناقشته . وأن أندفع في تيار إرادته إلى بحر حياته فأفقد إرادتي في عماره .. وشعرت الآن بوطأة حصاره لي كما شعرت به مرة من قبل :

ووقفت بلا حراك تحت لمسات ساحري ، وقد تسببت رفقسي ، وزالت غلاوتي وشلت مقاومتي ، وأصبح الاستحيى — وهو الزواج من سانت جون — ممكناً . لقد تغير كل شيء تماماً بلسة مباغنة : إن الدين يتأدى ، والملائكة تومي ، والله يأمر ، والحياة تطوي ، وأبواب

الموت مفتوحة تطل الأبدية من خلفها .. وبذلك لي أنه لايد من التضحية بكل شيء في التز والخطئة ، لكي أحصل على الأمان والسعادة .. وامتلات الغرفة المنعة بالرؤى والأحلام .. وما لبث أن سألني سانت جون بلهجة رفيعة ، وقد صبنى إلى جانبيه بلطف : « هل تستطيعين أن تقرري الآن ؟ » . آه من هذه الرفقة ! .. لشدها هي أقوى من العنف ! .. لقد كنت أستطيع أن أقاوم غضب سانت جون ، ولكنني كنت أنفني كمود الخيزران تحت ضغط رفته ولطفه . ومع هذا فقد كنت أعرف طيلة الوقت أنني إذا استسلمت الآن فإن الندم لن يساورني يوماً على سابق تمردي وعصيان ، إذ أن طبيعتي لم تكن قد تبدلت إر ساعة من الصلاة ، وغاية ما في الأمر أنها صحت عالياً : فحسب !

وأجيت أخيراً : « بوسني أن أبت الآن : لو أنني وقيت بأن إرادة الله تقررني على أن أتزوجك .. لو أنني اقتنعت لتزوجتك هنا ، والآن ، ولكن بعد ذلك ما يكون ! » . فصاح سانت جون : « لقد استجيبتي صلوائي ! » . وشده قبضته على يدي وكأنه يستولى على ما هو حن له : وأحاطني بلواحه وكأنه يحنني ، تقريباً ، وأقول تقريباً ، لأنني أحرك أهدقي . فلقد عرفت شعور الإنسان عندما يكون محبوباً . ولكنني غلبت مثله ، فطرحت مسألة الحب وراء ظهري ، وبسببت أفكر في الواجب فقط ! .. وأعلنت أصارح ما اكتشف بصيرتي من عظمة وفلام . كنت أوقو بإخلاص وحرارة وصدق إلى أن أفعل الشيء الصحيح ولا أحفل بغيره .. وأبتهلت إلى السماء : « ألا دليبي .. أرشديني إلى الطريق ! » . وشعرت بانفعال لم أشعر بمثله من قبل ، وسواء كان



ما حدث بعد ذلك نتيجة للانفعال أو لم يكن ، فهذا متروك لحكم القارئ ؛  
كان السكون يقيم على المنزل كله : إذ هجع الجميع ، ما عدائ  
وسانت جون : وكانت الشعلة الوحيدة تحضر ، وضوء القمر يغير  
الحجارة ، وقلبي ينفق بسرعة وعنف .. حتى أنني كنت أسمع وجهه ..  
وفجأة ، أخذ القلب إلى السكون ، إذ غشي إحساس غريب ، لم أدر  
كنه ، ولم يلبث أن مرى إلى رأسي وأملأني .. وما كان هذا الإحساس  
كنس الكهرباء ، ولكنه كان - على أي الحالات - حاداً ، غريباً ،  
ملحلاً ، أرسل في حواسي - التي كانت في أقصى انتباهها حتى تلك  
اللحظة - ملحولاً غداً ، سارعت إلى انزعاجها منه وإيقافها .. فالتفت  
مرحمة ، تتوقع أمراً .. فإذا عيني وأذني في انتظار ، بينما كان غيمي  
برتمش فوق عظامي . وسألني سانت جون : « ما الذي سمعت ؟ .. وما  
الذي ترون ؟ .. » ولم أكن قد رأيت شيئاً ، ولكنني سمعت صوتاً ينادي  
من مكان ما :

« جيني ، جيني ، جيني ! » ، ولا شيء أكثر من ذلك .. وشبهت  
قائلة : يا إلهي ! ما هذا ؟ .. ولعلني قلت أيضاً : « أين هو ؟ » لأنني  
لم أَر شيئاً في الحجارة ، ولا في المنزل ، ولا في الحديقة .. على أن الصوت  
لم ينبعث من الهواء ، ولا من تحت الأرض أو من فوق رأسي .. لقد  
سمعته ، ولكن كان من المستحيل أن أدرى : أين ولا أمان ! .. ولقد  
كان صوت كائن بشري ، معروف ، وحبوب .. كان صوتاً أتذكره  
جيداً .. صوت إدوارد فيرفاكس روستر ! .. وكان يتكلم بأم ، وأمسى ،  
ولغة ، واستنجات ، وتعجل ! .. قصصت قائلة : « إني قادمة ! .. »

انتظري ! .. أواه ، سأحضر ! .. وهزلت إلى الباب فظننت إلى الممر  
الذي كان مظلماً ، وجريت إلى الحديقة فوجدتها خالية .. فتأديت في  
دهشة : « أين أنت ؟ » .

وأرسلت اللال عبر الوادي رداً واحداً : « أين أنت ؟ .. » وجعلت  
الرياح تئن في خفوت خلال أشجار الصنوبر ، بينما كانت الوحشة  
والوحدة تسيطران على اللال المقفرة ، وغيم سكون منتصف الليل  
على المكان :

وقلت لسانت جون ، إذ تحيل لي أنني أرى شيئاً أسود يبرز عند  
الشجرة السوداء المياورة لباب الحديقة : « ألا دعني من الأوهام  
الخرافية ! .. ما هذا من صنع دجلك أو سمرك ، وإنما هو من صنع  
الطبيعة .. لقد فارت ، وإذا كانت لم تفعل المعجزات ، إلا أنها بلدت  
فصاري جهدها ! .. » وابتعدت عن سانت جون ، ولو استطاع لاحترق في .  
ولكن هذه كانت ساعتني التي أستردها لها مسطوق ونفوذني ، فإذا قواي  
تنتقل من عقلم في شدة .. وطلبت إلى سانت جون أن يمسك عن أي  
سؤال أو ملاحظة ، ودرغت إليه أن يتركني لأخلو إلى نفسي ، فأطاعني  
على الفور . وما دام الإنسان يملك الطاقة الكافية لكي يأمر بصورة حاسمة ،  
فإنه لا يحد سوى الطاعة ! .. وصعدت إلى غرفتي فأغلقتها بالمفتاح ،  
ثم ركعت على ركعتي ورحمت أصلي على طريقي .. وقد تغاير طريقة  
سانت جون ، ولكنها فعالة .. فبدأ لي أنني أقرب جداً من الله ..  
واندفعت روحي ساجدة عند قدميه ، عرفاناً وشكراً ، وعندها لمضت  
من صلاتي ، كنت قد عقدت العزم على أمر ، فاستلقيت على فراشي

وقد أوضحت المعلوم عن كامل ، وزالت الغشاوة عن بصري ،  
وانظرت بلهفة شروق الصباح !

\*\*\*

### الفصل السادس والثلاثون

■ وأقبل النهار ، فلبست عند الفجر وانهكت ساعة أو ساعتين في ترتيب حاجتي في غرفتي وأدراجي وصواني ، وقد اعتزمت أن أغيب عنها فترة وجيزة . وصمت في الوقت ذاته ( سانت جون ) يبرح غرفه ثم يقف عند بابي ، ويخشيت أن يطرده ، ولكنه اكتفى بأن دفع من تحت الباب ورقة ، فتناولتها ونظرت إليها . وإذا فيها : « لقد تركتني فجأة ليلة أمس ، ولو أنك مكثت برهة وجيزة ، لو وضعت يدك على صليب المسيح وناج الملاك . سأنتظر منك قراراً واضحاً عند عودتي بعد أسبوعين وفي الوقت ذاته . حاذري وصلي لكي لا تقع في الغواية .. إن روحك راغية ، ولكن الجسد - على ما أرى - ضعيف . سأصلي من أجلك في كل ساعة . اخلص : سانت جون . .. وهنت في نفسي : « إن روحي راغية في أن تفعل ما هو صواب ، وجسدي - فيها أرجو - قوي إلى الدرجة التي تمكنك من تحقيق إرادة السماء ، بمجرد أن تتكشف لي هذه الإرادة . وعلى أية حال ، فلأسوف أكون من القوة بحيث أستطيع البحث والسؤال ، والتفتيح عن منفذ من غيوم الشك هذه ، كي أصلي إلى نهار اليقين ! »

وكان اليوم أول أيام شهر يونيو . ومع ذلك فقد كان الصباح بارداً طويلاً ، وأخذ المطر يطرُق بشدة زجاج نافذتي : وسعت الباب

الخارجي يفتح ، فيفتحت سانت جون خارجاً ، ورأته - خلال النافذة - يعبر الحديقة ، ثم يتخذ طريقه خلال الآجام المثقفة بالضباب ، نحو ( هويتكروس ) ، حيث يلتقي بعربة البريد . فقلت له في نفسي : « لسوف أقفوا أثرك بعد ساعات قليلة يا ابن العمة ، وسأستقل أنا الأخرى عربة من ( هويتكروس ) ، فإن لي أنا الأخرى من أسعى لقائه قبل أن أرحل .. إلى الأبد ! .. » وكان باقياً على موعد القطور ساعتان ، فأخذت أجوس خلال شرفتي في هدوء ، وأأمل الرؤى التي أحدثت هذا التغيير في خططي .. تذكرت الإحساس الغريب الذي خامرني ، والصوت الذي سمعته بكل ما فيه من غرابة لا سيال إلى تعليلها .. ولاح في أنه إنما تبعث في أعماق وليس في الكون المحيط بي .. وسألت نفسي : ألكان عر دوهر عصبي ؟ لم يكن في وسعي أن أجزم ، ولا أن أصدق . كان أشبه الأصوات بالهاتف .. بالإلهام ! .. كان الإحساس الغريب أشبه بهزة فحنت أبواب بين روحي ، وفككتها من أغلالها ، وأبقنتها من سباتها ، فإذا الروح تنفخ من نفثة ، مرهقة السمع ، مبهوثة .. ثم تردت صبيحة ثلاث مرات في سعي ، وفي فاني ، وفي روحي ، فإذا بهذه الثلاثة لا تخرج ، ولا ترتعب ، وإنما انفتحت ، وكأنها تحررت بحركة واحدة من أسار الجسد ! ..

وقلت أعني ثمانين : « سأعرف بعد أيام شيئاً عن ذلك الذي خيل إلي ليلة أمس أن صوته يدعوني .. فقد أثبتت خطابات أنها غير مجدية ، ومن ثم فلا بد من التحرر الشخصي . فلما اجتمعنا حول مائدة القطور ، أعلنت دباتا ومأري أنني متطلعة في رحلة قد تستغرق أربعة أيام على الأقل ،

فأنا الذي : « أو ترحلين وحيدك باجبن ؟ » : فاجبت : « أجل . فاني ذاهبة لأقتصد أنباء صديق أشعر بقلبي من أجله منذ أمد » . ولعلهما غائتا في نفسيهما إنما كانتا تعقدان ألا أصدقاه في سواهم ، فكثيراً ما قلت هذا فعلاً .. ولكن ما طبعنا عليه من لطف جعلهما تمسكان عن التعقيب . وإن سألتني دياناً عما إذا كنت أعقد أنني في حالة حمية تمكيني من السفر -- إذ كانت ترائي شاحبة -- ونكتني أجبتها بأنني لم أكن أعاني إلا من القلق ١.

\*\*\*

● وبارحت (مور هاوس) في الساعة الثالثة من بعد الظهر ، فلم تأت الساعة الرابعة حتى كنت أقف بجانب علامة الطريق -- عند (هويتكروس) أنتظر العربة التي تقبلي إلى (ثورنبيلد) . وما ليست أن أجمعها .. وسط السكون الشامل -- تقترب من بعد .. وإذا بها عين العربة التي حبست مني في تلك البقعة ذات أصل من أسبال الصيف ، منذ عام ! ..! ألكم كنت إذ ذاك بلا حول ولا قوة ولا هدف ١. وسرعان ما كانت تمحلي إلى (ثورنبيلد) ، وأنا أشعر وكأنني حامية تعود إلى عشيها !.. واستغرقت الرحلة ستاً وثلاثين ساعة ، فقد بارحت (هويتكروس) بعد ظهر يوم الثلاثاء .. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم بعد التالي ، وقفت العربة -- ربما تروى الخليل -- عند فندق ريني ، فإذا المروج الخضراء ، والحقول الشاسعة ، والبال الخفيف المكمرة بالأعشاب ، تصافح عيني بتناظر مأرقة .. وما كان أبعد الفرق بينا وبين مروج (مورثون) !.. وعلمت من الفندق أنه لم يبق بيني وبين

(ثورنبيلد هو) سوى ميلين ، فطأنت نفسي إلى أن رحلت قد أشرقت على نهايتها . فلودعت لدى الفندق صندوقاً ليستقيه ربها أعود لاستردادها ، ثم تقدمت الجودي أجراً أرضاء .. وعندما انطلقت على قدمي ، كانت الشمس تظهر لافتة الفندق ، فخرأت عليها : « فندق ضبعة روشستر » ، فخطفت قلبي إذ شدوت في إطلاق أملاك سيدي . ولكن خاطراً هتفت بي : « قد يكون سيدك نفسه عبر الخليج البريطاني .. وحتى لو كان في قصر (ثورنبيلد) الذي تغذين السير نحوه ، فمن التي تعيش بجواره ؟ زوجته المجنونة . ومن ثم فلا شأن بك به ، وليس من حثك أن تكلميه أو تلتصق به .. خليك بك ألا تحصى قسماً ، بل سأل أهل الفندق عن الأنباء أولاً ١. .. ربما الاقتراح معقولاً . ولكنني لم أفر على تفديده ، فقد خشيت أن أتلق جواباً يسحق آمالي .. وفي إطالة الشك استيقاظ لأعمل !.. وما كان أسرع سيرى !.. لقد كنت أجري في بعض الأحيان .. وكنت طيلة الوقت أتوق إلى رؤية الغايات المأرقة . وفي قلبي سيل جارف من العواطف ، فلما لاحت لي في النهاية ، تولاني حبور عجيب : وزدت من إسراعي في السير ، وأنا أتعجل ولوية القصر ذاته ، وأنا أحدث نفسي : « ستكون الواجبة أول ما يتصافح عيني .. ولسوف أميز من بين نوافلها نافذة سيدي .. وربما وجدته واقفاً قدامي .. فإنه ينهض مبكراً في العادة .. بل لعله الآن يشدني في البستان أو في الطريق الموصوفة أمام القصر .. آه ، لو قدر لي أن أراه ١. .. أثرني لا أجن إذ ذاك ، فأهرع إليه ١. .. لست أدري .. وماذا يجري لوقعت ١. .. لربما ركه الله ..! من الذي يفسر إذا نعمت مرة أخرى بتلوقي

الحياة في قبض نظرائه .. ولكنني أهدى ، فربما كان في هذه اللحظة  
يرقب الشمس فوق جبال اليريز أو على بحار الجنوب ..  
وبلغت فرجة في أحد المروج ، قام على جانبيها عمودان ، وكانت  
تشرق على واجهة القصر مباشرة ، قد سمعت رأيي في حذر من خلف  
أحد العمودين مثوقة إلى أن أتزود بنظرة إلى نوافذ عذراء سيدي ..  
ولعل الغريبان اللتي كانت تعوم فوق قد أخذت إذ ذلك لظهوري . ولما  
بدأت حركاتي من حذر بالغ ، وعجل شديد .. ولكنني مرعان بالجوهرات  
وأرسلت نظرة خاطئة ، ثم أجبها بنظرة طويلة ، ثم اندفعت من مكاني ،  
فإذا بي أمام القصر ، وهنا كانت الصدمة الكبرى ..  
تصور أيها القارئ عاشقاً يقاخي حبيبتة نائمة على العشب .. إنه  
يبدو أن يتزود بنظرة إلى وجهها دون أن يوقفها ، ومن ثم يتسلل في رفق ،  
أشد ما يكون حذراً ، ثم يقف إذ يخال أنها تحركت .. ويتراجع ، ولكنه  
يجدها ساكنة ، فيعاود التقدم ، ويتحنن فوقها ، ويرفع الحمار الرقيق  
عن وجهها ، ثم يزحاذحها ، وتلثم عيناها جمادا اللذيذ المتأخر الحبيب  
بنظرة عاجلة ، ثم تطول نظرائه ، فلا يلبث أن يهمل ، ويضم إلى صدره  
الجسد الذي لم يكن يعزى منذ لحظة على أن يمس ، وبروح يتأدى : ثم  
يسقط حله ، ويحلق فيه .. ويعود يعضه ، ويصرخ ، ويحلق ،  
وقد زأله الخوف من أن يوقظ الحبيبة .. إذ يتبين إذ ذلك أنها جثة هامدة !  
وهكذا كان حالى .. فلقد تطلعت في قرح مشبوب نحو القصر المنيف  
فلم أن سوى أطلال سوداء !

لم تكن هناك حاجة للتوازي ورام عمود ، ولا لاختلاس النظر إلى

نافذة المذبح ، ولا لخوف من الحياة التي تذب ورام الجدران .. وما كانت  
تحتاج لإرهاق السمع توفعاً لأصوات الأبواب وهي تفتح ، أو توقع  
الخطي على الطريق المصوبة ، فقد كان الخراب يرين على كل شيء ..  
وكانت التواجية .. كما رأيتها ذات مرة في مناس .. مجرد جدار قائم ،  
مذبح ، تمخذه ثغرات النوافذ .. فلا شئ هناك ، ولا مصابيح ،  
ولا مذبح .. كل شيء قد انهار ! وأحاط بالموقع كله سكون كالقوت  
ووحشة كتيبة .. لا عجب إذن في أنني لم ألتق رداً على الخطابين اللذين  
أرسلتهما .. وكانت الأحجار الكريمة السوداء ، تلثم بالصور التي  
لديه القصر ، فاقده حزناً .. ولكن ، ما الذي أوقد الحريق ، وما قصة  
الكريمة .. وهل راحلت الأرواح كما ذهب الصرخ .. وكان السؤال  
رهيباً ، وليس نجمة من عيب عنه .. وفيما كنت أجوس بين الأطلال  
وقع بصري .. بالرغم مني .. على برج الكريمة المغير . فعاينت نفسي :  
أترى حبيبي مع دامر روشستر يشاطره مشواه الرخامي الضيق ؟ ..  
وكان لابد من إجابات عن هذه الأسئلة فعدت إلى الفندق الصغير :  
وإذ أنظر إلى الفندق بنفسه طامع الإقطار ، حاولت أن أستفسره ،  
ولكنني خشيت أن أسمع ما كنت أكره ، فاضطربت هتية . بيد أنني  
ما لبثت أن سألته : « هل تعرف ثورفيلد هول ؟ » .. فأجاب : « أجل  
ياسيدي .. لقد عشت هناك فترة .. » .. إذن ، فلماذا أنه عاش في غير  
الفترة التي عشت فيها هناك .. وأردف الرجل : « لقد كنت سافراً المرحوم  
مستر روشستر » .

المرحوم .. ! لكأنني تلقيت لطمة حاولت جهادة أن أنفادها ..



وشفت : « المرحوم ! » فقال الرجل : « أعني والد السيد الحالي  
مستر إدوارد .. وتفتت الصعداء ، وانساب الدم ثانية في عروقي  
بعد أن كاد يتجمد . وطعنا ثقبى الكلكتان - مستر إدوارد - إلى أن  
روشتري أنا ، كان ما يزال حياً .. بالكلمات الساروتين ! لقد خيل  
إلي أن في وسعي أن أسمع كل ما يلي ذلك بنفس مطمئة ، مهبط كانت  
الأنباء . وعدت أسأل الرجل وأنا أعرف جوابه مقدماً : « هل يتم  
مستر روشتري ( ثورنيلد هول ) الآن ؟ » فأجاب : « لا ياسيدتي .  
لا أحد يعيش هناك ، وما أراك إلا غريبة عن هذه الأصقاع ، وإلا لكنت  
قد سمعت ما جرى في الخريف الماضي .. لقد أصبح ( ثورنيلد هول )  
أطلقاً ، إذ احترق عن آخره .. كانت كارثة مروعة ! فقد اندلعت  
النار في يوم الليل ، وقبل أن تعمل عربات الإطفاء من ( ميلكوت ) كان  
قد أصبح كتلة من حطب . » فتعسفت : « في يوم الليل ! » تلك كانت  
ساعة الخطر دائماً في ( ثورنيلد هول ) . وإذا سأله عن القاتل ، قال :  
« لقد جلسوا .. بل أستطيع أن أقول إنهم تأكلوا .. لعلك لا تدرين أن  
ثمة سيده : « جنونة » كانت في النقص . كانت خيصة تحت رقابة  
شديدة ، وكان أمرها مكتوباً ، حتى أن أحداً لم يكن على يقين من  
وجودها ، إذ أن مخلوقاً لم يرها ، أو يعلم بأمرها إلا على سبيل الأقاويل  
والشائعات .. فقد كان يقال إن مستر إدوارد أحضرها معه من الخارج  
وزعم البعض أنها كانت خبيثة . ولكن أمراً غريباً حدث .. منذ عام  
واحد ! »

وتوقفت أن أسمع ففتني . وفعلما قال الرجل : « لقد ظهر أن السيدة

كانت زوجة مستر روشتري ! .. وقبل أن يتضح في الرواية ، عدت  
إلى تحويله عنها ، بأن سأله عن الحريق ، ولكنه استطرد بحكي كيف أن  
مستر روشتري أغرم بحرية شابة في قصره : « ويقول الخدم إنهم لم يروا  
قط إنساناً ميمياً مثله ، فقد ظل بهم بها حتى بعد أن تركته ، وكانوا  
يراقبونه . وهكذا يفعل الخدم ياسيدتي ! - وهو يغفل إلى ذكراها . إن  
أحداً لم يعتبرها جميلة ، ولكنه كان في حوالى الأربعين ، وهي في العشرين  
والسادة الذين في سنه إذا وقعوا في هوى فتيات ، فلتوا بهن كأنهم  
مصحورون ! » : « ومرة أخرى رددته عن هذه الناحية ، إذ قلت :  
« هل اتجهت الفلوت إلى أن المجنونة يداً في الحريق ؟ »

— إن هذا أكيد ياسيدتي ، فليس سواها من أشعل النار . كانت  
ها حارسة قادرة ، بقطعة - تدعى مسز بول - لم يكن لها سوى عيب  
واحد شائع بين المعرضات .. كانت تحفظ دائماً بزجاجة حبر ، تخرج  
مها في الليل . إذا نامت مسز بول غمورة ، عدت المجنونة - التي  
كانت داهية مأكرة ! - إلى مفاتيحها فأخذتها ، وغادرت عرقها ،  
لتجوس في البيت مرتكية أي شر يخطر لها .. وفي تلك الليلة ، أشعلت  
النار أولاً في مسائر الغرفة الخبيرة لعرقها ، ثم هبطت إلى الطابق الثاني ،  
وسارت إلى غرفة المربية . وكان يبدو أنها عرفت كل ماجرى ، فذكرت  
الفتاة - فأشعلت النار في سريرها .. ولم تكن صاحبة فقه لحسن الخط ،  
إذ أنها كانت قد فرت قبل ذلك بشهرين ، ولم يدخر مستر روشتري  
جهداً في البحث عنها ، وكأنها كثر ثمن . ولكنه لم يسمع كلمة واحدة  
عنها ، فاستبد به التسلط ، واشتدت شراسته حتى غدت خطرة :

كما أصبح يحب الوحدة ، فأرسل مسز فيرفاكس .. مدبرة القصر .. إلى أحميا ، وقرروا معا شياً سرياً طيلة حياتها .. وأرسل مسز أديل إلى الشرسة ، وقطع كل علاقاته بعارفه ، واحتبس نفسه في القصر كالكاسك .. ولم يعد يخرج منه إلا في الليل ، إذ كان يتنشى في الرضبة وكأنه روح هائمة ، أو شخص غيبيل ..

— إذن فهو لم يكن يداخل القصر حين شب الحريق ؟

— بل كان .. ولقد صعد إلى الطابق العلوي .. والنار مشتعلة في

كل شيء .. فأبقت الخدم وأهاليهم على الخيط .. وذهب إلى حيث كان يحبس زوجته .. ثم صبح صباحاً يده بأثنا كانت فوق سطح القصر ، تلوح بنارها وتصبح بأعلى صوتها .. وصعد إليها مسز ووشتر ، وجمعا يناديا : « بوركا ! » ورأيانه يقترب منها ، ثم إذا بها تصرخ ، وتنفذ عالياً .. وفي اللحظة التالية كانت مهشمة على الإفريز الممتد أمام القصر ! ! !

وسألته : « مئة ؟ » فقال : « كالتحجر الذي تنأثر عليه عينا ودنيا ! » وكيف الرجل للذكرى الزهيدة ، وسألته عما حدث بعد ذلك ، فقال : « احترق القصر عن آخره .. » قلت : « وهل قضت أرواح أخرى غير تلك المرأة ؟ » فأجاب : « لا .. ولكن ، أيت مسز إدوارد التمكن مات إذ ذاك .. إن البعض يقولون إن ما أصابه كان جزءاً عادلاً لكتلته أمر زواجه الأول ، ومحاوثة للزواج مرة أخرى ، وأمراته على قيد الحياة .. على أي في الواقع أثبت له ! »

— وهل هو ما يزال حياً ؟

فقال : « أجل ، أجل .. ما يزال حياً ، وإن كان الكثيرون يسمون لو أنه كان قد مات ! » وعاد الدم يجري بارداً في عروقي وسألته : « لماذا ؟ » وكيف ؟ .. وأين هو ؟ .. أهو في إنجلترا ؟ .. وأجاب الرجل : « نعم .. إنه في إنجلترا ، ولا يستطيع أن يبارحها .. إنه عاجز ! » وعصفت الألم يقتني ، وأطال الرجل من لفتي بصحته : قبل أن يقول : « إنه أعشى .. عشي تاماً ! » .. وكنت قد خشيت ما هو أسوأ : خشيت أن يكون قد فقد عقله .. واستجست فوالى : لأساك عن مسز مصابه ، فقال الرجل : « كان كل شيء بسبب شجاعته ، وكرمه : فقد أبى أن يبارح القصر قبل أن يخرج منه كل إنسان آخر ، ثم هبط في النهاية عن طريق السلم الكبير .. ولكن كل شيء انهار .. وأخرجه من تحت الأنقاض ، حياً ، ولكنه في أسوأ حال .. فقد سقط لوح من السقف عليه فوقاه النار والألقاض ، ولكنه اقتلع إحدى عينيه ، وعشم إحدى يديه حتى اضطر مسز كارتز — الجراح — إلى بترها في الحال .. أما العين الأخرى فقد أودت بها النار .. وهو الآن يعيش أعشى ، عاجزاً ! » فبادرت بمسألة : « وأين هو ؟ » فأجاب الرجل : « في فرندين ، في دار ضيقة يملكها .. على ثلاثين ميلاً من هنا .. في بقعة منعزلة ! » وعدت أسأله : « ومن يقيم معه ؟ » فأجاب : « جون العجوز وزوجته ، فقد أبى أن يعيش معه سواهما .. ويقولون إنه يحطم تماماً ! » وطلبت إلى الرجل أن يعيد لي عربة لتجملني إلى فرندين على الفور ، ودفعت له ولحوذيه ضعف ما كانا يستحقان !

## الفصل السابع والثلاثون

● كان بيت ضيعة (فرلدين) غنيقاً ، متوسط الحجم ، خالياً من المبالغات الهندسية ، وقد قام في جوف إحدى الغابات . ولقد سمعت عنه من قبل ، إذ كثيراً ما حدثني مسنر وروستتر عنه .. وكان لبعده ، وسوء موقعه - صحياً - مهجوراً ، وليس بغير غرورين أو ثلاث في أي أثاث أو رياش .. وإلى هذا البيت وصلت قبيل الغروب ، في يوم بدت خلاله كثيفة ، وهبت فيه الريح الباردة ، وتساقطت الأمطار الغزيرة .. وقطعت الميل الأخير على قدمي - بعد أن صرفت العربة - وكانت الغابة جد كثيفة حتى يشعر أن تلمح أثر الدار عن كثب . على أنني ما لبثت أن بلغت أبرياء حديدية ، فمرت خلالها ، وإذا في بين صفوف من الأشجار .. وكانت ثمة طريق مكسوة بالحشائش ، فسلكتها ظناً مني أنها ستقودني إلى المسكن ، ولكنها امتدت وتشتعت دون أن يبدو أثر لعمران ، حتى غلقت أنني ضللت سبيلي ، وتكاثفت حولى ظلمة المساء وظلمة الأشجار الكثيفة ، وبحثت أثقلت حولى ، ولكني لم أجد طريقاً أخرى ، فتأملت سيري ، وأخيراً ، خفت تكاثف الأشجار ، وما لبثت أن لاحت لناظرى ، وهو لا يكاد يرى بين الظلمة والأشجار وتحت انخضرة الكثيفة الرطبة التي كست جدرانها .. وانتهيت إلى باب . فوقفت في ساحة على شكل نصف دائرة ، تحف بها الغابة .. وكان كل شيء يبعث عن أن البقعة متعزلة ، كما قال الضيفي . وكان السكون شاملاً ، لا يعكره سوى ارتطام قطرات المطر بأوراق الشجر ، فسألت نفسي :

« أين الممكن أن يكون هنا أحياء ؟ .. أجل ، كان هناك أحياء ، فقد سمعت حركة تحت عن أن الباب كان يفتح .. وفعلًا ، لم يلبث أن انتفض في بطة ، وبرز منه شخص وقف على عتبة .. وتبينت - في العتمة - أنه كان رجلاً بدون قبعة . ورائته بسيط فزاعية وكأنه يقين ما إذا كان المطر منهجراً .. وعرفته - رغم الظلام - كان سيدي ومولاي إدوارد فيرفاكس وروستتر !

وحمرت قدسي ، وأسكت أنفاسي ، ووقفت أرقبه وأتأمله والأسمى بمصر فزادى ، لأنه لن يراني .. كان لقاء مفاجئاً ، لقيت عنه في كبح العواطف التي احتاجها ، وفي غنى صوتي حتى لا يطنق بالرغم مني .. وكانت قامته كفهلي بها ، قوية ، مستقيمة .. على أنني حين اقتربت - بخطى مكتومة - تبينت في معالم وجهه تغيراً ثم عن هم وتوتط وكأنه طائر حبيس أو مغلَّب ، على أنني آثرت ألا أفاجئه ، فوقفت أرقبه ، وإذا به يسير في بطة نحو بقعة معشوشبة على حافة الساحة .. ثم وقف . وكأنه لم يكن يدرى إلى أية ناحية يتجه . ووقع يده ، فكشفت عن حذقة عتبه تحت أجفانه ، وتطلع إلى السماء بمقلة غير مبصرة ، وقد بدا عليه أنه كان يبدن جهلاً ليجعلها تيسر .. كان وكأنه لم يطمئن إلى اتجاهه ، فلمس سبيله عائداً إلى الدار ودخلها .. وإذا ذلك اقتربت وطرقت الباب برفق ، ففتحته زوجة جون : وبادرتنا قائلة : « أهله أنت يا ماري ؟ .. كيف حالت ؟ .. وأجفلت وكأنها رأت شيئاً ، ولكني هدأت من روعها بسرعة : فهتفت : « أحفًا هذه أنت يا آنسة .. أوقدت وحيدة ، في مثل هذه الساعة ، إلى هذا المكان المنعزل ؟ .. ونعينا إلى

المطبخ ، حيث وجدت جون جالسا يصطلي نار المدفأة ، فشرحت لها في إيجاز ما سمعته عما حدث منذ يارحت ( ثورنيلد ) ، وقلت إنني جئت لأزور مستر روشستر ، ثم أوقدت جون إلى البضعة التي يارحت فيها العربة ليخضر لي حقيقتي ، إذ كنت قد تركتها في كوخ صغير .

وفيا كنت أسأل حاري عما إذا كان من الميسور أن أقضي ليلتي في الدار ، دوى رنين جرس من قاعة الجلوس ، فخطت لثيبيته . وإذا ذلك قلت لها : « قول لسيدك أن ثمة شخصا يريد لقائه ، ولكن لا تذكرى له اسمي » . فاجابت : « ما أظنه سيسمع لك : فهو يرفض مقابلة أى إنسان » . ولكنها ما لشت أن عادت قائلة : « اكتبي له اسمك والمهجة التي جئت من أجلها » . وتحوّلت تملأ كعوبا بالماء ، وتضعه على صينية مع بعض الشموع ، قائلة : « إنه يجب دائما أن توضع الشموع بالغرفة ، رغم أنه أعمى » . فقلت لها : « هاتي الصينية ، فسوف أحملها إليه » . وأرشدتني إلى باب غرفة الجلوس .

وكانت غرفة الجلوس تبدو ككتيبة : وقد أخذت حفنة من الجبر نطد ونطد في مدفئتي التي وقف سيد الضيعة الأعمى بجانبها وقد مال نحوها ، وأسند رأسه إلى حائطها ، على عادته ، وكان كلبه العجوز « بابوت » منزويا في أحد الأركان ، وكأنه يناهى بنفسه عن مواطئ قدمي سيده . فلما وجلت الحجره ، شرع الكلب أذنيه ، ثم قفز مرسلانسانا قصيرا ، خائفا ، وقفز نحوى ، فكاد يسقط الصينية من بين يدي . وما أن وضعتها على المنضدة ، حتى ربت الكلب وهست إليه ليهرده إلى حيث كان . والتفت مستر روشستر بحركة آلية ، وكأنها أراد أن « يرى »



وقف سيد الضيعة الأعمى بجانبها وقد مال نحوها ، وأسند رأسه إلى حائطها



ما كان يجرى قلباً لم ير شيئاً ، نهى وقال : « ناوليني الماء يا ماري » .  
واقتربت منه حاملة الكوب ، فبعتني ( يا بلوت ) وهو ما يزال مقعلاً ،  
فكسامل السيد : « ماذا هناك ؟ » : وعدت أحسن للكلب : « أهدأ  
يا يا بلوت ! » فأمسك السيد الكوب في المواء قبل أن يذبح شفتيه ، وقال :  
« هل أنت ماري ؟ » : فأجبت : « إن ماري في الخليج » .

ومد يده بحركة سريعة ، ولكنه لم يمسني ، إذ لم يكن يراني ، وصاح  
وقد لاح لي أنه كان يحاول أن يرى بعينه اللتين قد ناديا بإصدارهما :  
« من هذه ؟ من ؟ .. أجيبني .. تكلمي ! » . فقلت : « هل تريد مني بدلاً  
من الماء يا سيدي .. ؟ لقد أرتقت نصف ما كان في الكوب .. » . وصاح  
في شجة آتمة : « من هذه ؟ .. من التي تتكلم ؟ » . قلت : « لقد عرفني  
يا بلوت .. ويعلم جون ومارى أنني هنا . لقد وصلت كثرى .. » . فنهف :  
« الله أكبر ! .. أي وهم بخشائي ؟ .. أي جنون عذب يستولى علي ؟ » ..  
ولكنني قلت : « لا وهم ولا جنون » ، فإن غفلك يا سيدي أقوى من أن  
بخشاه الوهم ، وصحكت لأفدح سيلاً من جنون ! .. وعاد يقول : « أين  
الذكلمة ؟ .. أهو صوت فحصب ؟ .. أوله ! ليس يوسعي أن أرى  
غلابد لي من أن أمس ، وإلا كف قلبي عن وجيبه ، وانفجر غيى ،  
أو فقدت الحياة ! » .

ومد يده ينلمس ، فأمسكت بها بين راحتي ، وصاح : « إنها نفس  
أصابعها .. الأصابع الصغيرة ، التحيلة ! .. إذن غلابد أنها هنا يا كلبها .  
وأفقت يده الثقوبة من قبضتي ، فأمسكت بشراحي ، وبكتني وعنتي  
وخصصري ، ثم ضمتني إليه ، وهو يهتف : « إنها جين ! .. نفس شكلها ،

وحجبها .. » . فأضفت قائلة : « وحصرتها .. » هي يا كلبها هنا مع هذا  
قلبا أيضاً .. ألا باركك الله يا سيدي ! لكم أنا مسروورة إذ أجدني بقربك  
مرة أخرى . ولكنه لم يقو على أن يقول شيئاً سوى : « جين لير ! »  
جين لير ! ! . فقلت : « أجل يا سيدي العزيز .. أنا جين لير .. لقد  
عمرت عليك .. لقد عدت إليك ! » .

— أحقاً ؟ .. بلحبعك وذلك ؟ .. أحقاً أنت جين . وعلى قيد  
الحياة ؟

— إنك تلمسني يا سيدي . وتضجني : « لست ياردة كالجثة » ، ولا  
هباء كالأشباح .. بل أنا حقيقة !

— يا حبيبتي ! .. هذه حقاً أطرافها .. وهذه قساها .. ولكنني  
لا أصدق أنني أحظى بالنعيم بعد كل ما لقيت من تعاسة .. إنه حلم ،  
وكم من أحلام مظه تراودني في الليل ! .. أحلام أضمتها فيها إلى قلبى ،  
وأقبلها ، وأشعر بأنها تحبني ، وأنى من أنها لن تفارقني :  
— ولئن أفارقت منذ اليوم يا سيدي .. أبداً !

— أيقول الطيف : أبداً ! .. ولكنني أستيقظ دائماً لأجد أن الأمر  
لا يبدو أن يكون خفيرة خالوية ، وأنتى وحيد ، مهجور : حباتي ظلام  
وعزلة وبأس .. إن روحي ظامدة ولكنها محرومة من الشراب : وتلمي  
جائع ولكنه لا يلقى القوت قط .. أيها الحلم الرقيق الناعم المستكين في  
أحضانى ، لسوف تطير كما طار إخوانك من قبل ، ولكن : قبلني قبل  
الرحيل .. قبليني يا جين !

والصفت شفتي بعينه اللتين كانتا مؤلفتين يوماً لأصبعنا بلا شعاع

وشره وجيته : وفجأة : وجدته ينهض وقد استولى عليه اليقين :  
 وحسب : إنها : أنت جون !.. إذن فقد عدت إلى ، ولست جثة جامدة  
 في عندق أو جوف جمل : ولست شيعين مبرودة بين أغراب ؟ ..  
 فقلت : لا ياسيدي ، بل أنا الآن امرأة مستقلة .. وإذا تسامح :  
 « مستقلة ؟ » قلت : « لقد مات خالي في ماديرا ، وترك لي خمسة  
 آلاف جنيه .. فصاح : « لعمرى ، إنها حقيقة .. إنه واقع !.. وهذا  
 هو صوتها ذو الطابع الخاص ، الذى يجي قلبى النابض .. إذن فانت  
 امرأة غنية يا جانيت ؟ .. لاشك في أن لك الآن أصدقاء يعنون بك ،  
 ولا يحسبونك غناء أن توفى حياتك على أعمى أكنع عاجز ! ..  
 فهتفت : « فقد أياك ياسيدي بأنى مستقلة : وغنية : وسبلة نفسى ! ..  
 فسامح : « وهل ستمكثين معي ! .. وكان جوابي : « بالتأكيد ،  
 ما لم تكن تتابع أنت !.. سأكون جارتك ، وممرضتك ، ومديرة  
 بيتك .. إننى أجدك وحيداً ، وسأكون أيسبك : أفرألك .. وأسير معك  
 وأجلس معك .. وأقوم بخادمك .. وأكون عينين وبدين لك .. فكففت عن  
 الحزن ياسيدي العزيز ، فلن تكون وحيداً مادمت أنا على قيد الحياة ! ..  
 ولم يعب ، بل بدأ شارح الذهن ، ثم تهلل ، وهم بأن يتكلم ، ولكنه  
 عاد فأطبق شفتيه . وشعرت بشيء من الحيرة ، وشعيت أن أكون قد  
 تجاوزت حدودى إذ عرضت عليه البقاء معه ، وأنه رأى في ذلك ما ينافي  
 الاحتشام .. كما فعل سانت جون ! .. والواقع أننى ما اقترحت البقاء  
 معه ، إلا استناداً إلى أنه كان يود أن أكون زوجته .. وشعرت فتمثل  
 من أحضانه يرفق ، ولكنه تثبت في ملهوقه ، وقال : « لا يا جانيت ..

لا تلجئ !.. لقد لمستك ، وسعيتك ، ونعمت بوجودك ، وبعبث  
 مواثباتك ، وليس يوسعى أن أتخل عن هذه السررات : لايد من أن  
 استحوز عليك ، ولتضحك الدنيا ، وتقتل لائى أنا ، فإن هذا لن  
 يهينى .. إن روحى تطالبك ، فإن لم تثل بعيتها فستوقع على كيانى انضماماً  
 مبرئاً .. فقلت : « حسناً ياسيدي ، سأبقى معك كما قلت .. فمقب قاللا :  
 « ولكنك تفهمين من البقاء معي غير ما أفهم .. إنك قد تعتزمين أن تنص  
 في كمرقة رجعية : وهذا يكفىنى ، إذ أرى أن من الخلق في الآن ألا  
 أكون لك سوى مشاعر أيوية .. ولكنك لن تغفل أبداً مرضيتى يا جانيت :  
 إنك شابة ولايد من أن تزوجى يوماً ! ..

.. لمست أحفل بالزواج ..

.. بل يجب أن تحفل .. ولو أننى اليوم كما كنت من قبل ، لما  
 جعلتك لتحملين همأ ، ولكنى .. جسد بلا بعض !  
 واستكان للألمى مرة أخرى : « أما أنا فقد ازددت إبتهاجاً وجرأة :  
 إذ أدركت العقبة التى كانت تعترضه .. ولكنها لم تكن تعترضنى أنا ،  
 فقلت : « سوف يضطلع شخصي ما يردك إلى الطبيعة الإنسانية يوماً ،  
 إذ أرى أنك قد تطورت إلى أسد ، أو ما يشبهه .. وإذا ذلك بسط ذراعه  
 المبرودة اليدي : وقال : « ولكنى لم أوت بدأ ولا عالياً في هذه الذراع ..  
 إنها بشعة المنظر ، ألا تظنين ذلك يا جون ؟ .. فقلت : « إننى أشعر  
 بالأكسى إذ أراها : وإذا أرى عينيك ، والخرق الذى في جيبك : « وأسوأ  
 ما في الأمر أن المرء في خطر الوقوع في حبك من أجل هذا كله ! ..  
 فقال : « خللت أنها ستغير تقززك يا جانيت ! ..

.. أخيراً : لا تغفل هذا ، وإلا انزلني لساني إلى تسفيه حكاك :  
والآن ، دعني أغادرك وحلة لأدكي النار ، وأنظف المكان آدم المداقة .  
هل تعرف النار الجليدة إذا وجدت ؟  
- أجل ، فإن عيني اليمنى تستطيع أن ترى الروح وكأنه ضباب  
مفقد .

قلت : « وهل ترى الشموع ؟ » فأجاب : « خافعة جداً .. كل  
منها كالسحابة المضربة » : فسألته : « وهل تراني ؟ » : وكان جوابه :  
« لا يا حوريني .. ولكنني أجد الله على أن يوسعني أن أصنعك وأن المسك » .  
واستدعيت ماري ، وصرعان ما نسقت معها الغرفة ، فأصبحت  
بهيجة المنظر ، وأعددت له عشاء شهيياً ، وقد انتشت أحاسيسي . وأخذت  
أحدثه أثناء العشاء - ووقتاً طويلاً بعده - في سرور وانطلاق .. أجل ،  
كنت أشعر وأنا معه بانطلاق وراحة ، لأنني كنت أدرك أنني أروق  
له ، وأن كل ما أقول يسري عنه ويتعشقه . وباله من شعور طروب ،  
رد الحياة والضوء إلى طبيعتي كلها . فإذا في أعين في وجوده ، وإذا  
هو يعيش في وجودي .! وأخذ بعد العشاء يسألني أين كنت ،  
وماذا كنت أفعل ، وكيف صرت عليه . ولكنني اقتصررت على إجابات  
مقتضبة ، خشية ألا ينسج الليل للتفصيل . كما أنني لم أشأ أن أنكأ  
جراحاً قديمة في قواده .. وكان لا يفتأ يسألني : « أخيراً أنت آدمية يا جيني ؟ »  
من الذي يستطيع أن يصنع الحياة المظلمة ، البغيضة ، اليائسة التي كنت  
أرزع تحتي في الشهور الماضية ؟ لم أكن أفعل شيئاً ، أو أتوقع شيئاً .  
أحطت بين الليل والنهار ، دون أن أشعر بالبرد إذا انطلقت النار .

ولا بالجوع إذا نسبت الطعام .. حزن لا ينقطع ، وشوق ممدوم إلى أن  
أضم ( جيني ) ثانية .. كنت أصير إلى استردادها أكثر مما أتوق إلى  
استرداد بصري . فكيف أصدق أن جيني معي الآن ، وأنتي أحيتها نوكت .  
أنها تحبني ؟ !



● وشعرت به مستيقظاً في ساعة جد مبكرة من الصباح التالي ، بتفان  
من غرفة إلى غرفة . وما أن هبطت إليه ماري ، حتى صحت هذا السؤال :  
« هل من إر هنا ؟ » : ثم : « في أية غرفة أنزلتها ؟ » : أهني غرفة جافة ؟  
وهل استيقظت ؟ » : فهبطت إليه ، ودخلت الغرفة بجعلي خفيفة ،  
وأخذت أتأمله قبل أن ينطق إلى وجودي .. كان من المزعز أن أشهد  
تلك الروح القوية حبيسة جسد عاجز مشوه .! كانت لماعيد الأسي  
تتحلل قساياه القوية ، فذكرني مظهره بمصباح انطفأ ، وجسم يرتصب  
أن يقضه ثانية .. وأأسفاه .! لقد أردت أن أبدو مرحة ، ولكن عجز  
الرجل الجبار من شغاف قلبي .. ومع ذلك فقد رحمت أعطابه بكل  
ما استطعت من شدة روح : « إله صباح مشمس مشرق يا سيدي .. ولن  
تبت أن تخرج للترعة » . وأفظت كلتي وميض روحه . فأشرقت  
أساريره وحنف : « آه ، إنك هنا حقاً يا عاصموني .! تعالي لي » :  
إنك لم تدعني ، ولم تلامني .. كل أنغام الدنيا تتركز في لسان جيني  
الحبيبة ليسكبها في أذني .. وكل أشعة الشمس أحسها في وجودها : «  
وقضيت معظم النهار في الهواء الطلق ، فقد قدته بعيداً عن الغابة  
الكثيفة الرطبة ، إلى بعض الحقول الناضرة ، ورحلت أصف له بيا .

للخضرة ، وحسن الزهور ، وصفاء السماء .. واختارت له مجلساً على  
جلع شجرة في بقعة جميلة ، متواوية . ولم أمانع حين أجلسني على ركبتيه :  
ولماذا أمانع مادام كل منا سعيد بقرب الآخر ؟ .. فبدأت ، صباح وأنا  
بين ذراعيه : يا لك من حاضرة قاسية ! .. أواه ، يا جين ، أي شعور  
تلكني حين اكتشفت فرارك من نورفيلد ، وعندما عز عليّ العصور  
عليك في أي مكان ، ولما تبينت أنك لم تتزوجي بتقود أو أي شيء يقع  
بدلاً منها ؟ .. وسرعت أروي له تجاربي في العام الأخير ، وقد شغفت  
كثيراً من وصف الأيام الثلاثة التي قضيتها مشردة : جامعة ، حتى  
لا أسبب له ألقاً لا داعي له .. وكان يقاطعي باليوم والعتاب ، فلما انتهيت  
سألني عن سانت جون .. وعاطفه أن رحمت أصفه بكل حسن ، وأطلب  
في اعتداجي .. ورأيت أن الغيرة قد لدغته ، فلم يلبث أن قال :

— هل عبتك سانت جون معلمة قبل أن يعرف أنك ابنة عمه ؟  
وأجبت : « نعم » ، فقال : « هل كنت تريه كثيراً .. وهل كان  
يزور المدرسة أحياناً ؟ » ، فأجبت : « يومياً » .

— هل كان يقر نصرفالك يا جين ؟ .. إنني أعزقك بأربعة ذكيات :  
وقلت : « أجل » ، كان يقرأها . فقال : « هل اكتشفت فيه أشياء  
كثيرة لم يكن يتوقعها ؟ » . وكان جوابي : « كنت أدري » . فعاد يسأل :  
« تقولين إنك كنت تقيمين في كوخ صغير بالقرب من المدرسة ، فهل  
كان يزورك فيه ؟ » .. وأجبت : « بين آن وآخر » . وهنا سألتني :  
« في السماء ؟ » ، فقلت : « مرة أو اثنتين » . وحدثت برهة ، ثم عاد يسألني :  
« كم ألفت معه ومع أخيه بعد اكتشاف التهرب ؟ » . فكان جوابي :

« خمسة أشهر » .. وإذا عرف أنني درست الألمانية في تلك الأثناء ، وأن  
سانت جون علمني قليلاً من الهندوستانية ، قال : « لماذا رغب في أن  
يعلمك الهندوستانية ؟ » ، فأجبت : « كان يري أن أذهب معه إلى  
الهند » .

— آه : « بلغت لب الموضوع .. أكان يريد الزواج منك ؟ »  
— بل عرض عليّ الزواج .. سأبديه أكثر من مرة ، ولم يكن يقل  
عنك إلحاحاً واستحقاقاً .

— أكره لك يا من إر أن يوسعلك أن تغادريني ، لماذا تبين جاذبة  
على ركبتي وقد أذنت لك بالرحيل ؟

قلت : « ولماذا أين أذهب يا سيدي ؟ » . وكان جوابه : « مع الزوج  
الذي اخترته .. هذا سانت جون ويفرز ! » .. وهنا قلت : « إنه ليس  
زوجي ، ولن يكون ، فهو لا يحبني ، ولست أحبه .. ما أراد الزواج  
منّي إلا لأنه ظن أنني أملك لأن أكون زوجة مبشر .. إنه بارد لئلا  
كعجيل من جلد ، فهو ليس مثلك يا سيدي .. إنه لا يري في شخصي  
قنينة ، وإنما يري بعض محاسن عقلية نافعة .. فأفتركتك بعد هذا يا سيدي  
وأذهب إليه » .

وارتجفت على الرغم مني ، فتلقت بسيدي الأعمى الحبيب . وإذا  
ذاك ابستم قائلاً : « أحقق يا جين أن هذه هي حقيقة ما بينك وبين  
ريفرز ؟ » ، فقلت : « كل الحقيقة يا سيدي .. آه ، لا حاجة بك لأن  
تغار ، فإنما أردت أن أذكرك قليلاً لأبده عنك الشجن .. لو أنك  
أدركت كم أحبك لأزدهاك اليه ونعمك الرضي . إن قلبي بأسره ملك



لك يا سيدى ، وسيدى معك ولو شاء القدر أن يقصيرنى عنك : قبلنى وقد اكفهر عياه ، وتمتم : « آواه يا بصرى المظلم ، وياقوى العاجزة ! » : ورجت أسرى عنه ، فأشاح عنى قليلا ، وإذا ذاك رأيت دمعة تنحدر من عينه المغلقة ، فأنظر قلبى ، وعاد يقول : « اننى لست أفضل من الشجرة الحقيقة التى اقتلعتها العاصفة فى حديقة قصر ثورنفلد .. فأى حق لهذا الطفل ، فى أن يسأل زهرة متفتحة بأن تضىء بنضارتها بقباهه ؟ » : فقلت : « ما أنت بالشجرة التى اقتلعتها العاصفة يا سيدى ، وإنما أنت خضرة ونضارة وقوة ، لسوف تنمو النباتات حول جذورك ، صححت لها أو لم تسبح ، لأنها تسعد فى الاحتماء بظلك .. وبينما تحنو عليها ، مستشف هي خولك ، لأن قوتك تتبع لها حتى أمينا ! » :

وعاد يتنهد ، إذ سريت عنه . على أنه ما لبث أن قال : « آواه يا جين ! .. ولكننى أشد زوجة » .. فقلت : « أحقا يا سيدى ؟ » : وهنا قال :

— أجل ، سأختار تلك التى أحبها فوق كل شيء .. هل نتزوجين منى يا جين ؟

وإذا أجبت : « نعم يا سيدى » ، قال : « أتزوجين من أعمى مسكين ، تأخذين بيده لتقوديه ؟ » . فقلت : « أجل يا سيدى » . وعاد يسأل : « أتتزوجين رجلا عاجزا يكبرك بعشرين عاما ، وتضطرين إلى خلعه » : فقلت : « أجل يا سيدى » . فهتف : « آواه يا حبيبتى ! .. ليبارك الله ويخزل لك الجزاء ! » : وإذا ذاك قلت فى حرارة : « مستر روشستر ! » : إذا كنت قد فعلت خيرا فى حياتى ، وإذا كانت قد جالت بخاطرى

يوما فكرة طيبة ، وإذا كنت قد صليت يوما صلاة غلصة لا شائبة فيها ، وإذا كنت قد تحيت يوما أمنية حلالة .. فما أئذى الآن أنال الجزاء ؟

— ذلك لأنك إنما تغيطين بالنضحية .

— نضحية .. بأى شيء أضحي ؟ .. أهي نضحية أن أستبدل بالجويع قوتا ، وبالرجاء سعادة واقعة .. أن أحضن أغلى ما لدى .. أن ألصق شفتى بمن أحب .. أن أسند إلى من أطمئن إليه .. أهذه نضحية ؟ .. إذا كانت كذلك ، فأنا منبذة فعلا بالنضحية !

— أوليس احتمال عجزى والتفاضى عن عيوبى نضحية ؟

— إنها ليست شيئا فى نظرى ، فأنا أحبك اليوم أكثر من ذى قبل ، إذ أجدنى ذات تفجع لك .

— إذن ، فليس لدينا ما نرتب من أجله . لنزوج فى القو !

وكان يتكلم بحماسة ، وقد عاودته حمية الماضى . فقلت : « اننى أرى الشمس قد تجاوزت السميت ، فدعنى أعرف الوقت فى ساعتك » . ونظرت إلى الساعة ثم قلت : « إنها الرابعة من بعد الظهر ، أفلا تشعر بجوع يا سيدى ؟ » . ولكنه عاود حديثه الأول : « بعد ثلاثة أيام نعدد قرانا يا جين ، ولا حاجة بنا للانتظار . إنك تظنينى كلها زنديقا يا جين ، ولكن قلبى يزغر بالشكر لرب هذه الأرض ، فهو أبعد نظرا ، وأعدل حكما ، وأوسع حكمة من الإنسان . لقد أذهبت ، إذ كدت أدنس زينةى البريئة ، ولكن الله القدير أنزعها منى ، فكادت ألعه فى حتى بدلا من أن أحنى الرأس لحكمه .. تحديته ، فبعثنى العذلة الإلهية ، وتوالت على

الكنيات ، واضطرت إلى أن أهم في واد تخيم عليه ظلال الموت :  
وأدركني قصاص الله فأذلي إلى الأبد . إنك لتعلمين أنني كنت مغروراً  
بشوقى ، فأين هي الآن وقد أصبحت مضطراً إلى من يقودنى ، كما يفعل  
الطفل في ضيعته ؟ . لقد بدأت أرى يد الله وأعترف بقدرتها : بدأت  
أندم ، وأتوب ، وأتقرب إلى خالقى .. بدأت أصلى ، صلاة صادقة برغم  
قصرها .. ومنذ أيام ، بل منذ أربعة أيام - في مساء الاثنين الماضى -  
اعتزيتى حال غريبة ، فإذا الحزن يحل على الجحود ، والألمى على  
العتاد .. وكنت أوقن - بعد أن عجزت عن العوز عليك - من أنك  
ولابد ميتة .. وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة ، ناشدت الله أن يخلصنى  
من الحياة إذا رأى في هذا خيراً ، وضعت في أن يجمعنى العالم الآخر  
بك .. وكنت إذ ذاك جالساً في غرفتى بجوار نافذة مفتوحة .. واشتدبى  
الحنين إليك يا جانيبت ! فتهتف لسانى بما كان قلبي يهفو إليه ، فهتفت :  
« جين ! جين ! جين ! » .

فقلت أسأله : « أكان ذلك في مساء الاثنين .. حوالى منتصف  
الليل ؟ » .. فقال : « أجل . ليس المهم الوقت ، وإنما المهم ما حدث  
بعد ذلك .. لسوف نطمين أنني أؤمن بالخرافات ، ولكنه الحق أقول :  
فما إن هتفت باسمك ، حتى أجابنى صوت - لا أدري من أين أتيت ،  
ولكننى أعرفه جيداً - : « إننى قاضية ، انتظرنى ! » .. وبعد لحظة ،  
جئت الريح هذه الحسنة : « أين أنت ؟ » .. إن من العسير على أن أصف  
لك ما أريد . إن ( فرندين ) دقيقة - كما ترين - في جوف غابة كثيفة ،  
تكنم فيلهبات الصوت ، ومع ذلك فقد خيل إلى أن عبارة « أين أنت ؟ »

انطلقت بين جبال ، إذ سمعت لها صدى تردد .. وما كان أحلى التسمم  
الذى ثقت جينى إذ ذاك .. إننى لأؤمن بأن روحينا تقابلنا إذ ذاك .  
ولقد كانت ليلة الاثنين ، وحوالى منتصف الليل أيها القارئ ،  
حين سمعت النداء الخفى ، وأجبت عليه بذلك الكلمات .. على أنني لم  
أصارع مستر روشستر بذلك ، فقد بدت الظاهرة أغرب من أن أصفها  
له : كان عقله في دور النفاهة من آلامه ، فلم يكن ينبغي أن يرقن  
بأسرار ما وراء الطبيعة .

\*\*\*

### الفصل الثامن والثلاثون

● وتزوجته ، أيها القارئ ! .. وكان قرناً حادثاً لم يحضره سواء  
ولداى والكاهن وكاتب الكنيسة . وعندما عدنا إلى الدار ، قصدت إلى  
المطبخ ، حيث كانت ماري تظهو ، وجون ينظف السكاكين ، وقلت :  
« لقد تزوجت مستر روشستر في هذا الصباح يا ماري ! » .. وكانا من  
البسطاء ، الخشعين ، الذين يستطيع المرء أن يزجى إليهم أى نأ دون  
أن تحرق أذنيه صيحات الدهشة أو الفرح .. فخطعت إلى ماري في  
هدوء ، وقد غفلت عن المعرفة التى كانت تقلب بها دجاجتين على النار ،  
فتركتهما معلقة في الهواء ثلاث دقائق ، بينما كنت جون برهة عن تلصع  
السكاكين - على أن ماري ما لبثت أن تحولت إلى الدجاجتين ، دون أن  
تنفوه بأكثر من : « أحقاً يا آنسة ؟ .. أحسناً ! » .. ولحت جون يبتسم  
فاغراً فاه ، وقال : « لقد قلت لماري إننى كنت أعرف أن مستر  
إدوارد سيقدم على هذا ، وفي رأيي أنه أحسن صنعا » .



وكتبته لفرى إلى (مور هوس) و (كبر دج) أزعجى لها ،  
وأشرح سر تصرفي . وابتهجت ديانا ومارى بلا تحفظ . . . ولست أدري  
كيف تلقى سانت جون النبأ ، فإنه لم يرد قط على خطابي ، على أنه ما ليث  
أن كتب لي بعد ستة أشهر ، دون أن يذكر اسم مستر روشستر أو يشير  
إلى زواجي . وحرص بعد ذلك على الكتابة إلى بانتظام . وفي قترات  
غير متقاربة . . . متمنياً إلى السعادة .

وما أظنك نسيت أديل ، أيتها القارئ . . . إنني سرعان ما استأذنت  
مستر روشستر في الرحيل لزياراتها في مدرستها . ولكم أثر في نفس الفرح  
الطاغي الذي تولاهما . . . وهدت لي شاحية ، هزيلة ، مهمومة ، فلما تبينت  
أن نظام المدرسة أقسى من أن تحمله صبابة في سنّها ، صيبتها معي في  
عودتي ، وألحقها بمدرسة قريبة أكثر ملاءمة لها . واعتدت أن أزورها ،  
وأن أستقدمها إلى دارنا ، وألا أدعها تشعر بحاجة أو أمي . . . وهكذا  
اقتربت قصتي من ختامها ، فلم يبق سوى كلمة عن حياتي الزوجية ،  
ونظرة سريعة إلى مصائر أولئك الذين ترددت أمماهم في الرواية .

لقد انقضت عشر سنوات على زواجي ، فعرفت مدى المنفعة التي  
يحظى بها المرء حين يعيش من أجل أحب عزيز لديه على الأرض . . . إن  
لغني تعجز عن وصف خناتي ، لأنني حياة زوجي ، وهو حياتي .  
وما أظن امرأة توثقت صلتها بزوجها قدر توثق صلتى بزوجي . . . إنني  
لا أعمل عشرة إدوارد ، وهو لا يعمل عشري . اللهم إلا إذا جاز لغيره  
أن يسام ويحب قلبه . . . إننا دائماً معاً ، وكأننا شخص واحد بنعم بالوحدة  
والحرية . . . ولقد ظل مستر روشستر فاقد الإبصار خلال العامين الأولين

من زواجنا . فكنت أنا بصره ، كما لا أزال يده اليمنى . . . كان يرى  
العلبة بعيني ، ويقرأ الكتب بهما ، وما سمعت قط أن أعوضه بصري  
عن بصره المفقود . . . وكان حبه لي يجعله لا يألم من اعتياده علي ، واستمتاعه  
بخدمتي له ، فقد كان موقفاً من أنني أحبه كل الحب . وفي ذات صباح  
— في نهاية العام الثاني لزواجنا — أخذ يعل علي خطاباً . وفيما كنت أكتب ،  
سألتني : « هل تلبسين حلية لامعة حول عنقك يا جين ؟ » . . . وكنت أحيط  
برغبتي بسلسلة ذهبية ، فقلت : « أجل » . قال : « وهل ثوبك أزرق  
خفيف ؟ » . . . وكان ثوبي كذلك فعلاً ، وإذ ذلك أنياقي إدوارد بأنه بدأ  
منذ زمن يشعر بأن الغيوم التي كانت تخيم على عينه الوحيدة أخذت تخف  
وتنقشع . وقد تأكد من الأمر في ذلك الصباح . ومن ثم رحلنا إلى لندن ،  
حيث فحصه أخصائي مبرز في علاج البصر ، فلم يلبث أن استرد إبصار  
تلك العين . ومع أنه لا يستطيع الآن أن يرى بعلاء تام ، ولا أن يطلع  
القراءة والكتابة ، إلا أنه يستطيع أن يبين طريقته دون أن يأخذ أحد  
بيده . . . وعندما تلقى أول أولاده بين ذراعيه — عقب مولده — استطاع  
أن يرى الابن الذي ورث عنه عيني في حالها الأول . . . العيني الواسعتين ،  
المتألفتين ، السوداءين ! . . . وفي هذه المناسبة : عرف إدوارد — مرة  
أخرى — أن الله برحمته قد خفف من عقابه !

وهكذا أحيا مع حبيبي إدوارد في سعادة يضاعف منها أن أحب  
الناس إلينا سعداء ، هم الآخرون . فلقد تزوجت ديانا ومارى وريغز . . .  
الأولى من ضابط في البحرية ، طيب القلب والسيرة ، والثانية من قس  
كان زميل أخيبا في الدراسة . . . أما سانت جون فقد ذهب إلى الهند ،

وما يزال يمضي في الطريق التي اختارها لنفسه، كرائد قوى العزيمة، لا يتطرق الكلل إلى حمة وسط الصخور والأخطار.. لقد كان صارماً متعنتاً، طموحاً. ولكنها كانت صرامة المجاهد في سبيل الله: وتعتت الرسول الذي يتمثل بقول المسيح: «من يأتي ورأى فلينكر نفسه وليحمل صليبه ويتبعني».. أما طموحه، فطموح الروح الكبيرة السامية، التي تهدف إلى أن تكون في الصفوف الأولى بين من يعتقدون من الأرض، ويفتخرون بالخلاص، ويقفون أمام عرش الله بلا خطيئة.. ولم يتزوج سانت جون حتى الآن. ولقد انتزع خطابه الأخير الدموع من عيني، وإن ملأ قلبي بفرح ربابي.. لقد أحسست بأن الخطاب التالي سيكتب بيد غير يده، لينقل إلى مصرعه.. مصرع خادم أمين وفي لربه. ولكن، لماذا البكاء؟.. إن الخوف من الموت لن يخيم على الساعة الأخيرة في حياة سانت جون، وسيظل عقله صافياً، وأمله قوياً، وبقيته ثابتاً.. لقد عبر في خطابه الأخير عن هذا بقوله:

— لقد أنذرني معلمي ومولاى.. أن صوته يزداد وضوحاً في كل يوم، وهو يقول لي: «يقيناً إنني لآت مريعاً!».. وفي كل ساعة، أجيب في حرارة: «آمين.. فلنأت أيها الرب يسوع»!

\*\*\*

(تمت بحمد الله)

[www.liilas.com/vb3](http://www.liilas.com/vb3)

^RAYAHEEN^

مع تحيات منتدى ليلاس